تجاربهم في القراءة

لمجموعة

من الباحثين والأكاديميين والمفكرين

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

ح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
تجاربهم في القراءة. / مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. - الرياض، ١٤٣٣هـ
٢٨٩ ص؛ ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ٨ـ٩٤ـ٨٠١٩ـ٦٠٣ـ٩٧٨
١ـ المقالات العربية ٢ـ القراءة أ. العنوان
ديوي ٠٨١ ١٢٤٦/١٤٣٣

رقم الإيداع: ١٢٤٦/١٤٣٣
ردمك: ٨ـ٩٤ـ٨٠١٩ـ٦٠٣ـ٩٧٨

حقوق النشر محفوظة
مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
الرياض ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م
ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٠٠٩٦٦١ ٤٩١١٣٠٠ - فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٩١١٩٤٩

www.kapl.org.sa

المحتويات

الموضوع صفحة

تصدير المكتبة: ٧

البحث الأول:

التعايش مع كائنات من ورق: . . . . **عبدالله بن محمد الغذامي** ٩

البحث الثاني:

مراحل القراءة . . . . **سعد بن عبدالرحمن البازعي** ٣٥

البحث الثالث:

قوانين البناء المعرفي . . . . **خالص مجيب جلبي** ٥٥

البحث الرابع:

أداة القراءة العقل . . . . **نجيب بن عبدالرحمن الزامل** ١٢٣

البحث الخامس:

القراءة قضية . . . . **عبدالفتاح أبو مدين** ١٤٧

البحث السادس:

القراءة... وفك الرموز . . . . **سلمان بن فهد العودة** ١٦١

البحث السابع:

القراءة نزهة في عقل الكون . . . . **أميمة بنت عبدالله الخميس** ٢٠٧

البحث الثامن:

القراءة دون طقوس . . . . **حمد بن عبدالله القاضي** ٢٣١

الموضوع **صفحة**

البحث التاسع:

مصادر الوعي بالقراءة . . . . **عثمان بن محمود الصيني** ٢٤٩

البحث العاشر:

القراءة وسيطرة اللغة . . . . **حسن بن فهد الهويمل** ٢٧٣

تصدير

والله من وراء القصد . .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

التعايش مع كائنات من ورق..!(١)

أ. د. عبدالله بن محمد الغذامي

أستاذ النقد والنظرية بجامعة الملك سعود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

للقراءة سيرتان: سيرة يومية تفصيلية؛ وسيرة ذهنية. سأؤجّل السيرة الذهنية إلى نهاية الحديث، وأبدأ بالسيرة اليومية.

القراءة.. سيرة يومية:

أتذكّر القراءة كسيرة يومية؛ لأنني مدين لأناس صنعوني من حيث القراءة، ومن حيث أن أكون إنسانًا قارئًا، أول هؤلاء، كان والدي، رحمه الله، والدي كان ينتمي إلى فكرة تربوية يعتقد فيها أن الشارع مُضر بالولد، وخروج الولد الصغير إلى الشارع يفسده ويفسد أخلاقه ويجعله غير مُربىً تربية كافية؛ فحرص على إبقائي في البيت، لكن البقاء في البيت يتطلب أسبابًا كافية لذلك؛ فكان يدفع بي نحو القراءة، وإذا أحسَّ بالوهن أو عدم الرغبة، كان يوهمني أنه يريد أن يستمع؛ فيحضر لي كتابًا ويقول: اقرأ عليّ يا عبد الله! إيهامًا منه أنه هو الذي يريد أن يسمع المقروء! كانت إذن محاولة لتدريبي وجعلي أتعلم شيئاً من القراءة. هذا كان بالنسبة لي في ذلك الوقت بمثابة الاضطهاد؛ والحَجر والتعذيب؛ لأنني محروم أن أكون مثل سائر الأطفال، بأن أخرج إلى الشارع للعب في بيئة ريفية، مثل: بيئة عنيزة، كل الناس في الشارع، سيما الأطفال منهم إلا أنا!

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء الثلاثاء ٢٢ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ الموافق ٢٧ مايو ٢٠٠٨م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

هذا التصرُّف بالطبع، انعكس على علاقاتي الاجتماعية، وأثّر بالسلب فيها، حيث صارت قليلة جدًا، وتأثّرت حياتي؛ حتى صارت خيالية، صرت أعيش مع الأموات، أكثر من الأحياء! . . الفرزدق، الجاحظ، المتنبي، أناس ليسوا في الكون ولكن في الخيال، أعيش مع الكائنات الورقية، الكائنات الخيالية، ويعمر خيالي عبرها، وكان حس الاضطهاد قويًا، لكن بالتدرُّج بدأ الأمر يتغير شيئًا فشيئًا؛ لأنني بدأت أشعر بمردود فعالية القراءة على المستوى الشخصي، والمستوى الأدائي، ثم صادف أن لي زميلاً، لم يكن صديقًا حينها، اسمه: محمد السليم (رحمه الله)، وكان يقرأ دون أن أعرف أنه يمارس القراءة، فبينما كنت أسير في الشارع، يومًا من الأيام، متأبطًا كتابًا، فنظر إليّ نظرةً، وسألني:

- أتقرأ كتبًا؟!

- أجبته: نعم!

في تلك اللحظة بدأت الصداقة بيننا، وجمعنا الكتاب على هذه الصداقة.

صديقي محمد السليم، كان نهمًا وأدوم مني على القراءة؛ حيث كان يذهب إلى المكتبة العامة في عنيزة ويستعير أمهات الكتب، مثل: (الأغاني؛ ونفح الطيب؛ والعقد الفريد، . .)، فصرتُ أذهب مثله وأستعير الكتب مثله!

بدأت في محاولة ليست بريئة أنظر إلى اليوم الذي استعار فيه الكتاب، واليوم الذي أعاد فيه الكتاب (المجلد)، وأقارن بين قراءته وقراءتي للكتاب، كم يستغرق عنده؟ وكم استغرق عندي؟!

هذه المحاولة، حفَّزتني على مواصلة القراءة والتعوّد على السرعة. . التي يمكن لي استهلاك كميات كبيرة من الصفحات! وظل النشاط عندي وعند محمد السليم مبنيًا على الكتب المستعارة.

قرأنا الفرزدق، والمعلقات، والعقد الفريد إلى آخره، والمتنبي، والشروحات، وفي أحيان كثيرة كنا نقرأ أشياء لا نفهمها، فيها صعوبة لغوية، صعوبة بعض

الحوارات في نقاشات الشرّاح في شعر المتنبي، عن خلاف لغوي أو خلاف عَروضي، أو خلاف في الدلالات، أو خلاف أحيانًا يمس مسائل عقدية، أحيانًا لا نفهمها، لكننا مع ذلك نلزم أنفسنا بقراءتها، واستمر الأمر على هذا الحال، إضافة إلى دراستنا معًا في المعهد العلمي، وحضورنا معًا إلى حلقات الشيخ محمد بن عثيمين في الجامع الكبير، والتي ظلت تُثري جوانب المعرفة في علوم الدين، وعلوم اللغة، جنبًا إلى جنب مع جانب القراءة.

كنا نشعر أن القراءة هي الأقرب إلى نفوسنا، وتعطينا حسًا بالتمرد على المؤسسة التعليمية. . على الأساتذة. . . ، على طريقة التدريس. . . ، على المقررات الصغيرة، والكتيبات الصغيرة كمقررات، فيشعرنا بشيء من التمرد ضد المؤسسة؛ أعطانا هذا التمرد معنىً كبيرًا؛ أننا معًا مختلفان عن سائر مَنْ في المعهد: طلابًا وأساتذة. كان ذلك يعطي قيمة أخرى ومختلفة.

استمرت الأمور على هذا الشكل إلى أن بدأت الأمور تتأزم؛ بسبب نقص المادة، وقلة ذات اليد، لكنا ابتكرنا من خياراتنا وسائل أتاحت لنا مصادر معرفية أخرى، تمثّلت في أربعة مصادر:

- الأول: الاستعارة، وقد أخذنا بنظام الاستعارة من مكتبة المعهد العلمي، أو مكتبة الجامع، وهي مكتبة جامعة، تراثية، وكتب دين، وبعض المخطوطات، أو مكتبة في عنيزة تسمى في ذلك الحين المكتبة العلمية، كان قد أسسها الشيخ عبدالله بن سليمان، (رحمه الله)، فكنا نستفيد من هذه المكتبة باستعارة الكتب وقراءتها، هذا واحد من المصادر.

- الثاني: الإهداء، حيث كان في المعهد العلمي نشاط ثقافي كبير نمارسه، أيضًا كان لدرجات التفوق والنجاح جوائز من الكتب، إذ كنت الأول في الفصل، فكانوا يهدوننا كتبًا سنويًا، على الأكثر نشاطًا، وعلى التفوق في الفصل، فصارت تأتينا كتب: جاءني إهداء كتاب: المتنبي بشرح العكبري؛ وجاءني كتاب (ألوان) لطه

حسين؛ وجاءني كتاب: (شعراء نجد المعاصرون)، لعبدالله بن إدريس، وهكذا. لابد أن أتذكر شيخنا وأستاذنا الجليل، الذي له فضل علينا معالي الشيخ سليمان الفالح(١)، الذي فجَّر الحيوية في نفوسنا؛ لأننا كنا نقرأ وكنا خزّانات معلومات، خزانات كتب دون أن نستثمر هذا الوقود الذي فينا. سليمان الفالح، جزاه الله خيرًا، فجّر هذا الوقود الذي فينا ففتح مجالاً لنا؛ لكي نكتب مسرحيات ونمثلها، ونكتب مقالات وننشرها.

في مرة من المرات صار في معهد عنيزة العلمي ما يقرب من سبع عشرة جريدة حائطية على الجدران نحرّرها نحن كطلاب، دون رقابة، ونحرص أن نقول الجريدة الفلانية اسمها الطليعة، مثلاً يحررها فلان وفلان وضع في قوسين (دون إشراف) لكي نحس أنه لا رقيب علينا؛ ولهذا فمصدر إهداء الكتب كان من المصادر المهمة.

– الثالث: الكتاب المستعمل، الكتاب المستعمل أدى دورًا كبيرًا جداً في حياتنا، وحدثت لي قصة، أعُدُّها من أهم قصص حياتي، وهي أن والدي، رحمه الله، كان قد اشترى لي ذات مرة دراجة من الرياض – ونحن في عنيزة – بمئتي ريال، وحُملت الدرَّاجة من الرياض على سيارة، وأبلغنا بوصول السيارة ومعهم الدراجة؛ فذهَبتُ وزملائي لاستقبال الدراجة باحتفال كبير، وأخذناها، ومشينا بها من وسط السوق التجاري؛ كي يراها كل إنسان ! وصرت أستخدم هذه الدراجة في جميع مشاويري. وبعد فترة قصيرة من امتلاكها، علمت أن الشاعر صالح أحمد العثيمين(٢)، أحد

---

(١) معالي الشيخ سليمان الفالح، المستشار الشرعي، لسمو النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، ووزير الداخلية. ولد في مدينة الزلفي في النصف الأخير من القرن الماضي وعاش جل أعوام بداية شبابه الأول بعيداً عن أسرته، وبالتحديد في مدينة الرياض، بغرض طلب العلم، وكان من أوائل الطلبة الذي التحقوا بالمعهد العلمي. وبعد تخرجه في كلية الشريعة، عاد إلى عائلته والتحق بالسلك التعليمي في مدينته ثم انتقل عمله إلى عنيزة وقضى فيها بعض الوقت ثم اتجه للرياض.

(٢) هو الأديب صالح الأحمد العبدالرحمن العثيمين، ولد في عنيزة عام ١٣٦٠هـ على وجه التقريب درس الابتدائية في مدرسة العزيزية بعنيزة، كما كانت دراسته المتوسطة فيها وتخرج منها سنة ١٣٨١هـ، عمل في مجال التربية والتعليم خمسة وعشرين عاماً، منها ثلاث سنوات في التفتيش الفني في الرياض. تقاعد مبكرا عام ١٣٩٦هـ وعمل في عدد من المجالات التجارية. صدر له ديوانان: (شعاع الأمل)؛ (الشواطىء العطشى). له مشاركات شعرية وأدبية في الصحف والمجلات السعودية.

شعراء عنيزة، وقد يعرفه بعضكم، قد انتقل من عنيزة لسبب لا أعرفه! ولا أدري إلى أين ذهب؟! وقرر بيع مكتبته، وباعها كاملة إلى مكتبة اليحيى التجارية بعنيزة، وحينئذ رأيت كنزاً من الكتب أمامي، ولكن ليس لدي نقود لكي أشتريها، فقررت بيع دراجتي بمبلغ ١٨٠ ريالاً، أي بخسارة ٢٠ ريالاً، وأنفقت المبلغ كاملاً على الكتب التي كانت لصالح بن عثيمين، واشتريت الكتب كاملة عن طريق مكتبة اليحيى، وشكَّلتُ مكتبتي الخاصة في البيت. وصرت أشعر بالسعادة من هذه الكتب التي تملأ بيتي، وظل هذا الإحساس والعلاقة مع الكتاب المستعمل إلى أن ذهبت إلى بريطانيا. هذا كان في السبعينيات، ما بين ١٩٧٠ – ١٩٧٨م. وهناك بحثت أول ما بحثت عن الكتاب المستعمل؛ لأن المرتب صغير جداً، والمكافأة بالكاد لا تكفي، تكاليف الحياة، والكتب باهظة الأثمان. فاكتشفت أنا وصديقي الدكتور محمد الهدلق(١) عن بعض المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، وصرنا نذهب إلى الكتب المستعملة.

وأذكر طرفة صارت مع الدكتور محمد، ذهبنا ذات مرة وقت الغداء من الثانية عشرة إلى الواحدة في بريطانيا، وهذا وقت الغداء عادة واستراحة، لكن كنا نذهب إلى المكتبات لنستفيد من هذه الساعة، كنا اشترينا مجموعة كتب والكتاب الواحد بخمسة بنسات، أي ما يعادل أقل من ريال في حسابنا، ونمشي ومعنا الكتب،

---

(١) أستاذ النقد الأدبي والبلاغة في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة الملك سعود. تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الملك سعود من ٢٢/١٠/١٤١٨ إلى ٢٩/٦/١٤٢٢هـ. له أكثر من ٣٠ مؤلفًا بحثيًا ونقديًا. . أتذكر تلك الرحلة بتاريخها المسجل على صفحات الكتب التي اشتريتها يومها، وما تزال مكتبتي معمورة بتلك الكتب الإنجليزية التي جمعتها من مكتبات بريطانيا بطبعات قديمة، بعضها صار الآن نادراً وتراثياً، وهي كلها ترتبط عندي بصورة الهدلق وذاكرته عندي. ولقد رددت له الرحلة تلك برحلة مثيلة لها بعد أن تفرقت بنا الديار حيث انتقلت أنا إلى إكستر (جنوب غرب بريطانيا) وجاء محمد لزيارتنا نازلاً من الشمال إلينا، وأخذته يومها إلى مكتبة تبيع الكتب القديمة والمستعملة (العين بالعين حيث قصاصنا بالكتب)، وراح محمد يشتري منها بنهم نعرفه عنه في حبه للكتب وحرصه عليها، ولن أنسى الرجل الإنجليزي، صاحب المكتبة، حينما سألني بعد شهر من تلك الزيارة: أين صديقك، ولم يعلم أن الهدلق قد جاء لزيارة سريعة وأنه يدرس في الشمال في أدنبرة، إنها بعيدة بعيدة، وهذه هي كلمة صاحب المكتبة حينما سمع قولي عن الهدلق وأدنبرة، وهكذا هو الهدلق رجل تتذكره الكتب ويسأل عنه أصحاب المكتبات. انظر: عبدالله محمد الغذّامي، شيمته الكتب محمد الهدلق: همزة الوصل في قصصنا كلها، مقال بملف مجلة الجزيرة الثقافية، الصادرة يوم الخميس ١١ جمادى الآخر ١٤٣٠هـ، احتفاءً بالصديق الدكتور محمد الهدلق.

فمحمد الهدلق استعرض واحداً من الكتب، وقالي لي : انظر هذا بخمسة بنسات، وكوب القهوة بخمسة بنسات، لكن لو شربت قهوة أين ستذهب؟ طبعًا بدأ يتكلم أين مصير القهوة النهائي وهو الصرف الصحي! ولكن الكتاب باق عندك وفي عقلك، فكان يحاول إقناع نفسه بأن ما فعله صحيح، ويقنعني أيضًا أننا نفعل شيئًا صوابًا، بدلاً من أن نشتري قهوة وشايًا، نشتري كتبًا. وتشكلت مكتبة كبيرة، ثم من الطرائف التي صارت أن إحدى المكتبات التي تبيع لنا هذه الكتب بهذه الأثمان الرخيصة، اشترينا شكسبير وديكنز، حتى الكتب الحديثة، اريوتوغيرو في الفلسفة، كل أنواع الكتب، فوجئت ذات مرة أن سوقًا كبيراً بُنيت في مدينة إكستر، ذهبنا لزيارتها فرأيت في الطابق العلوي مكتبة وعليها مسمّى كبير مكتبة :

إكستر للكتب النادرة (Exter rare books).

ذهبت واكتشفت أن صاحبي الذي يبيع الكتب المستعملة بخمسة بنسات نقل عدداً من كتبه إلى تلك المكتبة وسماها كتبًا نادرة والذي بخمسة بنسات أصبح بـ ٢٠ جنيه، واستغربت أن هذا الكتاب الذي اشتريته بخمسة بنس أصبح بـ ٢٠٠ جنيه، نظرت إليه ونظر إليّ فقال لي : لم جئتَ هنا؟ فهو يعرفني جيداً، فقلت له : جئت أنظر في الكتب، قال : اسمع هذه المكتبة للذين جيوبهم ملأى وعقولهم فارغة، أنت جيبك فارغ وعقلك ممتلئ، اذهب إلى مكتبتنا القديمة، طبعًا بعدها لم أزر هذه المكتبة النادرة وظللت على تلك القديمة.

- المصدر الرابع الأخير هو الشراء، شراء الكتب، أشير هنا إلى مكتبة المؤيد بالطائف؛ لأن لها فضلاً كبيراً عليّ أنا شخصيًا، زرت عمي في الطائف مرة، وليس معي سوى بضعة نقود قليلة، وكنت أتردد على مكتبة المؤيد واقتنيت منها كتب سليمان العيسى حبيبنا وشاعرنا الكبير، نزار قباني، كتبًا أحيانًا بعضها ممنوعة، وكتبًا أخرى لا أستطيع أن أذكر عناوينها إلى الآن وأنا أشعر بممنوعيتها وأن مجرد ذكرها يقود إلى التخمة.

قد تمر حياتنا أحيانًا وننسى أطرافها لكنني فوجئت مرة وأنا أقلّب في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي(١) في مكتبتي وجدت ورقة صغيرة في الكتاب ونظرت فيها وإذا هي مؤرخة في ٤/ ١٠/ ١٣٨٣هـ أي ١٩٦٣م، ومكتوب فيها: (في هذا اليوم المبارك الأغر - ربما تلحظون لغة المراهق الذي يكتب الاتفاق - في هذا اليوم المبارك الأغر أقف عند عتبة انتهاء سنة كاملة لمصادقة الكتب ومحادثتها، وتمامي ربع سنة لممارستي الإنتاجي الأدبي الشعري، أرجو من الله عز وجل أن يوفقني على القراءة اليومية، وأن يهبني زيادة في محبتها، وأن يرزقني ثقافة ومعرفة عامة واطلاعًا، إنه سميع مجيب، عنيزة (ع م غ) كأنني أرمز إلى هذا الكلام نفسه عام ١٩٦٣م، أي أنني أحيل إلى سنة قبلها حيث كنت أقرأ قراءة جادة.

القراءة سيرة ذهنية:

القراءة حينما تكون سيرة ذهنية للشخص لابد أنه سيكتشف في حياته أن هناك أنواعًا من القراءة. والذي رأيته بين يدي ومارسته من القراءة، أربعة أنواع:

ـ الأولى: القراءة السريعة، مثلما نقرأ الصحف والكتابات الرسمية، أو بعض الروايات.

ـ الثانية: القراءة المهنية، وهي وظيفة القراءة الناقدة التي أصيب بها النقد؛ لأنني أعتقد أنها قراءة مرضية. إن الناقد وهو يقرأ يفقد شرط المتعة؛ لأنه لابد أن يؤدي العمل ولا يملك الخيار الذي يملكه غيره، بمعنى أنك إذا لم تحب العمل الذي بين يديك تتركه! أما الناقد فلا يستطيع الفكاك، مجبر ومرغم لاستكمال القراءة كرهًا؛ لأنه يمارس مهنة كمهنة! بما أنه ناقد، ولابد أن يكمل المشوار؛ لأنه مطالب أن يبدي رأيًا، وأن يبدي فكرة. فالقراءة المهنية هي وظيفة الناقد، ومن ثم هي عبء عليه، عبء عقلي وذهني، وقد تضر به على المستوى الجسدي والمستوى الذهني؛ لأنه سيمارس

---

(١) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي. وكنيته أبو الحسن، ولقبه قطب الدين. ويعد من أهم الرحالة العرب وقدم معلومات أنثروبولوجية قيمة عن شعوب المناطق التي زارها فذكر أجناسهم وصفاتهم الجسمية وعاداتهم، وتقاليدهم والحرف والمأكل والملبس، والمأوى لكل شعب من الشعوب.

قراءة لا يرغب بها، بما أنها واجب لابد أن يؤديه كناقد، وبما أنه مطالب أن يجيب على أسئلة كثيرة للمجتمع الثقافي عن أي كتاب يصدر حتى ولو كان الكتاب رديئًا، لابد أن يذكر نوعية هذه الرداءة، ولم هو رديء، وما سبب الرداءة.

- الثالثة: وظيفية ويدركها كل الإخوة الذين يعملون في الوسط الأكاديمي، والقراءة الوظيفية، تحتاج متابعة رسائل الطلاب في الماجستير والدكتوراة؛ تحكيم أعمال علمية لآخرين من جامعات أخرى، لابد أن تحكمها هذه قراءة. صحيح مستوى العمل فيها أرقى من بعض جوانب القراءة المهنية لكن القراءة الوظيفية لا تنتج المردود المعرفي الذهني لفاعلها، لا القراءة الثانية ولا الثالثة.

- الرابعة: وهي القراءة الحقيقية، المهمة والتي يُبنى عليها مصير المعرفة البشرية عمومًا، وهي أسميها القراء الفكرية والقراءة التأملية.

القراءة الفكرية: هو أن يجنح بعضنا متجاوزًا القراءات السريعة التي هي القراءة اليومية، ويتساوى فيها الجميع، والقراءة المهنية التي تعود إلى مهنة الشخص، كمثل القراءة الوظيفية التي تعود إلى دوره كأكاديمي، ثم تأتي القراءة الفكرية؛ لأن في القراءة الفكرية تبدأ صناعة المعرفة، صناعة الأفكار، الجاحظ عنده كلمة مهمة جدًا كان يعرف بها الأدب، لكن من الممكن أن ننقلها لكي تكون تعريفًا لكل شيء يمكن أن نمارسه.

عرَّف الجاحظ الأدب بأنه: "عقل غيرك تضيفه إلى عقلك"! الواقع أن هذا هو حالة الكتب، أنت إذا أخذت تقرأ فأنت تمسك بين يديك عقلاً! تمسك بين يديك فكرًا! تمسك بين يديك سلوكًا ذهنيًا، وأخلاقيًا، ومعرفيًا، ونفسيًا، واجتماعيًا، وثقافيًا، وحضاريًا! ومن ثم أنت تمسك بقيم معرفية. هذه القيم المعرفية تضيفها إلى قيمتك المعرفية، مثل ما تتساقى السواقي، ساقية مع ساقية، نهر مع نهر، مطر مع نبع جارٍ، تبدأ هذه العملية، عقل غيرك تضيفه إلى عقلك، إذا أضيف العقل إلى عقل نتج عنه عقل ثالث، فنتجت العملية التجاور المعرفي، عملية الفنية المعرفية والفكرية، ومن ثم صارت القراءة، هذا الذي يجعلنا نعرف معنى شخص اسمه (الجاحظ).

الجاحظ كان من الفقر إلى درجة كبيرة، ولكي يعالج فقره من جهة، ويعالج حبه للمعرفة من جهة، كان يذهب بالليل ويستأجر دكاكين الوراقين، الوراق في الليل لا يستفيد من دكانه، ليس هناك سوق للبيع والشراء، وإذا جاءه شخص ويعرض عليه ربع دينار، أوحتى فلساً، لكي ينام في الدكان، فلا يمانع في ذلك، لأنه لن يخسر شيئًا، فيستأجر الجاحظ الدكان، ويجلس في الدكان طول الليل على سراج بسيط، ويقرأ من هذه الكتب، ويسلم الدكان إلى صاحبه بعد طلوع الفجر، وظل على هذا إلى أن صنع تفكيره، حينها قال عن الأدب إنه: "عقل غيرك تضيفه إلى عقلك"، وهو حينما يتكلم عن الأدب في زمنه، هو ما يعادل في زمننا المعرفة، المعرفة بعامة، كانت كلمة الأدب تشمل كل أنواع العلوم والمعارف فهي المعرفة. من مقولات العرب أيضًا، وهي مهمة هنا "كل لسان إنسان"! إذا تعلم المرء لغة أخرى إضافة إلى لغته التي يمتلكها، صار لديه لسانان، أي صار هو! فكل لسان إنسان، كل كتاب لسان، وكل كتاب إنسان!

فهذه الإضافة التي تعطي هذا النوع من الدمج، وتعطي هذا النوع من التكوين، تجمع العقل مع المتعة، في تجربتي الخاصة مع القراءة الرابعة (القراءة الفكرية) وجدت نفسي، ثم سمحت لها بعد ذلك. وجدت نفسي بطريقة مختلفة عن طريقة القراءات الثلاث الأخرى، فهي ليست قراءة مستقيمة، قراءة أحيانًا أجد نفسي ترغب في التوقف، لا أمضي في القراءة؛ فأتوقف، وينطلق ذهني، أسمح لذهني بالانطلاق والذهاب، وأجلس أمام الكتاب، وكأنني مُخَدّر، أو نهم، غير طبيعي، وضعي غير طبيعي على الإطلاق، إلى أن تكتمل رحلة ذهني مع ما يريد وأعود للكتاب مرة أخرى، أي أن الكتاب لديه القدرة على أن يدخلك إلى عوالم أخرى لا تمنع هذه العوالم التي يدخلك الكتاب إليها؛ لأنها عوالم ستصنع رؤية، وتصنع فكرة، وتعود إلى الكتاب.

وقد تعوَّدت مع هذه الكتب أن أطيل الأمد معها، ويمضي الزمن معها مدة طويلة، لأن المتعة، بدلاً من أن تكون متعة عاطفية، تكون متعة عقلية، متعة نفسية، وقدرة على إنتاج المعرفة. وتعوّدت أن أكتب على الهوامش، وأضع سطورًا، وأحمل ورقات، وأنا ما زلت إلى الآن، أحمل القصاصات، والورقات، وأكتب على أي ورقة، أي فكرة.

هناك أنواع من الكتب ربما تأسرك أسرًا، وتجعلك عاجزًا أن تغادرها، وتتمنى ألا تنهيها، جرت معي في ثلاثة كتب: أحدها، "داغستان بلدي"(١) لرسول حمزاتوف، أحسست بألم شديد، عندما انتهيت منه، أحسست بفقد، أحسست بضياع، أحسست بأن وجودي ليس له معنى، ليس لدي عمل؛ لأن الكتاب "داغستان بلدي" انتهى، وليس لدي موعد معه كي أقرأه. فشعرت بالرعب لأن الكتاب انتهى، ولم يعد في صفحاته شيء كي أستمر معه.

أيضًا كتاب "مئة عام من العزلة"(٢) إحساسي بهذا الكتاب، وأنا أتقدم في الصفحات، بدأت أهدئ من تقدمي، خشية أن أصل إلى النهاية؛ لأنني لا أريد أن أصل إلى النهاية. كتاب "مثنوي"(٣) لجلال الدين الرومي، ستة مجلدات، كتاب لا يمكن أن أغادره.

إنني في حالة انسجام كبير مع جلال الدين الرومي في "مثنوي"، فهذا الكتاب، كتاب عظيم، كتاب يملأ الروح والعقل معًا، وأنا أنصح أي إنسان يحصل على مثنوي وهو في ستة مجلدات، ونشر في المجلس الأعلى للثقافة في مصر، ترجمة جيدة جدًا، كتاب ثري ثراء يجعلك تعيش قدرة العقل البشري على أن يفتق، أعطيكم فقط مقطعًا صغيرًا فقط لتحسين المحاضرة: يشير إلى مبارزة صيد بين غزال وكلب للصيد،

---

(١) داغستان بلدي: كتاب لرسول حمزاتوف، والذي ولد ١٩٢٣ بقرية تسادا في داغستان شرق جمهورية جورجيا، وقد أسماه والده برسول تيمنا بالرسول ﷺ. ويعد كتاب (داغستان بلدي) من أشهر كتب رسول حمزاتوف فقد أراد أن يكون هذا الكتاب قصيدة حب لبلاده، وسفرًا يخلد إنسانها و أسماء جبالها، ووديانها وجداولها، يتغنى ببطولاتها، حكاياتها وثقافتها وموروثاتها.

(٢) مئة عام من العزلة: رواية للروائى الكولومبي العالمي، جابرييل جارسيا ماركيز، كتبها ماركيز عام ١٩٦٥م في المكسيك، تُعد من أهم الأعمال الإسبانية-الأمريكية خاصة، ومن أهم الأعمال الأدبية العالمية عموماً. وهي من أكثر الروايات المقروءة والمترجمة للغات أخرى. وتروي الرواية. يروي الكاتب أحداث المدينة من خلال سيرة عائلة بوينديا على مدى ستة أجيال والذين يعيشون في قرية خيالية تدعى (ماكوندو).

(٣) المثنوي أو "مثنوي معنوي" بالفارسي، هو ديوان شعري باللغة الفارسية لجلال الدين الرومي. والمثنوي يعني بالعربية (النظم المزدوج)، الذي يتّحد شطرا البيت الواحد ويكون لكل بيت قافيته الخاصّة، وبذلك تتحرر المنظومة من القافية الموحدة. وللمثنوي طبعات متعددة ونسخ مخطوطة كثيرة منتشرة في مكتبات العالم، كما أن له شروحاً كثيرة بلغات مختلفة، منها الشرقي ومنها الغربي وبلغت عدد أبيات المثنوي ٢٥٦٣٢ بيتاً، موزعة بين أجزائه الستّة وفيه ٤٢٤ قصة تشرح معاناة الإنسان للوصول إلى حبه الأكمل الذي هو الله.

فالغزال هارب، وكلب الصيد يجري وراءه لكي يصطاده، فالغزال يجري، وكلب الصيد يجري وراءه، بعد مدة من الجري، والكلب وراء الغزال، التفت الغزال إلى كلب الصيد وقال له: إنك لن تلحق بي، قال كلب الصيد: لماذا؟ قال الغزال: لأنني أركض لنفسي، وأنت تركض لسيدك!!

هذا جلال الدين الرومي، عندما تدخله ويدخلك إلى هذه العوالم، انظر الدقة، وقارن الذي يجري لنفسه، والذي يركض لسيده، ثم انظر إليه وقد جعل الذي يركض لسيده كلبًا، والذي يركض لنفسه غزالاً، انظر المعاني الرمزية فيها؟ أين البعد، عندما تذهب لموظف الآن وترى الموظفين الناجحين، تجد أن الموظف الناجح هو الذي يعمل لنفسه، هذا عمله هو ليس شغل الدولة، ورئيسه، عمل العلاوة، عمل التقديرات، رأينا أمثلة كثيرة لمن يستميت في العمل، ويقولون له: ليس لك شأن، ما أحد يدري عنك، ما أحد يقدر، ما أحد شاعر بك، والله أنت وغيرك لديهم سواء، ومع ذلك يعمل، هذا هو الغزال، الجنس البشري نسميه، جنس الغزلان، لكن هناك جنس آخر، جنس كلاب الصيد، يركض، لكن الذي يصيده يعطيه لسيده، هذا جلال الدين الرومي، الذي يبهرني عندما أدخل إلى عالمه، وجوته أيضًا، جوته في الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، حينما تقرأ في جوته، وتشعر بهذا العقل البشري، كيف يفتق الأفكار، ويفتق المعاني، كيف يجعلك تشعر أن تحب نفسك، وتحب العالم من حواليك.

إجابات على أسئلة الحضور:

١ - من الكتب التي حولت مفاهيمي، منذ صغري، (العقد الفريد) لابن عبد ربّه⁽¹⁾، وإلى الآن، وقد مر عليّ إلى الآن ٣٠ سنة ولم أرجع إلى العقد الفريد، لكن أستطيع الآن وأنا أتكلم، أرى الصفحات، وأرى السطور، وأرى المعلومات، الحظوا

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن سالم. ولد بقرطبة في العاشر من شهر رمضان عام ٢٤٦هـ ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وأمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية وطول الباع في الشعر منه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أشهر كتبه (العقد الفريد)، وهو كتاب جامع للأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض والموسيقى، وقد استوعب خلاصة ما دوّن الأصمعي وأبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم من أعلام الأدب.

الذاكرة البصرية، أستطيع أن أحدد معلومات ومواقع في العقد الفريد بقراءتي التي انتهت منذ أكثر من ٣٠ عامًا، كنت مغرمًا به، ثم بعد أن دخلت في عالم النقد، أعجبت بالجرجاني⁽¹⁾ في كتابيه (أساس البلاغة) و(دلائل الإعجاز)؛ لأن في كل مرة أعود فيها إلى الجرجاني، أشعر كأن الجرجاني كتب أمس.

٢ - ومن ثم لابد من أقرأ ما كتب بالأمس، غير ما كتب قبل قرون، هذه العلاقة الوثيقة، التي تتخلَّق معك، بينك وبين الكتب، دون إرادتك.. !

ولكن بالتجريب المستمر مع عمل الكتب، بحيث إن الكتب تصبح عقلك الذي عبره تنظر إلى العالم، ربما في هذه الحالة - وهذه بالنسبة لي تجربتي الخاصة - أن الثمن ليس سهلاً، لا على المستوى الصحي، ولا على المستوى النفسي، ولا على المستوى الاجتماعي.

وربما سأل سائل: كم ساعةً أقرأ؟! الحقيقة أن كل وقتي قراءة، كل لحظات حياتي قراءة، إذا ما أقرأ أشعر أنني لا شيء، أنني هباء منثورٌ، الكتابة العكس، الكتابة عندي قليلة جدًا، الكتابة عندي مرتبطة ارتباطًا كبيرًا جدًا بالمزاج، الكتابة عندي مزاجية، إذا كان عندي مزاج أن أكتب كتبت، مزاجي لا يريدني أكتب، لا أصدق عقلي!

هناك كلمة عند الإنجليز مهمة جدًا، وقد تعلمتها منهم، يقولون: Believe your body صدق جسدك، لا تصدق عقلك، بمعنى إذا أحسست بإرهاق، لا تقول لماذا أنا مرهق؟ والله أنا نمت اليوم بشكل جيد، ما تعبت، لكن إذا جسمك يقول أنك مرهق، صدقه، لغة الجسد، أيضًا لغة الكتابة عندي هي لغة المزاج، إذا مزاجي

---

(١) هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، فارسي الأصل، جرجاني الدار، ولد في جرجان وعاش فيها دون أن ينتقل إلى غيرها. يُعد مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر. كما ألف العديد من الكتب، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن) حققها مع رسالتين أخريين للخطابي والرماني في الكتاب نفسه كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، وهي من أفضل ما كُتب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة، مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة. وتوفي (عبد القاهر الجرجاني) عام ٤٧١هـ.

غير مضبوط، وهذه تعلمتها من أستاذي في بريطانيا، وهو مستشرق هولندي، رآني مرة فقال لي:

- ما بك يا عبدالله وجهك غير طبيعي؟

- قلت له: البارحة كنت مع موضوع، وقد كرهت هذا الموضوع، وأشعر أن الموضوع يكرهني أيضًا!

- فقال لي: إذا لم تحب الموضوع، اتركه!

أي موضوع لا تشعر بمحبة معه اتركه، لابد أن تكون علاقة حب بينك وبين موضوعك تنتج، إذا لم توجد تلك المحبة، لا تقهر نفسك، لا تجبر نفسك على شيء، اتركه واذهب إلى منطقة أخرى.

طبعًا الخليل بن أحمد(١) أدركها لما وجَّه رسالته إلى الأصمعي(٢)، وقال: إذا لم تستطع شيئًا؛ فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع، ترك الأصمعي علم العروض؛ لأنه عاجز عنه، واتجه إلى الرواية، وصار سيد الرواية في الثقافة العربية، لكنه لو ظل عروضيًا، لما سمعنا به! هناك مناطق يجب أن نتجاوزها.

٣ - أظهر عيوبي وأخطر عيوبي هي علاقاتي الاجتماعية؛ لأن علاقاتي الاجتماعية منعدمة (صفر)، بسبب هذه الكتب.

مسألة العزلة، بالنسبة لي كانت إيجابية، لأنها أدت بي لأن أقرأ، وأن أكتب، وألا يشغلني شاغل، القراءة ضارة أم ضرورية؟ هما معًا، الحقيقة، القراءة ضارة، لأن المعرفة خطيرة في كثير من الأمور، كونك لا تعرف تكون في الواقع أسعد، كلما

---

(١) هو أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (١٠٠- ١٧٣هـ/ ٧١٨ - ٧٩١م) وهو عربي النسب من الأزد، ولد في عُمان عام ١٠٠ هـ، وهو مؤسس علم العروض ومعلم سيبويه وواضع أول معجم للغة العربية وهو (العين)، أخذ النحو عنه سيبويه والنضر بن شميل وهارون بن موسى النحوي ووهب بن جرير والأصمعي والكسائي وعلي بن نصر الجهضمي. وأخذ هو عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي.

(٢) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي (١٢١ - ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ - ٨٣١ م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جداً. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر).

جهلت ازددت سعادة، قالها أبو تمام من قديم. حمزة شحاته - رحمه الله - قال مقولة، وكررت عند غيره، ونسبت لغيره، مع أنه هو صاحبها، إذا ازددنا علمًا ازددنا جهلاً، لأنه كلما تكشف أمامك العالم، أدركت مقدار جهلك، لا شك أن الجاهل سعيد، بكل تأكيد، الجاهل سعيد، والذي يريد أن يكون سعيدًا، أقول له: لا تقرأ كتبًا، ولا تستمع للتلفزيون، ولا تتابع أحداث لبنان والعراق وأفغانستان وفلسطين، هذا بالتأكيد، وبكل صدق، المعرفة والمعلومة لها ضريبة، وثمنها باهظ، قلق نفسي، توتر، أُناس انتحروا بسبب أنهم تعلموا كثير، وصدموا بالكون وبالبشر، نتيجة لتعلمهم، فالقراءة ضارة، ولكنه ضرر تحتاجه، أيضًا المغامرة، الذي يصعد إلى قمة إفرست، أو يدخل في سباق سيارات، أو مباراة مصارعة، هناك ضرر، لو أخذنا مفهوم الضرر، وقلنا: إن أي شيء ضار يجب أن نتجنبه، سينتهي بنا الأمر إلى أن لا نعيش، الصعود إلى النخلة لقطف التمر، يمكن أن تسقط وتموت، بكل تأكيد، فالضرر يحيط بالإنسان، وبكل تحرك خارج إطاره يجعله عرضة للضرر، بما فيها القراءة، لكن هل هي ضرورة؟ أقول: نعم، نعم ضرورة، لأن الله وظفنا بأن جعلنا خلفاء في الأرض، قال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ [البقرة ٣٠].

٤ - فالإنسان خليفة الله في الأرض، يجب أن يعمرها، إذا لم يعمرها، لن تنعمر هذه الأرض، ويمكن أن نطرح السؤال الأساسي، لماذا نبني ناطحات سحاب؟ ولماذا نبني مدنًا كبرى؟ لأن في النهاية الإنسان يموت وانتهى الأمر، لن يسألك ملك الموت، هل بنيت أم لم تبن، ألفت أم لم تؤلف، أخذت الدكتوراة أم لم تأخذها، ما دام المسألة هكذا، إذًا ليس هناك داع ولكن الله جعل بداخلنا شيئاً، مخترعاً مهماً، مخلوقاً ربانياً مهماً وهو النسيان، أي يجعلنا ننسى الضرر دائمًا، إذا لم تنس الضرر لن تفعل شيئًا، لكن لأنك تنسى مضار الأشياء، وتنظر في منافعها فقط، تعمل بجد

ونشاط، وظيفة النسيان مهمة، لازم أنسى الضار، ولا أتذكر إلا النافع، وهذا الإغراء الكبير بالنافع دون الضار الذي يدفع بالإنسان للعمل. أنا شخصيًا سعيد بهذا، لأن علاقتي مع الكتب، علاقتي مع العالم الآخر، العالم الذي هو ليس بين يدينا، عالم الأموات.

٥ - أتذكر في هذا المقام، قصص كتاب: (بداياتي في الصحافة والأدب) لعلي محمد العمير(١)، والتي روى فيها، سيرته الذاتية.. ومنها أنه قد عاش في قرية جنوبي المملكة العربية السعودية... وهناك صار يقرأ كتبًا، فجأة سافر من منطقة جازان إلى مكة المكرمة،.. وهاله أن يرى، كلاً من: محمد حسين زيدان(٢)، أبا تراب الظاهري(٣)، وعبدالفتاح أبو مدين(٤)؛ كما هاله أن يراهم وغيرهم أحياء!! لأنه تعوّد أن يقرأ ألفية ابن مالك، وبعدها توفي عام كذا وكذا، وكتاب الأغاني للأصفهاني وفي نهاية الكتاب المتوفى عام كذا وكذا، فاعتاد على أن المؤلفين أموات ولم يعتد أن يرى مؤلفين أحياء!

---

(١) الكاتب المعروف، له مناوشات أدبية وإبداعات صحفية. دخل الصحافة من نافذة الأدب فحققت له مطامح أدبية إلى حد ما يشيد بنضج التجربة النقدية. تخرج من المعهد العلمي بصامطة. وكانت هذه انطلاقته الحقيقية في الصحافة، حتى وصل إلى مدير تحرير صحيفة الجزيرة. زاويته المشهورة في عكاظ "تحت الشمس".

(٢) محمد حسين زيدان: أديب وشاعر وناثر ومؤرخ وفيلسوف ونسّابة وفقيه ومجرّب وعلاّمة في الإناسة وعلم الحديث ومنابر الخطابة والمحافل والمجالس، ومن طلائع الخطاب النهضوي في الحجاز. من مواليد المدينة المنورة. اشتهر بلقب زوربا الحجاز، لاستيعابه الخارق للتاريخ، ولاسيما التاريخ الإسلامي، وتذكره ألوافي للأحداث ما يدعو للانبهار ويجبر على الإعجاب.

(٣) أبو تراب: هو العالم الجليل أبو محمد عبدالجميل بن محمد بن الهاشم، ويكنى بأبي تراب الظاهري، ولد، ونشأ في مدينة «أحمد بور، بالهند»، قدم إلى المملكة بطلب من الملك عبد العزيز، طيّب الله ثراه، له نحو خمسين كتابا، في مختلف الفنون، طبع منها نحو خمسة وعشرين كتابًا.

(٤) عبد الفتاح أبو مدين، ناقد أدبي سعودي، من أصول ليبية، من مواليد طرابلس الغرب ولكنه نشأ وترعرع في المدينة المنورة. يعد من رواد العمل المؤسسي الثقافي. شغل منصب رئيس النادي الأدبي الثقافي بجدة، شهد النادي في عهده (١٩٨٠-٢٠٠٦م)، نشاطات وإسهامات ثقافية متنوعة. أسهم في إصدار عدد من الدوريات الشهيرة على مستوى العالم العربي، كجذور الخاصة بنقد التراث العربي، ونوافذ الخاصة بالترجمة للأعمال الأدبية العالمية، وعلامات للنقد الثقافي والأدبي، والراوي، وعبقر. كما أسس مجلة الرائد الثقافية، وفي عهده تم تأسيس كيان (ملتقى النص) التابع للنادي الأدبي والثقافي بجدة، وجماعة (حوار). رأس تحرير صحيفة البلاد (صوت الحجاز) لمدة سبع سنوات.

كانت التجربة بالنسبة له أكبر من طاقته الاستيعابية، وإذا رأى مجلة في مكة وفيها صورة لطه حسين، وصورة للعقاد، فتعجب، أن هذه صورة طه حسين، وهذا العقاد، إذن أين صورة الجاحظ؟ أين صورة امرئ القيس؟ يحاول أن يلمس صورة طه حسين على الورق؛ لأنه لا يستطيع أن يتصور، العلاقة الذهنية مع الكتب تبني هذا العالم الآخر، الموازي للعالم الحقيقي!

٦ - نحن أمام خيارين، إما أن نعيش العالم الحقيقي بكامل شروطه، أو أن نعيش العالم الذهني المعرفي بكامل شروطه، أو أن يرى بعضنا، ويستطيع أن يجمع بين العالمين، وأنا أعتقد أنني لا أستطيع الجمع بين العالمين.

أعتقد أنه من المهم لأي إنسان إذا اتخذ قراراً أن يتخذه بكامل شروطه، أو ألا تأخذه، لا تستطيع أن تأخذ في مجال الحياة مجاميع من الأشياء، ومجاميع الأشياء هي بعثرة، إذا لم تمض بكل قوتك في اتجاه واحد وعقل غيرك إذا أردت أن تضيفه إلى عقلك، لابد أن تستحوذ على هذا العقل كاملاً، لكي يمكن أن يعاد مستساغًا ومستنسخًا ومستنتجًا.

القراءة بكل تأكيد، دورها مهم، وسأعطي مثالاً واحداً على أدوار خطيرة جداً للقراءة كيف تفعل؟ قصة رواها تودوروف عن غزو أمريكا عن كولومبس، وهو أن كولومبس لما وصل إلى بعض مناطق الهنود الحمر، واستعصى عليه هذا الموقع، وظل يحاول اقتحام الموقع ولم يستطع، ولكن بسبب قراءاته في الكتب علم أن ليلة الغد سيحدث كسوف للقمر، فأرسل لهم رسالة وقال فيها: إذا لم تستسلموا فسأسرق منكم القمر!! استهتروا بالرسالة، اليوم التالي ليلاً عندما بدأ القمر يخسف، أرسلوا له رسولاً، وقالوا له: تعال استسلمنا، خافوا من فكرة أن يسرق القمر، هو بحساباته أدرك أن القمر سيخسف، المعرفة في قوتها لها دور سحري، دور نافع، دور ضار، دور منتج، دور يغير تغييراً نوعيًا للكائنات.

٧ - ونحن الآن في هذا الزمن نتحدث وباستمرار أننا في عصر المعلومات، وأن من يملك المعلومة في هذا الزمن، يستطيع أن يضع له قدمًا مهمًا جداً في الحياة، والذي يفقد المعلومة سيصبح محتلاً ومستعمراً في داخله بالضرورة.

المعرفة قيمة كبرى، الكتاب قيمة كبرى، من قال: إن الإنترنت سوف تزيل الكتاب، لا شك أنه لم يقرأ التاريخ قراءة كافية؛ لأن الكتابة لم تستطع إزاحة الشفاهية، الصورة لم تستطع إزاحة الكتابة، تظل متجاورة. . !

التلفزيون لما جاء لم يلغ السينما، ولم يلغ الراديو، ولم يلغ المسرح الحي على خشبات المسرح. . !

مهارة القراءة عند الغربيين اليوم الذي يعيش في الغرب ويركب قطاراً، أو طائرة، أو يرى قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، سيرى كتبًا بالملايين تباع في مجتمع عنده من الفضائيات، والوسائل المتعددة، لكن هذه الصيغ التي تحدث هي صيغ تنتقل من آلية إلى آلية.

٨ - أحيانًا أكون انتقائيًا، وسلبيًا في القراءة! أحيانًا تمر بي المراحل الثلاث مع الكتاب الواحد، مع الكتاب نفسه، لا يوجد كتاب كتلة واحدة! أحيانًا تجد كتاباً ينقلك بين هذه الأشياء كلها، لكن السلبية مع الكتاب في عرفي هي إيجابية أيضًا، لأن السلبية هي عمل تحد بين طرفين، هي نقاش نقدي بين طرفين، عنف متبادل بين طرفين، عنف من الكتاب عليك، ومنك أنت على الكتاب، فهذه نوع من الممارسات التي تحدث لنا كلها، ونعيشها، ولذلك أنا من الشخوص الذي أسمح لنفسي أن أعمل بكل ما يمكن أن يعمل مع الكتاب، كأنه إنسان، وشخص أصارعه أحيانًا، أضمه وأعشقه أحيانًا، أسمح له بالدخول إليّ أحيانًا، أسمح لنفسي بالنفور منه، وأسمح له بالنفور مني أحيانًا، قلت: إن انصرافي عن المجتمع جعلني أعيش مع كائنات ورقية خيالية، عالمي هو عالم المكتبة، عالم الورق، عالم الكائنات، والكتب التي تحدثت عنها واشتريتها، إلى الآن موجودة عندي، مكتبتي التي هي في بيتي، هي الكتب التي كنت قد أخذتها في المرحلة الصغرى، ما تزال، كتاب: الكامل للمبرد، الآن بدأ الورق يتيَّبس، ويجب أن أحركه بطريقة دقيقة جداً، وألا تنكسر الصفحات، قديم جداً، هناك ألفة بيني وبين الورق، بيني وبين الكتب هناك محبة، أولادي يجلسون في الحديقة يستمتعون، أنا أجلس في المكتبة وأشاهد كعوب

الكتب، منظرها متعة كأنها ورود وزهور، وكأنني أحكي مع هذا وذاك، فهذا عالم؛ لأنني لا أعرف عن نفسي أنني صرت سلبيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة مع أي كتاب على الإطلاق، أحترم الكتاب، أحيانًا عندما يكون هناك مؤتمر في القاهرة أو في تونس، كثيرون يهدون كتبًا، تعرف أن بعض الكتب لا تعنيك، والله احترامًا للإهداء ولكل شيء، أحملها ولو دفعت مبالغ إضافية بالشحن، احترامًا لشخص قدم كتابه إليّ وعليه إهداء، لا يجوز في عرفي حتى على المستوى الديني أو الأخلاقي، أن تهين كتابًا أهدي إليك، أعتقد أن هذه إهانة أخلاقية وثقافية، لا تليق بإنسان يحترم نفسه أن يفعلها، لدي قائمة كبيرة بكتب لا يوجد لدي مجال أن أقرأها لا تدخل في عالمي، ولكن احترامًا للذين أهدوها لي، أو أرسلوها أضعه، للزمن، يومًا من الأيام سيستخدم، لم يحدث أن صار لي موقف سلبي، لأنني نشأت تحت مظلة الكتب، وبالكتب، ومن أجل الكتب.

٩ - مع الإنترنت الواقع أننا نقرأ، بدلاً من أن نقرأ من صفحة نقرأ من شاشة، قبلنا كان الأعرابي يقرأ صفحة السماء بنجومها، مثل ما نقرأ نحن صفحة الكتاب، نعرفها حرفًا حرفًا.

إن عجز الأعرابي أن يقرأ هذه الصفحة وأن يقرأها كلمة كلمة، فهو يستطيع أن يرفع بصره إلى السماء، ويقول لك عن كل نجم، وعن كل حركة، وعن كل نوء، وعن كل تشكيل للريح، وغير الريح، يقرأ صفحة السماء مثل ما نقرأ نحن الكتاب، مهارة القراءة أصلاً هي غريزة بشرية، شرط بشري، نستطيع أن نحول هذه الغريزة، وهذا الشرط، إلى قيمة معرفية، وقيمة علمية.

طبعًا أحس في الإنترنت، عجزاً وإحساساً بأن الزمن مرَّ وتركني خلفه، ليس لدي القدرة، وخاصة القدرة البصرية، لأن المشكلة لدي بالبصر والرؤية، وأصابعي تيبَّست، فعلاقتي بالإنترنت والدخول إليه، السياحة فيها تكاد تكون صفرًا!

لدي موقع الآن موجود، ولم أعد بعد المقدمة، فهذا الموقع حديث جداً، فقد وضعت خطابًا موجهًا للزائرين والزائرات، أقول فيه: اعذروني، لم أضع منتدى؛ لأنني لا

أريد أن أهين الذي يدخل المنتدى فلا يجد أحداً يرد عليه! فليس لدي لا الوقت ولا القدرة على الرد، فجعلت الموقع بدون منتدى؛ لأن من العيب أن تعمل منتدى، ثم يداخل الناس، ثم لا ترد عليهم، لكي لا يحدث هذا، ولا أقع في هذا العيب الأخلاقي، جعلت هذا غير موجود، هذه كتبي اقرأها وتصرف فيها، والحمد لله رب العالمين، وليس لدي القدرة، ولدي عجز وأعلن عنه، عجز جسدي، وعجز بمكوناتي الخاصة أن أفعل هذا، ولذلك هذا وضعي، وهذا الوضع الذي أصبحت فيه، طبعًا بهذا أخسر شيئًا كثيراً بكل تأكيد، ولكن هذا الواقع.

ولربما سأل سائل: لو كانت الوسائل هيئت لنا في ذلك الزمان، هل كنا سنترك الكتب ونتجه إليها؟! أجيب بكل تأكيد، بالعقول الصغيرة، سيحدث هذا، لكن بالعقل الكبير الذي يسترجع الأحداث، يجب ألا يحدث؛ لأن ممارسة العلاقة مع الورقة المكتوبة، والكلام المكتوب، لها أهمية عضوية شديدة جداً في علاقة العين مع الكلمة، علاقة العين مع الذهاب والإياب مع الأسطر والعودة إليها مرة أخرى، والوقوف معها، معروف في الدراسات كلها، الذاكرة البصرية، ودور الذاكرة البصرية، وأهمية الذاكرة البصرية، وقدرة الذاكرة البصرية على تثبيت كل ما هو في مجال الإبصار، واستدعائه مرة أخرى يكون أقوى وأسرع، فالذاكرة البصرية وظيفة، في الإنترنت وغيرها، الذاكرة البصرية سريعة، تسرع التنقل بشدة، لكن التعامل مع الكتاب في علاقة الجسد مع الجسد، لأنني أعد الكتاب جسداً آخر، تشبه أن تحب أحداً بالأحلام، أو أن تحب بالحقيقة الجسدية بين جسدين، الحب بين جسدين له قيمة، والحب عبر الأحلام والأوهام له قيمة مختلفة، ابن حزم أشار ذات مرة إلى شخص أصيب بمرض واكتئاب، لماذا؟ لأن هناك امرأة يحلم بها ذاك وهي غير موجودة، وأحبها ولم يستطع أن يتزوجها، فأصيب بمرض، وتكلم ابن حزم عن هذا في "طوق الحمامة" هذا المعنى صحيح، بكل تأكيد صحيح، لكن صحة مختلفة عن صحة مباشرة الجسد مع الجسد، مجنون ليلى، حينما استحال عليه الحصول على الجسد، الذي يحبه، جنّ، وأصيب بالجنون، فردة الفعل قوية، العلاقة مع الكتاب،

هي هذا النوع، لذلك لابد أن نُشعر الناس بتجربتنا نحن مع الكتاب، وكيف أن الكتاب هو بحد ذاته عقل، كتلة عقلية تضيفها إلى عقلك؟ وهذا المفعول له مجموعة آليات، بعضها حسي، بعضها معنوي، بعضها ثقافي، اجتماعي، مادي أيضًا، إذا اشتريت الكتاب هناك التزام مادي، لأن شراء الشيء بنقودك، يجعل هذا الذي اشتريته بمالك، علاقته معك أعلى بكثير من الشيء المجاني.

١٠ - ولكن قد يثور سؤال مهم: هل المطلوب منك أن تقرأ نصًا أم تحصل على معلومة؟ الحقيقة مجرد الحصول على معلومة يجعل الرأس خواء، جدًا، مبرمج برمجة آلية، العرب يقولون: كل إناء بما فيه ينضح!

هذا الرأس إناء، إذا ما تضع فيه شيئًا ما تنضح، إذا امتلأ تنضح، لذلك تجد في تجارب كل العباقرة، كل الكتاب، كل المبدعين، كل العظماء، ترى في تجاربهم أنهم كانوا قراء ممتازين بالدرجة الأولى، ثم تراهم مقلدين تقليدًا قطعيًا مئة بالمئة، ثم مبدعين بعد ذلك، يخرج بهذه السلسلة، إذا لم يمر بهذه السلسة لن تتحقق له هذه القوة من حيث الثراء، من حيث المقدرة، من السعة، من حيث الانتشار.

١١ - هذا واضح لنا بازدواج اللغة الذي نعيشه، عندنا اللغة الأم وهي العامية، وعندنا اللغة الفصحى التي نسميها الأم، وهي ليست الأم، هي لغة مكتسبة، ما لم تكتسب هذه اللغة من الكتب، ومن القراءة، ومن الاستمرار معها، لن تصبح لغة أُمًا عندك، ستظل لغة بعيدة، لغة آخرين، لغة الجاحظ وامرئ القيس، والمؤلفين، وطه حسين، والكتب، وليست لغتي أنا، لكي تكون لغتك أنت ويستقيم ويتحسن اللسان لابد أن تكتسب.

الخلفاء في العصر العباسي، كانوا يرسلون أولادهم، لأن معظم أمهات العباسيين فارسيات، جوار، يعايشون جواري، فكانوا يرسلونهم إلى البادية لكي يتعلم أحدهم اللغة، ويأخذها، الواقع كان يأخذها من كتب، ولكنها كتب تمشي على قدمين، يسمون رجالاً، يسمون أعرابًا، ولكنهم كتب في الواقع، الآن الأعراب جاءونا على ورق مكتوب، ومن ثم نتعامل معهم، اللغة هي حالة اكتساب واكتناز،

بعدها يمكن أن يصبح الإنسان منتجًا، المعلومة، في حالة وظيفة شخص في إدارة معينة في الجوازات أو في الأمن، أو في المطار، أو في الجمارك، يحتاج إلى معلومة لأنه سيؤدي وظيفة، لكن هذا ليس مبدعًا، أنا أذكر كلمة عظيمة، والله بعض الكلمات تكون عجيبة جدًا عندما تفكر فيها، كلمة لمحمود درويش، يقول فيها وتأملوا معي: يقول فيها: "إذا لابد من تقليد فقلد غيرك، لا تقلد نفسك"، إذا قلدت نفسك تكرر نفسك، إذن ليس هناك فائدة، تندم تدخل في هذا الانغلاق، لكن تقليد غيرك، معناه أنه أدخلك إلى عالم آخر، وهذا بالتالي ينقلك ويجعلك مبدعًا، طبعًا لو قلتها لبعض الناس، يرد عليك: لا تقلد غيرك، ولا تقلد نفسك، هذا هو الأفضل، هذا كلام مجاني!

الرجل يقولها عن حرقة، حرقة يفهم فيها خطر اللغة، وخطر الكلمة، وعظمة الكلمة، والنبش القاتل من أجل الكلمة، فإذا عجزت عن كلمة تصنعها أنت، كلمة لم تصنعها من قبل، لا تقلد نفسك، وتأتي بكلمة سبق وأن قلتها، لأنك بذلك كررت نفسك، والمتقدم يلغي المتأخر، فأنت ألغيت ذاتك، لكن قلد غيرك، تقليدك لغيرك، يجعلك مرة مرتين ثلاث أربع، ثم تنتبه، وتعي أن هذه الإضافات المكتسبة ستغير مسارك، الإنسان الذي عاش حرقة النص، أو لذة النص، النص متعة، النص لذة، أبو السائب المخزومي، تعرفون قصته عندما سمع بيتًا من الشعر، وكان عنده بئر (ساقية) فذهب إلى البيت ورمى نفسه في البئر من شدة إعجابه بهذا البيت، وتعرفون قصة الفرزدق عندما سجد لبيت للبيد، عندما سمع بيتًا للبيد، فسجد، قالوا كيف؟ قال: إن للشعر سجدة، كما أن للقرآن سجدات، قتله البيت، شدة البيت، ضخامة البيت في عرفه، جعله يخرج عن طوره، اللغة لها قيمة عظمى، أحيانًا نستهتر نحن بقيمة اللغة، نستهتر بها فعلاً، وأعتقد أن جزءًا من أزماتنا الحضارية، أننا لم نعط اللغة حقها من التقدير الحقيقي، نقول ما لا نفعل، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" هذه صفة المنافقين، نحن نقول ولا نفعل، عِدْ ولا تفي، قل فلسطين عربية، قل سننتصر، عد أهلك، استهتار باللغة، متى نعيد للغة حقها؟ إذا جعلنا اللغة قيمة، وأنا

ذكرت المثل العربي الذي يقول: "كل لسان إنسان" نرى تجربتنا نحن الآن نرى بعض إخواننا البنجلادشيين، العمال، وننظر لهم - مع الأسف الشديد - نظرة دونية، لماذا؟ لأنه لا يملك اللغة التي لديك؟ لكن قد يكون في لغته شاعرًا وعبقريًا، أو كاتبًا كبيرًا، يكتب عن التجربة التي عاشها هنا، لو تحدث بلغته، تغير وضعه، زهير(١) يقول:

وكائن ترى من صامت لك معجب   زيادته أو نقصه في التكلم

أي يزيد أو ينقص في التكلم، اللغة قوة، اللغة سلطان، طبعًا المعلومة أيضًا قوة بكل تأكيد، لكن المعلومة قوة على مستوى الأداء، مستوى الدولة، مستوى المؤسسات، مستوى الجيوش، مستوى البنوك، مستوى العمل، فأنت محتاج لها في هذا المجال، نعرف في أمريكا المجهود الذي يبذل من أجل كتابة خطاب الرئيس، أو خطاب المرشح، رونالد ريجان، يقولون: إن الذين يكتبون خطابه خمسة أشخاص، واحد يكتبه، والثاني اقتصادي يراجعه من هذه الناحية، والثالث سياسي، يراجعه من الناحية السياسية، والأخير شخص كوميدي، يكتب لكي يجعل في الخطاب فقرات تضحك، ويجعله يخطئ ويتعمد ذلك، ثم يعود ليصحح لنفسه، لكي يضحك، ويضحك الجمهور معه، لكي يكسر الرتابة، فهذا جزء من صناعة اللغة! ابن جني(٢) عنده كلمة عظيمة يسميها شجاعة العربية، طبعًا هذا في زمانه، لا نحن ولا عربيتنا، شجاعة العربية، أي قدرة اللغة العربية على تفتيق الصيغ والمصادر، والقيم الصرفية، التفتيق المستمر الذي لا ينتهي، فسماها شجاعة اللغة، بما أن لا يردها شيء، لا نستطيع أن نفعل هذا إلا باكتساب اللغة عبر القراءة!.

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى بن ربيعة بن رباح المزني ولد عام ٥٠٢م حكيم الشعراء في الجاهلية وفي أئمة الأدب من يفضّله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير من الشعر ما لم يكن لغيره: كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد مُزَينة بنواحي المدينة المنورة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بنوه فيه بعد الإسلام.

(٢) هو أبو الفتح عثمان بن جني المشهور بابن جني عالم نحوي كبير، ولد بالموصل عام ٣٢٢ هـ، ونشأ وتعلم النحو فيها على يد أحمد بن محمد الموصلي الأخفش. ويذكر ابن خلّكان أن ابن جني قرأ الأدب في صباه على يد أبي علي الفارسي حيث توثقت الصلات بينهما، حتى نبغ ابن جني بسبب صحبته، حتى أن إستاذه أبا علي، كان يسأله في بعض المسائل، ويرجع إلى رأيه فيها. على الرغم أن ابن جني كان يتبع المذهب البصري في اللغة إلا أنه كان كثير النقل عن أناس ليسوا بصريين في النحو واللغة وقد يرى في النحو ما هو بغدادي أو كوفي، فيثبته. له ما يفوق الخمسين كتاباً، أشهرها كتاب "الخصائص" الذي يتحدث فيه عن بنية اللغة وفقهها.

١٢ - أمّا بالنسبة للحديث الذي يُثار من وقت لآخر عن أن العرب لا يقرؤون، أنا لا أعتقد به تمامًا، أعتقد أن هناك مشكلة في الاستطلاعات؛ لأن لدي مؤشرات كثيرة الشخص يقرأها بدون استطلاعات، لما أرى كتاب: (لا تحزن) لعائض القرني، ويبيع ثلاثة ملايين نسخة، وأنتم تخصص مكتبات، أنا فهمت من أصحاب تخصص المكتبات، أن جريدة واحدة معناها ثلاثة قراء! كتاب واحد معناه ثلاثة قراء! يندر أن يكون الكتاب يساوي قارئًا واحدًا؛ لأنك تقرأ وأخوك، وأختك، وجارك، وصديقك، أو أحد يستعيره منك، فمليونان معناهما ستة ملايين، أنا تابعت، ولدي موضوع سأطرحه عن كتاب (لا تحزن)، لأنني تابعت، وأجريت إحصاءات واستطلاعات، في مصر، في اليمن، في المغرب، بيع بأرقام هائلة، أيضًا اذهب إلى كتب الدين، وانظر مقدار مبيعاتها، أيضًا اذهب إلى كتب السحر، وانظر حجم مبيعاتها، اذهب إلى كتب الطبخ، وشاهد كم يباع منها، اسألني الآن عن نوع المقروء، أقول نعم؟! إذن يجب أن نفرق الآن بين أنهم يقرؤون أو لا يقرؤون، وبين ما المقروء؟

حس التأثيم هو الذي شطر بين ما الذي نقرأه والذي لا نقرأه، صار الاتجاه إلى قراءات معينة، لأن ليس بها تأثيم، ولما تقرأ كتاباً في الدين أو في الموعظة، لأن هذا يقوي دينك، ومن ثم لا يأثم، لكن لو قرأ كتابًا في الرواية، قال: هذا تضييع وقت! هذا يمكن أن يفسد أولادي وبناتي في البيت، يمكن أن يفسد الناس الذي يستعيرونه مني، فيبدأ في عملية انصراف عن هذه الأشياء!

نحن الذين شطرنا العقل الاستقبالي في التعامل مع القراءة، لكن أنا أعتقد، شاهدوا الناس الذين يقرؤون عن التعليقات الرياضية، أنا مجرب في الجامعة، عندما أدخل على الطلاب في الفصل، أشاهد جميع الطلاب فاتحين الصفحات الرياضية، ويقرؤون عن اعتزال ماجد، اعتزال سامي، عن الهلال والنصر، عن المنتخب، عن برشلونة، عن غير ذلك، إذن هم يقرؤون، من حيث أن يقرأ، أيضًا لما ترى الناشرين، الناشرون يعرفون، وقد جالست الناشرين كثيراً وتناقشت معهم كثيراً، خاصة الناشرين اللبنانيين، يعرفون بالضبط أن هذا الكتاب سيباع ويشترى، وذاك

الكتاب لا، يعرف بالضبط أن هذا الكتاب سيباع بالآلاف، وهذا الكتاب سوف يباع بكميات صغيرة، عنده معرفة بذلك، العلة إذن الآن، ليست في أنهم يقرؤون أو لا يقرؤون، أنا ظني أنهم يقرؤون، المشتريات التي عندي في العالم العربي هناك أناس تقرأ وبأعداد كبيرة، ولكن عندما نسأل عن نوعية المقروء، نعم، هذه منطقة أخرى، منطقة بحثية ومعرفية، يمكن أن نسأل فيها، ونستطلع فيها، ونسأل عن أسبابها، عن مسبباتها، الذين قرؤوا (لا تحزن)، لم يقرؤوا الكتاب؛ لأنه فقط كتاب، لكن في اعتقادي أن لديهم كمية من الحزن بداخلهم، فالكتاب يضرب على شيء في داخل هذا الذي اشتراه، أنا وأنت، أنا الكتاب عندي، وقد اشتريته، ذهبت إلى مكتبة العبيكان واشتريته، والله لم أقرأه، بل تصفحته بعض الشيء، وما أغراني على الاستمرار على الإطلاق، قرأت صفحتين من هنا، وصفحات من هناك، لم أمش معه، لكن لو كنت لا سمح الله حزينًا! الإنسان الذي عنده حالة حزن، سيقرأ هذا الكتاب؛ لأنه يستجيب لحاله، فأنت أمام حالة استدعت شراء، أمامك حالات لم تستدع شراء.

١٣ - هناك برمجة من وقت مبكر، ترى أن القراءة خطر..! هذا التأثيم، ومشروع التأثيم، ما يزال موجودًا، دعونا نكون واضحين، نحن أحيانًا كآباء نبيح لأنفسنا قراءة كتب، ولكن لا نريد لأبنائنا أن يرونا، وكل أب تجد عنده محفظة يقفلها، ولا يريها لأبنائه، أو ينزع الغلاف حتى لا أحد يراه، لنكن صادقين، هذا موجود، وموجود بكثرة، لكن لا نعلنه، نبيح هذا النفاق، شيء مسموح للكبار، وغير مسموح للصغار، شيء يجب، وشيء لا يجب، شخص عنده مكتبة في القاهرة، من لديه بيت في القاهرة، تجد في القاهرة أو في بيروت مكتبة، وبالرياض مكتبة، مكتبة القاهرة غير مكتبة الرياض، مكتبة بيروت غير مكتبة الرياض، هذه حقائق، لكن هذه تكشف لك عن وضع اجتماعي، عن وضعية نفسية، سيكولوجية، ثقافية، اجتماعية، ويجب أن نعمل بهذه المناطق، لكن مسألة العرق يقولون، زيدان وغيره، يقولون مسألة العرق الآري، والعرق السامي، لكن هذا غير صحيح، كل الممارسات، وكل والثقافات، وكل شيء يثبت أن هذا غير صحيح،

بدليل أن العقول العربية المهاجرة، إلى أوروبا عملت مع الأوروبيين والأمريكان، مثل الأمريكان تمامًا، والأمثلة كثيرة: إدوارد سعيد، ومجدي يعقوب، وأحمد زويل، وحياة سندي، وغادة المطيري؛ أعداد ليس لها أول ولا آخر، أسماء دخلت في الثقافة الغربية متساوية، نحن أيضًا عندما كنا طلابًا في بريطانيا، أو أمريكا، نعمل بطريقة، وعندما نعود إلى بلادنا، نعمل بطريقة أخرى، هنا توجد معوقات كثيرة، ومجال العمل ليس كبيراً بشكل كاف، مجال البحث العلمي والأكاديمي، والجو المعرفي والبحثي ليس كافيًا، اللهم إلا الذي يخلق بيئة علمية داخل منزله.

وما دمنا الآن في حضرة مكتبة، وفي مكان هو مكتبة، وفي مشروع هو تجارب في القراءة، حاولت أن أقدم جزءًا أو أجزاءً من تجربتي في الكتابة. .

مراحل القراءة..![1]

أ. د. سعد بن عبدالرحمن البازعي

أستاذ اللغة الإنجليزية والنقد الأدبي المقارن بجامعة الملك سعود

أود في البدء أن أتوجه بجزيل الشكر لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة، والقائمين على هذا المشروع أو البرنامج المميز، في عرض التجارب القرائية، والتي تخرج هنا إلى حد كبير عن نمطية ما يطرح كثيراً في المؤسسات الثقافية، حيث المحاضرات التقليدية بشكلها المتعارف عليه.

والواقع أن هذا أسقطني في حيرة؛ لأنني تبينت أنني أمام تحد مختلف، بمعنى أنني لست مدعواً هنا لأحاضر بالمعنى الذي اعتدت عليه في الأندية والمناسبات، وإنما لأتحدث إلى صفوة من الحضور، وعندما علمت تحديداً أن من الحضور بعض الشباب الذين يودون أن يتحاوروا مع المتحدث في تجاربه القرائية، عندئذ شعرت أن المسألة فيها صعوبة من ناحية، وسهولة من ناحية أخرى!

الصعوبة هي أن الموضوع يستلزم مني خطاباً مختلفاً، والسهولة، أنني متاح لي هنا التخفف من قيود الحديث الرسمي، أو الحديث الذي تتسم به عادة المحاضرات العامة.

إنني لا أدَّعي أنني أعرف بالضبط ماذا سأقول؟ لأنني وضعت رؤوس أقلام، أود أن أنطلق منها في حديث أقرب إلى العفوية منه إلى الخطة المرسومة.

الحقيقة أن الدخول في التجربة القرائية هو دخول في سيرة ذاتية؛ فالصعوبة أيضاً تأتي من هنا، وهو أننا في مثل هذا الحديث نربط المعرفة بتطور المراحل العمرية

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء الثلاثاء ١٥ صفر ١٤٣٠هـ، الموافق ١٠ فبراير ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

للإنسان، وما حققه أو ما لم يحققه في محاولاته لإنجاز شيء ما في عالم الثقافة؛ فالتجربة في القراءة أعادتني إلى المراحل الأولى، أعادتني إلى الطفولة، وأعادتني إلى المراحل الدراسية الأولى. سترون أن محاولتي هي في الربط بين تلك المراحل وما تلاها، وما هو حاضر الآن.

لعلي أدخل، كما اعتدنا نحن الأكاديميين، بمدخل مصطلحي في البداية. كلمة قراءة، هي في الواقع مفهوم، ومفهوم مركّب، ومعقّد، لو أردنا أن ندخل في تفريعات دلالة القراءة، والإخوة الذين يعملون في حقل الثقافة والنقد الأدبي تحديداً سيدركون أننا عندما نقول قراءة فإننا لا نحصر أنفسنا فقط في إطار التعامل مع الكتاب نفتحه ونقرؤه، ولكننا نتعامل مع نصوص الثقافة، بل نصوص الحياة الاجتماعية، بوصفها نصوصًا نقرؤها ونفسرها باستمرار، فنحن نقرأ إشارات المرور، ونقرأ حركات الآخرين، ونقرأ التعبيرات، ونقرأ ما يكتب على شاشة التلفاز، وما نراه في الإنترنت، نقرأ أشياء كثيرة، وكل هذه قراءة.

هذا التطور جاء بفضل نظريات كثيرة في علوم مختلفة، لعل أهمها النظريات السيميائية(١)، التي بثت في هذا المفهوم دلالات لم تكن في الحسبان من قبل. حيث يمكننا أن نقرأ الصور، ونقرأ الرموز، ونقرأ الكاريكاتير، من ضمن الفنون التصويرية التي نقرأها من خلال ما تدل عليه، هناك رسومات كاريكاتيرية مملوءة بالكلام، فتتحول إلى مقالات، لكن هناك رسوماً تعتمد على التشكيل نفسه لتؤدي دلالاتها، فهذه تقرأ كما تقرأ النصوص الأخرى، لكن لاشك أن لها آلياتها المختلفة، والتي يدرسها أهل علم الدلالة. ومع ذلك فإنني سأحصر نفسي في الدلالة الدقيقة، أو المحددة لهذا المشروع، والذي يتوقع من المتحدث أن يكون حديثه محصوراً في القراءة

---

(١) تُجْمع عدة كتابات ومعاجم لغوية وسيميائية على أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يُعْنَى بدراسة العلامات. ويبدو أن تعريف مونان أوفى هذه التعريفات وأجودها، إذ يحدد السيميولوجيا بأنها: "العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز) التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس".

بمعناها التقليدي، بمعنى أنني لن أدخل في القراءة بهذه المعاني البعيدة والمتشعبة، ولكن إضاءة هذه الأبعاد في اعتقادي أنه مفيد كبداية.

الناحية الثانية التي أود أن أشير إليها هي مسألة المنهج في هذا الحديث؛ فقد سألت نفسي من أين أبدأ؟! أو كيف أعرض تجربتي في القراءة، هل أبدأها بشكل تاريخي؟ أن أتحدث عن مراحل، كما ذكرت قبل قليل، الطفولة ثم مراحل الدراسة: الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي، وهكذا، أم آخذها من حيث نوع القراءة، أي أنواع الكتب، أنواع المقروء، وهذا أيضًا مدخل آخر، فقد لا نكون زمنيين فقط، وإنما موضوعيين، أو حسب الموضوع.

في النهاية رأيت أن أمزج بين الجانبين؛ فأتحدث عن مراحل، وأتحدث عن أنواع المقروء في الوقت نفسه، فوجدت أنني عندما أستعرض مراحل القراءة التي مررت بها، أتحدث أيضًا عن أنواع القراءة؛ لأن كل مرحلة اتسمت بنوع من أنواع القراءة، وأجزم أن كثيرًا منكم، وبعضهم أساتذة، مروا بتجارب مشابهة، وربما تتقاطع مع تجربتي؛ لذلك أتطلع إلى حوار عقب هذا الحديث، فنستمع ربما إلى تجارب بعض الحضور.

مراحل القراءة لو أردت أن أستعرضها معكم، سأتحدث عن أربع مراحل بالنسبة لي، المرحلة الأولى هي التي أسميها قراءة التأسيس، التأسيس بالمعنى الحرفي للكلمة، أي من المرحلة الابتدائية، إلى المرحلة الثانوية، فهذه تبدو لي أنها مرحلة قراءة تأسيسية؛ لأننا في هذه المرحلة نتعلّم أساسيات المعرفة، وهذه المرحلة، تعج بالقراءات، تتعرف على تراثك في هذه المرحلة، وتتعرف على شيء من تراث الآخرين، إذا كنت منفتحًا عليه. في هذه المرحلة تعرفت على موروثي وقرأت قراءات طفولية، وقرأت مترجمات، فهناك خليط لم أعرف تأثيره إلا بعد أن تجاوزت هذه المرحلة، لكنني عندما أعود الآن أجد أنني كنت أقرأ القصص ككل الأطفال، كنت أحيانًا أقرأ أشياء تتاح لي فقط لأنها متاحة، مثل قراءة الأمثال الشعبية لعبدالكريم

الجهيمان(١)، ليست قراءة أطفال، ولكن لأنه كتاب موجود فالتقطته وقرأت منه أشياء، أو أقرأ شعراً شعبيًا، أو من هذا القبيل. لكن أيضاً عشت فترات مصادمة مع المضمون، قرأت نصوصًا، وأنا صغير دهشت كيف تكتب هذه الأشياء، ومن ذلك بعض الأمثال شعبية، وفوجئت بأشياء تكتب وأطلع عليها وأنا طفل، ودهشت لما يكتب مما هو مناف لما تعلمناه في البيوت ومن أخلاقيات ومن قيم، ولكن المصادمة الأكثر حدة مع المضمون جاءت فيما بعد، عند قراءة نصوص شعرية بعيدة عن توجهي، أو روايات ذات مضمون تعجبني، لكن هذا لا يحدث إلا في مراحل متقدمة، من الجامعة فما فوق، عندما تكون قادراً على القراءة النقدية. في المراحل التي قبلها نحن متلقون أكثر مما نحن نقاد، على الأقل هذا بالنسبة لي.

كلنا نحتك بالآخرين ونتعلم، أحد الأشخاص الذين كان يمكن أن أشير إليهم، هو أحد إخوتي الأكبر مني، كان له دور كبير أيضًا في توجيهي لقراءات جادة، كان ذلك في المرحلة الثانوية، ابتداءً من الأول الثانوي، وحتى الثالث الثانوي، قرأت في تلك المرحلة كتبًا قلما يقرأها الآن طلاب المرحلة الثانوية، كتبًا في الفكر المعاصر، روايات "أنا كرنينا" لتولستوي(٢)، أشياء لا أعتقد أن كثيراً من الشبان يقرأونها الآن، وأحيانًا أعتقد أنني لم أكن أفهم الذي أقرأ. أذكر أنه وقع في يدي في المرحلة الثانوية كتاب سارتر "الوجود والعدم" ترجمة: عبدالرحمن بدوي(٣)، طبعًا لم أفهم شيئًا، ولكن

---

(١) عبدالكريم الجهيمان: صحفي وأديب وباحث ومثقف سعودي، ولد عام ١٩١٢م، وتوفي رحمه الله سنة ٢٠١١م. من أشهر أعماله في البحث الشعبي: موسوعة الأساطير الشعبية في شبه الجزيرة العربية: خمسة أجزاء؛ موسوعة الأمثال الشعبية: عشرة أجزاء.

(٢) هو نيقولا يفينتشي تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م)، روائي و كاتب روسي من عمالقة الروائيين الروس ومن أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ويعده البعض من أعظم الروائيين و من أعماله: الحرب والسلام؛ والبعث؛ وآنا كارنينا. .

(٣) عبد الرحمن بدوي (١٩١٧- ٢٠٠٢م)، أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجًا، إذ شملت أعماله أكثر من ١٥٠ كتابًا تتوزع ما بين تحقيق وترجمة وتأليف، ويعدُّه بعض المهتمين بالفلسفة من العرب، أول فيلسوف وجودي مصري، وذلك لشده تأثره ببعض الوجوديين الأوروبيين، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر.

كنت أقول لنفسي: أنا مثقف، وسوف أكون مثقفًا وينبغي أن أقرأ كتباً من هذا النوع، فأقلب الصفحات، واقرأ صفحتين أو أكثر، ثم أعود بخفي حنين، ولكن أعتقد أن المهم هنا هو أنك وضعت نفسك إزاء تحد أمام ثقافة أخرى، الاسم الأجنبي، الفكرة الأجنبية. فيما بعد عدت إلى سارتر(١)، وعدت إلى هايدغر(٢)، ولكن بوعي مختلف، ربما لم أكن لأفعل لولا ذلك الاطلاع المبكر، تلك المصادمة الأولى لهذه القراءات، المرحلة كانت تعج بمؤثرات مختلفة.

تلي هذه المرحلة التأسيسة، مرحلة أسميها قراءة التوجه الفكري والبحثي، بمعنى أنني في هذه المرحلة بدأت أتلمّس إلى أي اتجاه سأسير، إلى أي هدف، بعد أن تكون قراءة التأسيس قد وضعت لبنات تدفع القارئ إلى مجالات معينة، فيكون التوجه الفكري والبحثي في هذه المرحلة، وهي مرحلة الجامعة، مرحلة تتلو مرحلة التأسيس.

المرحلة الثالثة هي التي أسميها قراءة التخصص، وهي قراءة مرحلة الدراسات العليا، فنكون عندئذ قد انطلقنا من العام إلى الخاص، وبدأنا نتوسع في شعبة محددة، وسنكون متخصصين فيها.

طبعًا أتكلم عني وعن أقراني، الذين سلكوا سلك التدريس الجامعي. المرحلة الرابعة هي التي أسميها مرحلة التوسع والتركيز في الوقت نفسه، التوسع في هذا المجال المتخصص، والتركيز أيضًا على قضايا محددة، والمفارقة في هذا المجال هي أن التركيز يؤدي إلى التوسع؛ لأنك كلما ركزت القراءة في مجال معين، نظرية ما، أو

---

(١) جان بول ساتر: (١٩٠٥- ١٩٨٠م)، فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو و ناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي. بدأ حياته العملية أستاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. بعد الحرب أصبح رائد مجموعة من المثقفين في فرنسا. وقد أثرت فلسفته الوجودية، التي نالت شعبية واسعة، على معظم أدباء تلك الفترة. منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤م، تميزت شخصياته بالانفصال عنه وبدت وكأنها موضوعات جدال وحوار أكثر منها مخلوقات بشرية، غير أنه تميز بوضع أبطاله في عالم من ابتكاره.

(٢) مارتن هايدغر: (١٨٨٩-١٩٧٦م)، فيلسوف ألماني، ولد جنوب ألمانيا، وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل. ومن أبرز مؤلفاته: الوجود والزمان؛ دروب مُوصَدة؛ ما الذي يُسَمَّى فكرًا؟؛ المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا؛ نداء الحقيقة؛ في ماهية الحرية الإنسانية؛ نيتشه. . .إلخ.

فرع من فروع العلم، اكتشفت أنه يتسع في اكتشافك لكثرة ما كتب فيه، وكثرة ما أضيف إليه، فيكون الباب ضيقًا في البداية، وما بدأ ضيقًا ودقيقًا ومتخصصًا هو في الواقع واسع سعة المعرفة، فهذه المرحلة الرابعة التي أسميها مرحلة التوسع والتركيز، هي المرحلة الحالية.

في كل مرحلة من هذه المراحل هناك قراءة؛ ويستدعي هذا أن نعود إلى القراءات الأولى. في مرحلة التأسيس كان للوالد - رحمه الله - دور أساس، وهذه مسألة مهمة للتربويين، ومهمة لنا كآباء وبعضنا من صاروا أجداداً.

إننا أمام أنموذج لكيفية تعامل الأب مع ابنه، وأنا أتحدث عن مرحلة مبكرة من مراحل التعليم في هذه البلاد، والدي لم يكن متعلمًا، وإنما كان يقرأ قراءة الناس في تلك المرحلة، أي يستطيع أن يدرك ويفهم النص الذي يقرؤه دون أن يكون قارئاً متوسعاً.

قبل أن أدخل المرحلة الابتدائية، أذكر أنه كان، رحمه الله، يأتي بالصحف ويساعدني على قراءة العناوين الرئيسة. كانت تلك هي علاقتي الأولى بالحرف الذي كان مغلقًا، وكان تدريجيًا ينفتح أمامي قبل أن أدخل المدرسة. أعتقد أن هذا لا يحدث كثيراً حتى الآن مع أننا في مراحل يفترض أن التعليم أكثر تطوراً، لكنني حظيت بهذه اللفتة من أبي الحنون والواعي في تلك المرحلة المبكرة.

في تلك المرحلة كان لأحد إخواني الأكبر سناً دور أيضاً في تطوير اهتمامي بالقراءة. أذكر أنني في تلك المرحلة كنت ألعب كبقية الصبية مع أختي وكنا نلعب بأشياء طفولية عادية. وكنت في السنة الثانية الابتدائية، وكان أخي الأكبر يريد أن يفضّ مشكلة بيني وبين أختي عندما اختصمنا على بعض أشياء الأطفال، قال: يا سعد، لماذا لا تكون لديك مكتبة؟!

طبعًا الفكرة كانت جديدة بالنسبة للمكتبة، المفهوم أصلاً غير وارد، فأتاني بصندوق ووضعنا الدفاتر فيه، وشعرت أنني أمام مكتبة. هذه كانت أيضًا خطة

تأسيسية بالنسبة لي؛ لأنني منذ ذلك الحين إلى اليوم وأنا لدي مكتبة، ولكن البداية كانت مبكّرة. وأذكر أننا حينما كنا نسافر من منطقة لأخرى لأسباب تتعلّق بعمل والدي، كنت أنقل مكتبتي معي، أو أطلب إليهم أن يشتروا لي طاولة، ويكون لدي مكتبة في البيت، فهذا أدّى إلى أن أشعر بالتميز على بعض أقراني ممن لم يكونوا يهتمون بالكتب والقراءة! فيكفي أن تقول والدتي: سعد عنده مكتبة! كان لهذا تأثير نفسي عليّ، وأعتقد أن حاجة الطفل في هذه المرحلة إلى التميز ورغبته في أن يكون أفضل من غيره، هاجس يدفعه الاستمرار.

وطبيعي أن يكون حب الاستطلاع، أو حب المعرفة في هذه المرحلة هو الهاجس الأول أو الرئيس، وإنما هو الدافع الطفولي، الذي يكبر معنا، وهو ليس طفوليًا فقط، : نظل في عالم من التنافس والرغبة المستمرة في التميز على غيرنا بما نقرؤه، ولكن في تلك المرحلة الطفولية أعتقد أن هذا كان له دور كبير.

في هذه المرحلة أيضًا والتي هي مرحلة المتوسطة والثانوية، أذكر أنني تعرفت على أعمال أدبية عالمية، روايات مترجمة، كتب بعضها لم أكن أفهمه، ولكنني أحاول أن أقرأ، الروايات كانت وما تزال أقرب إلى القراءة السهلة والممتعة؛ فتعرفت على أسماء ظلت محفورة في الذاكرة، وعدت إليها فيما بعد عودة الباحث المدقق أو الناقد، الرواية الإنجليزية، والرواية الفرنسية، والرواية الروسية؛ كنا نقرأ نتفًا من هذه وتلك، وكانت متيسرة لمن عاش تلك المرحلة، ومتيسرة في مدينة الرياض، هنا في البطحاء، وشارع الوزير، تجدها على الأرصفة وكانت إلى جانبها، كما يذكر بعض الزملاء، كتب منعت فيما بعد؛ لأن الناس لم تكن تدرك قيمة أو محتوى تلك الكتب!

أذكر في هذا السياق أن مكتبة واحدة أدّت دورًا أساسًا بالنسبة لي لقد عشت جزءًا وإن كان ضئيلاً من طفولتي في منطقة الجوف(انتسب من حيث الأب إلى عائلة من القصيم وليس من الجوف). كان والدي، رحمه الله، يعمل هناك، وعندما كنت في السنة الثانية المتوسطة، افتتحت مكتبة عامة في مدينة سكاكا بالجوف، وأعتقد أنها من

أوائل المكتبات العامة في المملكة . في ذلك الحين لم تكن هناك مكتبات عامة بالشكل المعروف ، كانت عبارة عن دكان طويل نسبيًا ، أو هو أصلاً دكان وحُوِّل إلى مكتبة .

كنا نذهب نحن الصغار في الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العمر إلى هناك نطالع ما هو موجود ، لم نكن نعرف قيمة الكتب ، ولكن العناوين التي نطالعها ، شكل الكتاب ، شكل المجلة ، هذا كله كان له تأثير ، تعرّفت على مجلة العربي في تلك المرحلة ، وتعرفت على كتب من عناوينها ، مثل كتاب الأغاني(١) ، وأذكر أنني دهشت أن الأغاني عنوان لكتاب ، نعرف أن الأغاني شيء نسمعه في الراديو ، لكن ها أنا أمام المعرفة في كتاب من عشرين مجلدًا اسمه "الأغاني" لكن علاقتي بالعربي كانت علاقة في غاية الأهمية ، وأذكر هنا أنني قرأت في أحد أعداد تلك المجلة في تلك المرحلة ، مقالة ، أو بالأحرى ترجمة لقصيدة من الشعر الإنجليزي ، قصيدة مرت عليّ مرور الكرام آنذاك ، أو أنني مررت عليها مرور الكرام ، مع أن عنوانها كان مغريًا ، القصيدة طفولية ، وتتحدث عن رجل يسأل طفلة عن عمرها ، وعدد إخوانها وأخواتها ، فتجيبه بقولها نحن سبعة ليتضح بعد ذلك أنهم ستة ولكنها تعد أخاً لها متوفى وتصر علي أنه ينبغي أن يحسب .

أعتقد أن المراحل الأولى هي المراحل التي يتبلور فيها التوجّه الفكري ، حيث تتضح الصورة أكثر ، لكن لا أعتقد أن هذا يثبت في المرحلة الثانوية ، إلا في حالات نادرة ، المرحلة الثانوية هي المرحلة التي تبدأ فيها الأمور تتضح لكن التأسيس يكون قد سبق . أنا شخصيًا بدأت أكتشف اهتماماتي الأدبية في هذه المرحلة ، عندما دخلنا القسم الأدبي في ذاك الوقت ، وكان لبعض معلمي تأثير قوي ، نعم بعض المعلمين

---

(١) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني : من أهم الكتب الأدبية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري . وهو كتاب ضخم حفل بأخبار الشعراء والأدباء والخلفاء والولاة ، وصور الكثير من جوانب التهتك في حياة الشعراء وأهل الفن والطرب . وقد جمع فيه ما بين المقطوعات الشعرية والمواقف القصصية النثرية ، في توليفة أساسها الفرد الذي يتحدث عنه ، ويسجل أبرز ما يدور حوله ؛ ما يجعله من أهم كتب التراجم والسير والأخبار ، ولكنه من جانب آخر ينقل لنا بعض وجوه الحياة العربية بكل ما فيها من قصص وحكايات وأمثال وخطب ، مما يكشف بعض الجوانب النفسية لهذه الحياة ، وللعرب قديمًا .

كان لهم دور كبير في هذا المجال. وأذكر في هذا السياق، أستاذًا سودانيًا، كان يعلم اللغة العربية في اليمامة الثانوية، التي كانت تقف شامخة بالقرب من هنا، بعض الأساتذة يترك أثرًا كبيرًا في حياتنا، وأعتقد أن كلنا يذكر أساتذة من هذا النوع، فالتوجه اتضح في هذه المرحلة.

عندما دخلت الجامعة، كانت هناك عوامل كثيرة تدفعني إلى قسم اللغة الإنجليزية، وأذكر أن هذه القراءة كان لها دور في دفعي إلى هذا القسم؛ لأن تلك القصيدة كانت موجودة في ذاكرتي. في تلك المرحلة أيضًا كنت قد بدأت أتعرف على النقد الأدبي الحديث، وأقرأ لبعض الشعراء الرومانسيين من العرب مثل: إبراهيم ناجي⁽١⁾، وعلي محمود طه⁽٢⁾، وغيرهما، ممن اكتشفت أنهم أيضًا تعرفوا على الآداب الأجنبية. اجتمعت هذه العوامل لتدفع بي إلى هذا القسم، ولأن أدخل في علاقة لم تنته حتى اليوم مع الثقافة الغربية، وهو ما أضربه مثلاً لطلابي: كيف أن مقالة واحدة تستطيع أن تؤثر في مسيرة إنسان؟ في المرحلة نفسها تقريبًا بدأت أتعرف على الأدب العربي الحديث، ليس فقط الشعر - كما أضفت قبل قليل - وإنما بدأت أقرأ له: طه حسين⁽٣⁾، وعباس محمود العقاد⁽٤⁾ و نجيب محفوظ⁽٥⁾، بالإضافة إلى الترجمات من الأدب العالمية. طه حسين، والعقاد جاءا في البداية، وأعجبت كثيراً بأسلوب طه حسين، وتأثرت أكثر بالعقاد، وأذكر أن أول مقالة كتبتها لمجلة طلابية في كلية الآداب، وكنت في السنة الثالثة، حاكيت فيها أسلوب العقاد في الكتابة، وكنت أشعر وأنا أكتب أنني أتقمص أسلوب العقاد، ومع إدراكي أن أسلوب العقاد صعب

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) علي محمود طه (١٩٠٢-١٩٤٩م) شاعر النيل، من أعلام مدرسة أبولو التي أرست أسس الرومانسية في الشعر العربي، من مواليد مدينة المنصورة. من أشهر دواوينه: الملاح التائه؛ ميلاد الشاعر؛ الوحي الخالد.؛ ليالي الملاح التائه؛ أرواح وأشباح؛ شرق وغرب؛ زهر وخمر؛ أغنية الرياح الأربع؛ الشوق العائد، وغيرها.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) سبق التعريف به.

(٥) نجيب محفوظ: (١٩١١-٢٠٠٦م)، روائي مصري حائز على جائزة نوبل في الأدب. كتب نجيب محفوظ منذ بداية الأربعينيات واستمر حتى ٢٠٠٤، تدور أحداث جميع رواياته في مصر، وتظهر فيها ثيمة متكررة هي الحارة التي تعادل العالم.

فقد كنت أشعر أنني أمام هذا الكاتب الكبير ، أستفيد من أسلوبه في الكتابة ، وكان للعقاد تأثير من ناحية أنه ممن احتفوا بالكتب والقراءة ، فله كتب كما تعلمون عن الكتب ، ولعله من القلة الذين كتبوا عن الكتب ، فله كتابان ضخمان حول القراءة ، حول ما قرأ ، مطالعات هذين الكتابين مع غيرهما ، كانا بحد ذاته مفتاحًا لثقافات أخرى ولقراءات أخرى ، والعقاد كما هم مثقفو تلك المرحلة كان مهتمًا بالتلخيص والتعريف ، كان يمارس ما يعد في ذلك الحين دوراً تنويريًا ، بمعنى أنه كان يريد أن يشيع المعرفة بين الناس ، فيقول : هذا جوته ، وهذا شكسبير ، معروفاً وشارحاً ، كتابة لم يكن يقصد بها غوته الإضافة لما ألف مبتدئ حول هؤلاء الكتاب ، بقدر ما هو التعريف بهم في ثقافة لا تعرفهم ، فهذا الهاجس التنويري أو التعريفي كان مهمًا ، وكان مفيدًا لي كقارئ متوسط ، ولا أقول مبتدأ في تلك المرحلة ، فكنت أعد نفسي قارئًا متوسطًا ، في مرحلة أستطيع أن أستوعب فيها صعوبة الأساليب التي نربطها بكتاب كالعقاد . في هذه المرحلة أيضًا ، وأنا في الجامعة ، اكتشفت شيئًا كان له أثر كبير فيما بعد . أحد أساتذتنا وهو الدكتور أحمد خالد البدلي(١) ، أطال الله عمره ، إذ كان يدرسنا نصوصًا في السنة الأولى بالكلية ، وكما تعرفون فإن الطالب حينما يجلس مع أستاذه يكون شديد الإعجاب بأي شيء يقوله الأستاذ ، خاصة ونحن في جامعة ، وهذا دكتور ، طبعًا هذه النظرة تعلي من شأن الأستاذ ، حتى في هذه المرحلة التي تعد متقدمة . الدكتور البدلي كان يدرس لنا أدبًا عربيًا وأدبًا قديمًا ، لكنني أذكر أنني خرجت من الكلية ثم مشيت في الشارع وكانت سيارة الدكتور البدلي تقف على الرصيف ، فلمحت تحت الزجاج الأمامي ديوان شعر ، عنوانه : كائنات مملكة الليل ،

---

(١) أول رئيس لقسم الإعلام بكلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، عندما أنشئ ذلك القسم عام ١٣٩٢هـ . تولَّى رئاسة قسم اللغة العربية بالجامعة نفسها ، من عام ١٣٩٣هـ حتى عام ١٣٩٥هـ . عين مديراً لمعهد اللغة العربية لغير الناطقين بها من ١٤٠٢هـ حتى ١٤٠٥هـ . حصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام ١٤٠٢هـ . ترجم كتاب (إيران في العهد التجاري) من الفارسية إلى العربية ؛ ترجم قصة (البومة العمياء) للكاتب الإيراني الشهير صادق هدايت من الفارسية إلى العربية (لازالت مخطوطة) ؛ ترجم رحلة ناصر خسْرو القبادياني من الفارسية إلى العربية ، وطبعت ضمن نشريات جامعة الملك سعود عام ١٤٠٢هـ . ألَّف كتاب "دراسة بعض الترجمات العربية لرباعيات الخيام" (لازال مخطوطاً) . عُيِّن محرراً للصفحة الأدبية بجريدة "الجزيرة" التي كانت تصدر أسبوعية "كل ثلاثاء" بالرياض من عام ١٣٨٩هـ حتى عام ١٣٩٠هـ .

للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي(١)، العنوان: كان غريبًا، لأنه ليس من الشعر الذي ندرسه، أو مما نقرأه عادة، لماذا يقرأ أستاذ هذا الديوان بالذات؟ لم أكن أعلم أنني سأكتب الكثير عن حجازي تحديدًا، وعن غيره من الشعراء العرب المحدثين، وأن جزءًا من نتاجي الثقافي والنقدي سيتجه إلى هذا المجال. مثل ما حدث مع مجلة العربي، إنني هنا ألمس نقطة مفصلية في تطور القراءة لدي، وتطور الاهتمامات من خلال هذه الاكتشافات، أن تكتشف ديوانًا، أو عنوان مقالة، أويجد لأبيه أو أخيه كتابًا ملقى، فيطالعه ويؤثر هذا فيه بطريقة أكبر مما تؤثر في من اقتنى الكتاب أولاً.

أعتقد أن الأمثلة كثيرة ويمكننا أن نستعرض منها الكثير، في مرحلة تالية أسميتها مرحلة التخصص، واتسمت بما أسمية قراءة التخصص، وهي مرحلة الدراسات العليا، هذه تمت في الولايات المتحدة، وكنت أدرس للماجستير ثم للدكتوراة. في هذه المرحلة أيضًا كانت هناك اكتشافات أخرى، وتطور تجاه عوالم جديدة بالنسبة لي. بحكم الدراسة الغربية كان علي أن أقرأ في الفكر الغربي، وأن أقرأ نقدًا، وأن أقرأ نظريات، قرأت في الآداب الأوروبية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية طبعًا، ولكنني في تلك المرحلة بالذات وخاصة في مرحلة الدكتوراة، اكتشفت كاتبين، أو مفكرين مهمين كان لهما أثر كبير على عملي ونتاجي في المراحل التالية، الأول هو: إدوارد سعيد(٢)،

---

(١) شاعر وناقد مصري، ولد عام ١٩٣٥م بمدينة تلا محافظة المنوفية بمصر. أسهم في العديد من المؤتمرات الأدبية في كثير من العواصم العربية، ويعد من رواد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر. ترجمت مختارات من قصائده إلى الفرنسية والإنجليزية والروسية والإسبانية والإيطالية والألمانية. من أبرز دواوينه الشعرية: مدينة بلا قلب؛ أوراس؛ لم يبق إلا الاعتراف؛ مرثية العمر الجميل؛ كائنات مملكة الليل؛ أشجار الاسمنت. من مؤلفاته: محمد وهؤلاء؛ إبراهيم ناجي؛ خليل مطران؛ حديث الثلاثاء؛ الشعر رفيقي.. وغيرها.

(٢) إدوارد سعيد: (١٩٣٥-٢٠٠٣م) أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا، الكاتب والناقد والأكاديمي الفلسطيني الأمريكي المعروف. بالإضافة إلى كونه ناقدًا أدبيًا مرموقًا، فإن اهتماماته السياسية والمعرفية متعددة واسعة تتمحور حول القضية الفلسطينية والدفاع عن شرعية الثقافة والهوّية الفلسطينية، وعن عدالة هذه القضية وحقوق الشعب الفلسطيني. كما تتركز اهتماماته والموضوعات التي يتناولها على العلاقة بين القوة والهيمنة الثقافية الغربية من ناحية، وتشكيل رؤية الناس للعالم وللقضايا من ناحية أخرى. ويوضح إدوارد سعيد هذه المسألة بأمثلة عديدة وبتفاصيل تاريخية في مسألة الصهيونية، وترعرعها في الغرب، ونظرة الغرب إلى العرب والإسلام والمسلمين وثقافات العالم الأخرى. ويشرح إدوارد سعيد كيف أن الإعلام الغربي والخبراء وصنّاع السياسة الغربية والإمبريالية الثقافية الغربية تتضافر كلها لتحقيق مصالح غربية غير عادلة في نهاية المطاف، وذلك عن طريق إيجاد خطاب غربي منحاز ثقافيًا إلى الغرب ومصالحه.

وقد عرفته عام ١٩٧٩م، وكنت أتهيأ لمرحلة الدكتوراة، وكان كتابه "الاستشراق" وهو كتاب معروف، وأحدث ضجيجًا في ساحات الفكر الأوروبي والأمريكي، ذكره لي أحد الأساتذة قال: إن إدوارد سعيد وهو عربي منكم، له كتاب كذا وكذا، فحصلت على الكتاب، وما أن قرأته حتى وجدت أنني أمام ضالتي في التفكير وفي التنظير؛ لأنه ساعدني في بلورة أطروحة الدكتوراه التي كتبتها في السنوات التالية، المفكر الآخر هو مفكر استفاد منه إدوارد سعيد نفسه، وهو المفكر الفرنسي ميشيل فوكو(١)، كان فوكو له تأثير كبير في منهجية القراءة لدي وأفدت من الثقافة الهائلة التي وجدتها في ما اطلعت عليه من أعماله.

إني أستعيد هذه المراحل لأوضح النقلات التي حدثت أثناءها، لكنني أيضًا لا أريد أن أغفل جانبًا آخرًا مهمًا في تلك المرحلة بالذات، وهو أنني وأنا أجد نفسي بين أجانب طلابًا وأساتذة، كنت أنحاز كثيرًا للثقافة العربية، ولو لم أنحز لدفعت إليها دفعاً، لأن السؤال كان يتكرر، ماذا بشأن ثقافتكم؟ ماذا بشأن شعركم؟ ماذا لديكم؟ شخصيًا لم أكن منقطعًا عن الموروث العربي الإسلامي حتى قبل أن أذهب للولايات المتحدة، لكن وجودي في هذه البيئة الغربية والغريبة، كان حافزًا لأن ألتصق أكثر بهذا الموروث، وأذكر أنني في إحدى المواد المقررة طلب منا أن نقدم قراءات نقدية، فاقترحت أن أقدم قراءة لقصيدة البحتري "السينية" فعرفت بها وبما يفعله الشاعر، خاصة أن قصيدة البحتري، قصيدة فيها ذهاب إلى ثقافة الآخر، وهي من القصائد النادرة في الثقافة العربية التي يتجه فيها البدوي العربي إلى ثقافة أخرى وهي ثقافة فارس، ويجول في إيوان كسرى ويثني عليه، وأذكر أن الطلاب والأستاذ طلبوا مني أن أقرأها بالعربية، فقرأتها، وكما تعرفون أن سينية البحتري تضج بالسين فيحدث

---

(١) ميشيل فوكو: (١٩٢٦ - ١٩٨٤) فيلسوف فرنسي، يعد من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه "تاريخ الجنون"، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح "أركيولوجية المعرفة". أرّخ للجنس أيضًا في كتابة "تاريخ الجنسانية".

جلبة جميلة، فأعجبوا بالصوت - وإن لم يفهموا شيئًا - وحاولت أن أترجم بعض النصوص، لكني أضرب بهذا مثالاً على عملية التواصل بين الثقافتين، فظللت مشدودًا إلى الخلفيتين، الخلفية العربية الإسلامية، وهي الأساس طبعًا، والثقافة الغربية التي كانت تنمو وتأخذ مني الكثير، وأعتقد أنه كان يعتمل في داخلي أو تعتمل في داخلي مشكلة الهوية في تلك المرحلة، كنت أجد نفسي أغترب ثقافيًا، كلما توغلت مع فوكو وأمثاله، والشعراء الإنجليز والأمريكان، فأشعر بالغربة، أحاول قدر الإمكان أن أستعيد هذا الماضي، وكانت بالقرب مني في ولاية إنديانا جامعة إنديانا وبها مكتبة ضخمة باللغة العربية وضعت طابق كبير تجد فيه كل الشعر العربي تقريبًا، وكثيراً من الموروث العربي، الشعر العربي الحديث، الفكر والثقافة العربية الإسلامية، فكنت أذهب إليها بين الحين والآخر، لأستعير كتبًا، أو أطالع، أو أنسخ، وهذه أشياء لا علاقة لها بالدراسة، ولكن أعتقد أن الهاجس الثقافي، والقلق المعرفي كان دافعًا لي، لم أرد يومًا من الأيام أن أكون أستاذًا للأدب الإنجليزي فحسب كان هذا مقلقًا بالنسبة لي أن أكون أستاذ أدب إنجليزي ليس أكثر، كان بالنسبة لي من المهم جدًا أن أحتفظ بالهوية العربية، ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا بالاستمرار بمد الجسور مع هذه المكتبات وبالقراءة، ووجدت نفسي تدريجيًا أكتب دراسات مقارنة، أقدمها في مواد مختلفة، مرة أقارن هذا بذاك، هذه القصيدة بتلك، واستقرئ الموضوعات العربية في الآداب الغربية حتى استمر معي هذا إلى اليوم.

هذه المرحلة اتسمت بالتعرف إلى الكثير في علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، وكانت هذه القراءات مطلوبة، إما دراسيًا، لأن المواد الدراسية كانت تقتضي أن نقرأ، أو أنها كانت تتم بشكل شخصي لزيادة المعرفة. المرحلة الحالية أسميتها مرحلة التوسع، هذه المرحلة عندما أتأملها الآن وقد تأملتها كثيرًا، أجد أنها مرحلة مسكونة بهاجس التأليف، والقراءة والزملاء المؤلفون معنا هنا يعرفون ربما ما أشير إليه، أنك عندما يكون لديك شيء من الرصيد في القراءة والمعرفة، لابد أن

تشعر أنك مدين للآخرين، وأنك مطالب بتقديم هذا الرصيد، وأنه ليس لك وحدك، فعليك أن تشرك به الآخرين، وأن تستمع إلى رأيهم فيه، والتأليف هاجس مهم بدأ معي منذ عدت من الولايات المتحدة في أواسط ١٤٠٤هـ أو أواسط الثمانينيات الميلادية، واستمر معي، وبدأت الكتب تظهر منذ ذلك الحين، وكان أولها: "ثقافة الصحراء"، عام ١٤٠٠هـ. القراءة في هذه المرحلة قراءة متخصصة، قراءة تتجه إلى قضايا معينة، ولكنها أيضًا تهدف إلى الخروج بشيء من هذه القراءة، من النادر أن أقرأ للمتعة فقط، أقرأ روايات أو شعرًا أو صحفًا للمتعة، ولكن القراءة الأساسية، القراءة التي أسميها قراءة جادة، هي قراءة مقرونة بهاجس التأليف، بهاجس كتابة بحث، أو كتابة ورقة، أو تأليف كتاب، بحيث إن القراءات في هذه الحالة تتمحور في اتجاه قضية معينة، فتكون القضية هي الدافع إلى التوسع، فلو أخذنا مثلاً كتاب "المكون اليهودي في الحضارة الغربية وهو كتاب صدر العام الماضي(٢٠٠٨م)، هذا كتاب جاء نتيجة سنين من العمل، والتفكير فيه بدأ قديمًا، ولكن العمل الفعلي بدأ قبل صدوره بخمسة أعوام، كل فصل من هذا الكتاب، كان يستدعي قراءات محددة، ولكن تنامي الفصول، لم يكن دائمًا تلقائيًا، فكنت مثلاً أريد أن أكتب شيئًا عن تأثير اليهود في الحضارة الغربية، أهميتهم، دورهم، كنت أعرف فرويد، و كارل ماركس، و غيرهما من المفكرين، لكنني لا أعرف شعراء، أو روائيين، ولأنني أريد أن أقدم صورة متكاملة عن هذه الثقافة، أو هذا المكون، أتجه بالقراءة إلى هذا المجال الإبداعي، فأقرأ في الشعر الذي كتبه يهود، أو أقرأ في الروايات التي كتبها يهود، فتكون القراءة موجهة لهذا الهاجس البحثي التأليفي في النهاية. إن من طبيعة القراءة أنها تقودك إلى أشياء أخرى، أو تثني عزمك عن أشياء كنت قد عزمت عليها، فيها مراوحة مجيء وذهاب، لكن في نهاية الأمر المحصول وهو ناتج عن هذه الرغبة في تكوين معرفة في مجال محدد، لذلك أنا أسميها توسعًا وتركيزًا في الوقت نفسه، فأنت تركز على مجال، وتتوسع منه في الوقت نفسه.

إلى جانب هذا، قرأت قراءات كثيرة بأمل تأليف كتب معينة، ثم لم أؤلفها، ولا تزال لدي أضابيرها انظر إليها بحسرة وألم، لأن الزمن يتقادم، ولم تنتج هذه الكتب، وتحولت إلى ركام من المعرفة، فليست كل محاولة للقراءة بهاجس التأليف ناجحة، بمعنى أنك قد تكون مدفوعًا لهذه القراءة بدافع عملي، مثل ما يفعل طلاب الماجستير والدكتوراه، قراءاتهم موجهة لهذا الجانب أو ذلك، لكن أحيانًا ينبغي الاعتراف أننا لا نصل إلى شيء، وأعتقد أن بعض المؤلفات مصيبتها أن أصحابها يصرون على نشرها أو تأليفها، مع أنه كان ينبغي ألا تؤلف أصلاً.

أخيرًا أود الإشارة إلى تقنيات القراءة، أساليبها وطرقها. لا شك أن هناك طرقًا كثيرة، وكل منا يمكن أن يفيد الآخر في هذا المجال، لكن لابد من التمييز بين أنواع القراءة، لأن كل نوع يستدعي طريقة مختلفة، وكلكم درستم وتعرفون أنه عندما تقرأ للامتحان غير أن تقرأ للتسلية، لأنه عندما تقرأ للامتحان تجد أنك تقف عند كل كلمة وتضع خطوطًا، وتهمش وتلخص، لأنك أمام امتحان، القراءة الجادة هي هذه القراءة، والذين يحققون قراءات جادة معمقة، هم الذين يقرؤون بهذه الطريقة، هم الذين يقرؤون كما لو كانوا ذاهبين إلى الامتحان، وليس للمتعة والتسلية. وفي هذه السياق قرأت قراءات جادة كتحليل الكتاب تلخيصًا وتهميشًا وخطوطًا وإحالات. أن هناك وقراءات عابرة. أحيانًا الكتاب نفسه يستدعي هذا أو ذاك، وأحيانًا اهتمامك أنت يستدعي هذا، وأحيانًا الدوافع التي تدفعك للقراءة أيضًا تضطرك إلى هذا. القراءة كما أعرفها، القراءة الجادة تحتاج إلى هوامش وإلى تلخيص؛ ولذلك تأخذ وقتًا طويلاً، وأنا من المؤمنين أن القراءة الجادة هي قراءة بطيئة، قراءة متأنية. هناك القراءة السريعة لمن يجيد تقنياتها وهي معروفة ولكنني لم أتعلمها. قراءتي عندما تكون جادة قراءة بطيئة، تأخذ مني وقتًا طويلاً، ولكنني أعزي نفسي بالمحصول، فالمحصول يكون جيدًا وفي الغالب أحتفظ به، الكتاب لا يصبح ذاكرة منسية، يصبح ذاكرة محفوظة، عندما تأخذ الكتاب تجد أفكارك موجودة على الهامش، تجد أفكار

المؤلف ملخصة، فلا تحتاج أن تتذكر ماذا قال؟ هذا النوع من القراءة هو الذي استفدت منه، وكثيراً ما غلبني الكسل فلم أفعله، مع الأسف. أحيانًا يكون الإنسان لديه همة وجد ونشاط ويفعل هذا، يقرأ كما لو كان ذاهبًا للامتحان، وأحيانًا أو في الغالب لا يحصل هذا.

وهناك العلاقة بين القراءة المتنوعة والخط الرئيس للقارئ. أعتقد أن معظمنا لديه خط رئيس، قد يكون في علم النفس، أو علم الاجتماع، أو في العلوم الإسلامية، أو في أي مجال، لكن قراءته تتفرع، كما يفترض من هذا الخط الرئيس أن تنقده حينًا وترفضه حينًا، وتضيف إليه حينًا، ولكن هذا يشكل بنية ثقافية لدى كثير من الناس، أنا لست من المؤمنين بالقراءة في كل شيء. لا أعتقد أن هذه الطريقة مفيدة، أو منجزة، بل إنها توجد شتاتًا معرفيًا، ليس له رابط، وليس له قيمة، ولا يؤدي إلى نتيجة، قد يكون هناك شيء من المعلومات التي نذكرها في المجالس لكنها لا تبني عمقاً معرفياً.

أردت أن أشرككم معي في جملة مراحل وقضايا وأحداث، الهدف الأساس هو أن تكون هذه التجربة محل نقاش، وربما نكتشف فيها نقاط ضعف ونقاط قوة، لكن أيضًا، وأعتقد أن هذا هدف مكتبة الملك عبدالعزيز العامة عندما تطرح هذا المشروع، الهدف هو أننا من خلال مثل هذه التجارب، نلقي ضوءًا داخليًا على المشروعات الثقافية كيف تمت، والأشخاص أنفسهم كيف يتطورون؟ ولذلك أعتقد أنني أول المستفيدين، بل ربما المستفيد الوحيد من هذا الحديث، لأنني عشت معه أيامًا، اضطررت أثناءها إلى أن أستعيد بعض ما نسيت، أتأمل في بعض تلك اللحظات المهمة في حياتي الشخصية، وتفاؤلي مع الكتاب في المراحل المختلفة، أعرف أن هناك أسئلة تقليدية في هذا المجال مثل: ما هو الكتاب الذي أثر فيك؟ ويمكننا الحديث حول مثل هذه الأمور، ولكن أعتقد أن هذا ليس الأهم. إنما المهم هو جملة هذه المؤثرات، فباستثناء "القرآن الكريم"، من الصعب أن أقدم كتابًا واحدًا، وأقول عنه الأكبر تأثيرًا، ولكن كانت هناك كتب تأسيسية، ومفصلية، بالتأكيد، ذكرت بعضها أثناء الحديث، وربما يتسع المجال للتحدث عن بعضها الآخر.

أعتقد أن المؤثرات الحديثة مثل الإنترنت، هي دائمًا مثل الكتب، أسلحة ذات حدين، وكنت أود أن أقول في هذا السياق عن الكتب: إن علاقتنا مع الكتب، هي علاقة مثالية في الغالب، فبعض الكتب لا تساوي الورق الذي كتبت عليه، ليس كل الكتب جديرة بالقراءة، وهناك كتب ليست فقط جديرة، وإنما ضارة، الكتب ليست دائمًا الصديق المثالي، كما يقول المتنبي، خير جليس في الزمان كتاب، المهم ما هو الكتاب؟ قد لا يكون خير جليس، هذا شيء نكتشفه مع الزمن حيث تضيع وقتك في قراءة شيء، أو تكتشف شيئًا لا ينبغي أن تكتشفه به ويصدق على الإنترنت الشيء نفسه، فهي مملوءة بالمعرفة، ولكن المعرفة بقدر ما تكون مفيدة، وقد تكون مضللة، فأنا أعتقد أن المعيار في هذه الحالة هو التوجيه، وترسيخ القيم التي توجه القارئ، سواء كان طفلاً أو أكبر من ذلك.

أعتقد أن القراءة تصبح ممتعة عندما تكون قريبة منا، عندما نقرأ في شيء نحبه أصلاً، فتصبح مفيدة وممتعة في آن واحد، لكن لابد من أن نوطّن أنفسنا على أن هناك قراءات ليست ممتعة ولكنها ضرورية، حتى في المراحل المتقدمة من أعمارنا، لو استسلمنا للمتعة لما استفدنا كثيرًا، ومع ذلك فإن الإنسان يصعب عليه أن يكون جاداً دائمًا، والتوفيق بينهما تحد تصعب مواجهته.

علاقتي بالمكتبة إذن، كما ذكرت هي علاقة حميمة ومنذ الطفولة، ولا تزال مستمرة حتى اليوم، ما تعلمته من تلك العلاقة شيئان: أن هناك كتبًا تأسيسية يجب أن تكون في كل مكتبة، وأننا نشتري بعض الكتب لا لنقرأها مباشرة، فليس من الضروري أن نشتري الكتاب لنقرأه، بعض الكتب نحتاجها ونقتنيها؛ لأننا نتوقع أننا سنعود إليها. الكم لا ينبغي أن يطغى على الكيف، القضية ليست بناء رفوف طويلة، خمسة عشر ألف كتاب، أو عشرون ألف كتاب، أعتقد أن بعض الكتب مكانها المكتبات العامة، ومكتبة الجامعة، وليس في المنزل بالضرورة؛ فلذلك تعلمت ولكن متأخرًا أن هناك كتبًا أريد التخلّص منها؛ لأنني أواجه مشكلة كبيرة في هذا السياق،

معظم الكتب التي تمتلئ بها مكتبي تأتي إهداءات، ومما هو حصاد المحاضرات والزيارات، ولكن ينبغي التركيز على الكيف بدلاً من الكم.

أعتقد أن هناك مساحة هائلة من النقص في الثقافة العربية المعاصرة وهذا هو الهاجس الذي يدفع بكثير منا للتأليف بالعربية، أوالكتابة للثقافة العربية. أنه شعورنا بأننا مدينون لهذه الثقافة قبل أي ثقافة أخرى، وكأن هذه الثقافة بحالة نمو وتطور، مع أننا نأتي بما تعلّمناه في الغرب لنضخه في هذه الثقافة، في محاولة لدعمها بأي شكل من الأشكال.

من ذكرياتي المبكرة عن القراءة أذكر في المرحلة المتوسطة كان مقرراً علينا رواية عنوانها (بلال) لعبدالحميد جودة السحار⁽¹⁾، وأذكر أنني كنت أقرأ وأعجب المدرس بقراءتي، فطلب إليَّ أن أقرأ في كل مرة، وكنت بالطبع مزهواً بذلك، مزهواً إلى حد لا يصدق، حتى إنني حفظت الأسطر الأول من بدايات هذه الرواية، لكنني أعتقد أن هذه الحالة عمقت العلاقة بالكتاب، فأصبح محبوبًا بالنسبة لي، فلم يكن مجرد موضوع ندرسه للامتحان آخر العام، وإنما هو شيء حبيب وحميم يأتي منه الإعجاب والتقدير، بالنسبة للقراءة الحديثة، معظم الشبان والشابات يقرؤون من خلال الإنترنت، كما ذكرت قبل قليل. هناك من يقرأ كتبًا من خلال الإنترنت، وكتبًا جادة ومهمة، وهناك من يقرأ أشياء إن لم تضر لا تنفع، والإنترنت مليئة بأشياء أعتقد أنها أمشاج، خليط، أعطيكم مثالاً: الموسوعة الإنترنتية "وكيبيديا" وهي الموسوعة الوحيدة المتاحة في الإنترنت والتي يمكن لأي شخص أن يسهم فيها، أو يحررها، فيضيف إليها، شيء مدهش، الطلاب يذهبون إليها للحصول على المعلومات،

---

(١) عبد الحميد جودة السحار: (١٩١٣-١٩٧٤م)، أديب وروائي وكاتب قصة وسيناريست مصري من مواليد القاهرة. بدأ سيرته الأدبية مثل غالبية أبناء جيله بكتابة القصة القصيرة من خلال مجلتين بارزتين، هما: "الرسالة"؛ و"الثقافة". ثم اتجه بعد ذلك إلى كتابة القصص التاريخية فكتب قصته الأولى "أحمس بطل الاستقلال ثم كتب روايته التاريخية الثانية "أميرة قرطبة". اتجه إلى كتابة الإسلاميات فكتب أبو ذر الغفاري - بلال مؤذن الرسول - سعد بن أبي وقاص - أبناء أبو بكر - محمد رسول الله والذين معه الذي صدر في ٢٠ جزءا وعرض في التليفزيون تحت اسم (لا إله إلا الله) ونال من خلاله شهرة واسعة.

وأقول لهم، لا تأتوني بمعلومات من وكيبيديا لأنها ليست موثوقة مئة بالمئة، المشكلة أن ما يوجد على الإنترنت ليس له مرجعية مثل مرجعية الكتاب، لا نعرف المؤلف، لا نعرف الناشر من هو. معلومات منثورة في الهواء، بعضها خطأ وبعضها صواب، لا ينبغي أن تؤخذ على علاتها، فهذه هي مشكلة المصادر الحديثة، لذلك ما نحتاج إلى التأكد منه بالنسبة لأنفسنا، هو المبادئ الأساسية، مبادئ القراءة، ما الذي نحتاجه، هل نكون نقاداً لما نقرأ، أم نكون متلقين فقط.

أرجو أن تكونوا استمتعتم بعض الاستمتاع، وأشك أنكم استفدتم، لكن ربما هناك متعة!

قوانين البناء المعرفي(١)

د. خالص مجيب جلبي

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والآمرين بالقسط من الناس، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد، هذه المحاضرة بالدرجة الأولى مكرَّسة إلى روح داعية السلام (ليلى سعيد)(٢) التي اختارها الرب، فودعتنا من دنيا الكدح والحزن، إلى دنيا الرحمن الرحيم، فإلى روحها السلامية، أقدم بيد خاشعة كلماتي هذه، عسى أن تمنح روحها السلام الأبدي، والسعادة السرمدية، ونجتمع بها في دار السلام، فطوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أولياء الرحمن يدعون.

في أول سورة نزلت من القرآن الكريم، وأول كلمة كانت كلمة "اقرأ"، وفي هذه السورة تم تفكيك أهم مشكلات الإنسان التي بموجبها يتغير تحت كلمة اقرأ، وبموجبها ينال الكرامة ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾(٣) ومن خلال القراءة والقلم، والكرامة، يتخلَّص من أفظع مرض اجتماعي، الذي هو الطغيان، ذلك في الآية الأخيرة، ﴿**كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب**﴾(٤)، ففلسفة القرآن تقوم على التغيير الاجتماعي، ليس بقتل الطاغية، وإنما بعدم طاعته!

أمام فلسفة الكلمة، فكَّرت كثيرًا، ولحظت أن القرآن الكريم في مستهل السور وضع حروفًا، فما معنى هذه الحروف: (ألم)، (كهيعص)، (طسم)، هذه الحروف

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول ١٤٣٠هـ الموافق ٢٤ مارس ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

(٢) زوجته ورفيقة درب فكره، التي توفيت، رحمها الله في (سبتمبر ٢٠٠٥م).

(٣) سورة العلق: ٢ - ٤.

(٤) سورة العلق: ١٩.

هي ترميز للكتابة، ومن الناحية الانفرقراطية، الإنسان لم يتغير إلا بالذاكرة الجديدة التي هي الكتابة، ولذلك فإن أدن توفلر(١)، عندما كتب كتابه عن الثورات، تحدث أولاً عن الثورة الزراعية، ثم الثورة الصناعية، ثم بعد ذلك أضاف ثورة جديدة هي ثورة المعرفة، أو ثورة الكلمة، والكلمة هي التي تغير الإنسان.

من ذلك أيضًا، الله سبحانه وتعالى، في سورة البقرة، حينما أراد أن يفتتح عالم الوجود، ابتدأ: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا** ﴾(٢)، فاللغة الإنسانية، هي ذلك البرنامج المفتوح الذي يستطيع به الإنسان أن يرمز الأشياء، ومن ثم فإن الإنسان بوساطة اللغة أصبح خلقًا آخر، حتى أن ابن خلدون(٣) حينما أراد أن يعرف ضرورة المجتمع للإنسان، قال: إن المجتمع ضروري لأمرين: الغذاء والمدافعة، والحقيقة الإنثروبولوجية الجديدة تقول: إن الإنسان لا يصبح إنسانًا ما لم يدمج في المجتمع أو يعيش في المجتمع، ولا يصبح إنسانًا إلا بوساطة اللغة، اللغة هي كرامة الإنسان.

قلت في مستهل مدخلي لتجربتي مع الكتاب، وعندما نتحدث عن الكتاب، لابد من المرور على فلسفة الكلمة، فمن الصعوبة أن أعطيكم تجربتي، فهي تجربة تحد نصف قرن من المطالعات في مدى ثلاثين دقيقة، أو خمس وثلاثين دقيقة، فمع ذلكٍ سوف أضع أيديكم على بعض الأسرار، لعلي أنقل رسالة إلى الإخوة الحاضرين؛ لأنني لست في مجال أن أستعرض لكم كم من الكتب قرأت؛ لأنني وجدت أن الكمية كبيرة،

---

(١) كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال دراسات المستقبل (Futurology) تمت ترجمة كتبه إلى عدة لغات عالمية. وقام بتدريس رؤساء دول. مثل: ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي الأخير والرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين عبدالكلام ورئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد. من مؤلفاته: صدمة المستقبل؛ والموجة الثالثة؛ وتحول السلطة الحرب ضد الحرب.

(٢) سورة البقرة: ٣١.

(٣) هو ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، كنيته أبو زيد، وهو عالم عربي شهير وواضع علم الاجتماع الحديث سابقاً بذلك علماء الغرب، تمكن من تقديم عدد من النظريات الجديدة في كل من علمي الاجتماع والتاريخ، كان يهوى الإطلاع على الكتب والمجلدات التي تركها العلماء السابقين وذلك لكي تتكون عنده خلفية علمية يستطيع أن يستند عليها في أفكاره هذا بالإضافة لتمتعه بالطموح العالي والثقافة الواسعة. ولد ابن خلدون في تونس عام ١٣٣٢م، لأسرة من أصول يمنية وكان لأسرته الكثير من النفوذ في إشبيلية ببلاد الأندلس، وقد هاجرت الأسرة مع بداية سقوط الأندلس في يد الأسبان إلى تونس وعاش ابن خلدون معظم حياته متنقلاً بين بلاد شمال أفريقيا، هذا بالإضافة لزياراته لأرض الحجاز.

وأمامي في الغرفة وأنا أعمل في التحضير لهذه المحاضرة أكداس وأكداس، فحاولت أن أقتطف من الكتب التي بين يدي، فأريد في هذه المحاضرة أن أركِّز على شيء واحد، وهو أن أنقل الروح هذه، أي أهمية القراءة والطرائق لبناء المعرفة الإنسانية.

في الوقت الراهن، العالم مقسوم قسمين: قسم من يعلم، وقسم من لا يعلم، الذين يعلمون هم الذين يملكون العالم، والذين لا يعلمون هم من المسخَّرات، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾(١).

هذا القدح الذي بين يدي، وبين يدي كل إنسان، وهو ما قاله كوبلنس في كتابه "لعبة الأمم"(٢)، فيمكن أن يلعب بالأمم أيضًا، الآن قد حاولت أن أدخل للبحث في مسك الباقات المعرفية أولاً، فأنا أعمل بطريقة قد تعجبون منها، لكن أحيانًا عندما يأتيني وحي الأفكار والكلمات، أركض وراء أي ورقة من الأوراق، فلا أرتب الأوراق والأقلام، فهذا كما ترون مغلف مهمل بين يدي، فكما ترون في الخريطة تجديد التفكير الديني، علم الاجتماع، باقات المدارس، بيولوجيا، أنثروبولوجيا، ميكانيكا الكم، السياسة والحكم، أخلاق التصوف، كزمولوجيا، فلسفة العلوم، الطبيعة والبيئة، علم الأدب، فلسفة التاريخ، اللسانيات، الروايات، حاولت أحصي، لكن هناك كم هائل جدًا.

إذا أردنا أن نعلِّم أطفالنا كيف يقرؤون؟ ولكي نسهم في خلق جيل قارئ، خصوصًا في مدارس الأطفال، يجب أن نعطي الأطفال قصصًا مصورة، يجب أن

---

(١) سورة لقمان: ٢٠ .

(٢) كتاب يحوي أسراراً وأزمان سياسية بقيت في طي النسيان، عن شعب يعيش في غمرة الأوهام وآفاق الخيال، يستمع إلى الأصوات دونما تعليق. من خلال كتاب "لعبة الأيام" لمايلز كوبلاند، الذي نفذ إلى الواقع وكشف النقاب عن كثير من الأسرار وخفايا الأمور والتستر بدبلوماسية ما وراء الكواليس فأظهر سلوك حكام ورجالات السياسة بصفته وسيطاً طارئاً. يعدّ هذا الكتاب نموذجاً حياً، للتاريخ يهدف إلى إزاحة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الإمكانيات التي نجحت أحياناً في إحراز نصر دبلوماسي على بعض الدول الكبرى وتمكنت مع الأيام في ممارسة دور أكبر من طاقتها في السياسة العالمية. فالقوى الحاكمة تطمح دائماً إلى النزاهة والاستقامة وإضمار الغدر والخداع وفيه التلاعب بالأمم والشعوب، هذا هو جوهر "لعبة الأمم"، وهو كتاب لا يهدف إلى رصّ الجمل والألقاظ ولكن هدفه الأساسي رفع النقاب عن لعبة السياسة وعن دمى المسرح السياسي في العالم!

تهتم الأم بالطفل، وتكون دائمًا خلفه وتعلمه بكافة الطرق الممكنة وتعطيه كتبًا بسيطة، أنا بهذه المناسبة في معرض الكتاب وجدت مشترين لكتب الأطفال، وجدت محلاً خاصًا للأطفال لتعليمهم الكلمات والقصص، وهناك عدة طرق لتعليم الأطفال، بأن يأخذ الطفل كلمة كلمة، ويبنى معرفيًا، وعن طريق القصص يمكن ذلك، وقد حدث معي ذلك، فكنت أقرأ قصصًا كثيرة، وكنت أنجر في قراءة كمية كبيرة، فالقصص تجعل الطفل ينجر لها ويعيش معها.

فيجب أن نعلِّم الشباب الصغار قراءة القصص، وكما ترون روايات ماجلان، آخر الراحلين، ساعات قدر، تاريخ البشرية، ابن بطوطة، كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة .... إلخ، وسأوضح لكم كيف تلتقط الأفكار، قبل أن نأتي إلى قوانين البناء المعرفي، كما ترون على ظهر الكتاب، أنا آخذ أفكارًا وأضع أفكارًا، كما أن هذه الأفكار آخذها وأوسعها، ومن ثم فقوانين البناء المعرفي ستكون من بدايات بذور صغيرة، فكما ترون هناك ست أفكار ثم توسعت حتى وصلت إلى ٣٦ قانونًا معرفيًا، وقبل أن أصل إلى هنا تولّد معي ثلاثة قوانين معرفية، نحن في الوقت الراهن العالم كأنه في زلزال، زلزال علمي، استطعت أنا، لا أقول أحصيها، ولكن أمر على بعضها مرورًا، ترون أنه مثلاً: الفيزياء الذرية، أمكن تركيب مضاد المادة Antimaterial في الكوزمولوجيا (Cosmology) الآن صارت قدرة البشر واسعة، فالآن لا يرون النجوم فقط بل يرون الكواكب. آخر ما وصلوا إليه أنهم اكتشفوا كوكبًا يبعد عنّا ٢٠ مليون سنة ضوئية، في البيولوجيا سمعتم عن الزلزال الذي حدث في مجال الاستنساخ البشري؛ فالاستنساخ البشري قد تطور الآن وأصبح يمكن مزج تقنيتين: تقنية الهندسة الجينية مع الخلايا الجذعية.

في الأنثروبولوجيا مثلاً استطاع دونالد جونسون(١) أن يكتشف هيكل لوسي، وقد تطور الموضوع بشكل كبير حتى وصل قبل سنوات عدة إلى أن ضربوا الزمن في الرقم

---

(١) دونالد جوهانسون كارل (ولد في شيكاغو إلينوي عام ١٩٤٣)، اكتشف بمشاركة موريس الطيب، وإيفكوبنز المعروف لهيكل عظمي لأنثى إنسان المعروف باسم "لوسي"، في مثلث عفار منطقة الهدار بأثيوبيا.

القياسي إلى نحو ٥ - ٧ مليون سنة. في الطب أحدث المعلومات الآن أن هناك إمكانية لأن يبدؤوا - لا يتوقعون فقط كما في مسألة زرع الخلايا الجذعية في أمراض السكر وغيرها فقط- يتوقعون إمكانية إنتاج أعضاء بشرية، الآن هناك إمكانية لمعالجة القلب من خلال معالجة الأماكن الميتة فيه بزرع خلايا جذعية فيه، بحيث يستعيد القلب عمله بكفاية مرة أخرى، ولكن الآن ليس ذلك فقط بل إنهم يحلمون أن يسيروا في اتجاه إنتاج أعضاء!

أيضًا في جراحة العظام كسر (إليزاروف)(١) جميع المسلَّمات، فقد كان سابقًا يسمونهم المجبرون، إليزاروف ليس مجبراً بل يكسر العظام ويعمل تقنية جديدة. من يحب أن يعرف تفصيلات أكثر عن هذه الموضوعات بالإمكان أن أعطيه مقالات موسعة في هذا الجانب؛ فأنا أمر على الموضوعات سريعًا.

في الكيمياء، كما تعرفون المشكلة منذ عهد حامورابي جاء العينيائي وكسر الطب بموضوع منع الحمل، في علم الخلية الآن هناك تطور هائل؛ فقد كشفوا شيئًا اسمه (تلمريز) يطيلون به عمر الإنسان، وليس معنى هذا أنهم سيقتلون الموت! لا، بل هناك إمكانية أن يطيلوا عمر الإنسان.

في أبحاث الأعصاب مثلاً في جامعة لنت هناك طبيب يحاول معالجة مشكلة باركنسون بزرع الخلايا من القواعد السوداء، قواعد أدمغة الأجنة.

في أبحاث الجينات، الآن وصل الموضوع ليس فقط إلى فك الجين البشري، بل فك جينات القرود، وفك جينات الخلايا، والآن يريدون وضع جينومات كل الكائنات على وجه الأرض، وهذا عمل جبار.

وبعد ذلك في أبحاث التاريخ وفي هذه الأشياء الأمر ليس سهلاً، الآن الكنيسة وقفت وعملت ما يشبه البرسترويكا، ودخلوا على الملفات، واكتشفوا (٤٥٠٠)

---

(١) غافرييل أبراموفيتش إليزاروف: (١٩٢١ - ١٩٩٢م)، جراح عظام سوفييتي ولد إليزاروف في مدينة بيلوفيجا، الكائنة في روسيا البيضاء لعائلة يهودية ترجع أصولها إلى داغستان، وعقب مولده انتقلت أسرته إلى كوسار في أذربيجان حيث نشأ. عرف باختراعه جهاز إليزاروف الذي يستخدم في عمليات إطالة العظام وعلاج الكسور. حصل على لقب بطل العمل الاشتراكي (١٩٨١م)، وجائزة لينين (١٩٧٩م)، وعضوية الأكاديمية الروسية للعلوم (١٩٩١م).

ملف سري من أيام محاكم التفتيش، وراجعوها، وأعطوا rehabilitation، أعادوا الاعتبار إلى جاليليو، أما برونوا الذي حرقوه حتى الآن لم يعطوه إعادة الاعتبار.

في حفريات الجينات، هناك إمكانية الآن أن يستخرجوا جينات مثل فيلم جوراسيك بارك، وهناك إمكانية أن يستخرجوا جماجم كما فعلوا مع عائلة آل رومانوف الروس، فقد قاموا بإعادة تركيب جماجمهم وأشكالهم كما كانت.

أما جاك أتالي فقد ألّف كتابًا رائعًا جدًا، سأحاول أن أعرضه ضمن بعض الكتب، عن أخطار المستقبل، وأهم ما جاء في كتابه، هو انكسار الهوة بين الغنى والفقر بين الشعوب، ويمكن أن كارثة الرهن العقاري كانت ضمن هذا الموضوع.

الآن نأخذ فكرة عن العالم ما الذي يحدث فيه، لذلك فالثورة المعرفية هي الاطلاع، والاطلاع مشكلته الآن أنه هناك قفزة عجيبة به مثل ما سوف أعرض بسرعة لقوانين البناء المعرفي هي ليست الآن شح المعلومات، فلدينا طوفان معلومات، فبسرعة يجب الإنسان أن يتعلم أمرين: يتعلم كمبيوتر، هذا لأجيال المستقبل، يتعلم الدخول على المعلومات. ويتعلم فرز المعلومات، يجب أن يدخل بسرعة ويأخذ المعلومات الجيدة بسرعة، لذا يجب أن يكون لديه خبرة في تمييز المعلومات، هل هي معلومة جيدة أو غير جيدة؟ ويحفظ تلك المعلومة، ومن ثم يصبح لديه خبرة.

وسوف نعرض بسرعة قوانين البناء المعرفي، وقد استطعت أن أصل إلى نحو ٣٦ قانونًا، وهذه القوانين المعروضة عليكم تستطيعون أن تعدلوها بأنفسكم، نحن هنا فيما يسمى workshop فأنا لم آت لكي أحاضر لتلاميذ، فأنا أحاضر لأناس mature ناضجين بشكل كاف، وعندكم من الشخصية والعلم والتفوق، وهناك إمكانية أيضًا لكي أستفيد منكم أيضًا، ويمكن أن نوسع هذه المعلومات بشكل مفصل، ويمكن أن تكون مشروع كتاب للتعميم المعرفي والتنوير، ولكي نحترم الوقت وقبل أن أعطيكم نماذج للكتب، فنبدأ بالشكل الآتي:

القانون الأول (١)

الكتاب الجيد يقرأ العديد من المرات

كنت في الطائرة إلى كندا حين وقع تحت يدي كتاب صغير حرفه سيىء تجليده نحيف قده بعنوان تقليدي غير مثير، ولكنه كان درة من درر محيط المعرفة! كان كتاب العبودية المختارة؟ أما المؤلف فغامض غير معروف؟ قلبت الكتاب قلت ربما يشبه كتاب العبودية لابن تيمية، ولكنه كان كتاباً ضئيل الحجم جليل الفائدة، وهكذا شأن ذخائر الفكر.

قلبت الكتاب بسرعة لمعرفة تاريخ التأليف ومن هو هذا الكاتب الفرنسي ذو الاسم الغريب؟ جان لا بواسييه؟ فدهشت حين علمت أنه ألف كتابه عام ١٥٦٢م، وكان شاباً صغيراً، وكذلك ملامح العبقريات حين تتدفق.

الخلاصة قلبت الكتاب في الطائرة، والطريق إلى كندا الباردة بعيد موحش يحتاج يوماً كاملاً حتى يصل المرء، فهذا هو القدر الذي رسمته لنفسي وأحفادي من بعدي أن يصبحوا كنديين، بعد أن ودعنا بلاداً عزيزة علينا بعد أن ضاع الأمن وغابت الطمأنينة.

حين قلبت النظر في الكتاب قلت لا يجب أن يقرأ بهدوء؟ وهكذا عطفت على الكتاب طيلة الرحلة ثم أياماً في كندا في مونتريال حيث بناتي.

كان كتاباً رائعاً يدخل فيه الإنسان بنفس ويخرج بغير الروح التي دخل بها، فقد غير عقله الكتاب؟ أذكر الشعور نفسه حين قرأت كتاب آفاق المستقبل لجاك أتاليه، وكتاب مسألة الآخر واكتشاف أمريكا، أو قصة آخر الرحلين، أو كتاب علم النفس لعبد الستار إبراهيم، أو كتاب اليابان تقول لا . .

وهكذا ليس كل كتاب جيداً، وهناك من الكتب من تقرأ مرة واحدة وأحياناً يندم المرء من تضييع الوقت فيخلصه دون إنهاء، وهناك من الكتب من يخضع لقانون تكرار وإعادة قراءة الكتاب الجيد عشرات المرات، وهو ما حصل معي في قراءة كتاب

تجديد التفكير الديني لمحمد إقبال؛ فقد قرأته اثنتي عشرة مرة، أو كتاب العلم في منظوره الجديد أكثر من عشر مرات، أو مختصر دراسة التاريخ لتوينبي عدة مرات، أو عندما تغير العالم أربع مرات، وهو شعوري مع كثير من ذخائر الفكر الإنساني وأنصح بهذه القاعدة قرائي.

لقد وطنت نفسي مع هذه المقالة أن أضع قوانين البناء المعرفي مثل رقعة الشطرنج بثماني وأربعين خانة، بحيث أتناول مع كل خانة فكرة مهمة عن البناء المعرفي؛ فالكتاب الجيد يقرأ عشرات المرات، حتى يهضم ويصبح في تركيبة المنظومة المعرفية

وكتاب العبودية المختارة ليس الكتاب الوحيد، ذلك الذي يجب أن يقرأ عشرات المرات مثل عملية هضم الطعام، حتى يتم تمثله على الطريقة التالية، بحيث يصبح في النهاية من ضمن تركيب المنظومة المعرفية عند القارئ.

ولشرح ذلك أقول نحن نأكل الطعام من أصناف شتى ولكن لا يخطر في بالنا ماذا يحدث للطعام سوى أننا نستمتع به!

إلا أنني باعتباري طبيباً درسنا في علم الفسيولوجيا مصير الطعام الذي نتناوله، وعرفت أن لقمة الخبز مثلا تتكسر بعد التقطيع بالأسنان والذوبان بحمض المعدة إلى الوحدات الأولية، وهي السكاكر السداسية التي تساهم في مدنا بالطاقة.

كذلك الحال مع البروتينات فقطعة اللحم تتحول في النهاية إلى وحداتها الأولية من الأحماض الأمينية.

تماماً مثل حروف علامات السيارات، فيمكن من الحروف الأولى كتابة كلمات ذات معنى!

المثل على ذلك لو وقفت أمامنا سيارة وعليها نمرة بثلاث حروف (ع-ر-ب ٨٨١)؟ لندع الرقم ونذهب للحروف فيمكن استخراج ستة معان إذا لم يكن أكثر؟ تأمل معي عمليات تحول الكلمة؟ عرب-عبر (وهي بثلاث معانيٍ على الأقل حسب

حركة الحرف والشدة، فيخرج منها التعبير والتجاوز وبكسر العين عبر الأيام والتاريخ!) ثم رعب - ربع - برع - بعر.

الشيء نفسه يحدث للأحماض الأمينية التي تتكسر إلى الأحرف الأولى، ثم يبني الجسم منها تراكيب خاصة به من الهورمونات والمواد البروتينية في بناء العضلات والجسم.

وهذا نفسه يحدث في تناول وجبة فكرية دسمة وعمل العقل عليها كي تصبح من تركيب الدماغ في النهاية، في منظومة الفكر، فتتخمر مع غيرها وتتفاعل مع من سواها لتصبح شبكة معقدة من حكم الزمان وضفيرة رائعة من العبقرية المتدفقة.

القانون الثاني (٢)

قانون تقليم الأفكار وتقليم الأشجار

حسب آينشتاين فإن كشف الحقيقة مرة واحدة غير كاف، فالحقيقة تشبه تمثال الرخام المنصوب في صحراء تعصف بها رمال لا ترحم، والأيادي النشيطة التي تنفض عنه الغبار دوماً هي التي تحتفظ بلمعانه تحت أشعة الشمس ونور القمر؟

والأفكار تشبه الأشجار نمواً وذبولاً، حياةً وموتاً، وكما تقلم الأغصان ويقص الشعر فتزداد نمواً، كذلك تنمو الأفكار فتصبح شجرة باسقة طلعها هضيم، ويكتب لها الازدهار والقوة من خلال الصقل مرة بعد مرة؟

وعليه فيجب دوماً تطوير الأفكار، وتعهدها أبد الدهر، مثل النباتات وتنميتها بسماد ونور وماء، وإعادة النظر فيها تنقيحاً وتصحيحا وتكبيراً وتفخيماً، وتمريرها في كل مرة بفلترة العقل النقدي؛ فالعلم ينمو بآليتي الحذف والإضافة وكذلك الأفكار.

في مدينة مراكش وقف الأخ المجذوبي وهو يلوح بيده بكتابي القديم (في النقد الذاتي) ثم قال: لم يصدر لك كتاب بعده؟

والرجل عذرته لعدم متابعته ما أكتب، ولكن أجبته باختصار: إن ديكارت يقول عن نفسه، أنه بعد أن كتب كتابه في المقال على المنهج، قضى بقية حياته في تطبيق هذا المنهج، فأنا أحاول ترسيم وتوسيع هذا الطريق السريع الذي فتحته للنقد الذاتي، فلا يكفي مخطط الطريق، بل لابد من بنائه فتمشي عليه السيارات والحافلات!

نحن نعلم أن الشجرة كائن حي، وكذلك الأفكار فهي كائنات حية، وأهم ميزة على الإطلاق في التمييز بين الحي والميت هي التكاثر، وكذلك الأفكار فهي تنمو وتتكاثر.

والله وصف الكلمة الطيبة بأنها تشبه الشجرة الطيبة تنتج ثمراتها كل حين بإذن ربها، كما وصف الرب الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة.

وهذا يعني أن الكلمة الطيبة تتكاثر وتكبر، فتصبح شجرة تأوي إليها الطيور، وتعطي ثمراتها في كل حين بإذن ربها.

كذلك فإن الكلمة الخبيثة تتكاثر وتصبح شجرة كبيرة تغري وتغوي وتضل وتشقي، بأن الشر والخير صنوان متشابهان في القوة والإثمار، ولكن مصير الشجرتين مختلف؛ فالكلمة الطيبة تدوم، والكلمة الخبيثة تجتث من فوق الأرض مالها من قرار.

وهذا يفسر ظهور كثير من الأفكار الشريرة وانتشارها، مثل الأمراض المدمرة والأوبئة القاتلة. هكذا ظهرت الفاشية المجرمة، والنازية العنصرية، والبعثية العبثية، والعجل الناصري الذي كان له خوار مثل خوار عجل السامري؟

وقديماً كان ينتشر الطاعون فيحصد نصف أهل المدن ثم ينصرف؛ فلا يعلم أحد من أين جاء ولا كيف ذهب؟

وأمراض الأفكار هكذا مثلما حصل مع فكر الخوارج، الذي يحصد من حين لآخر مثل طواعين العصور الوسطى.

والأمراض تنتشر بوحدات خاصة. وكذلك الأمراض الاجتماعية.

و(الوحدات الإمراضية) في الجسم هي الجراثيم والفيروسات، والوحدات الإمراضية في الأمراض الاجتماعية هي (الأفكار).

ومثلاً فمرض الكوليرا خلفه ضمات الهيضة، ومرض السل عصيات السل. ومرض العنف خلفه جراثيم (الكراهية والتعصب). وكما كان لأمراض البدن تظاهرات من أعراض وعلامات وسير ووحدات إمراضية ووسائل تشخيصية وعلاج، كذلك الحال في الأمراض الاجتماعية، ولكن بكل أسف لم يتطور (الطب الاجتماعي) بقدر تطور الطب العضوي البدني.

والكائن الحي يتصف بالتكاثر، والصخرة جماد لا يتكاثر. والفيروس هو حلقة الوصل وجسر العبور بين الحياة والموت؛ فهو يتبلور مثل الملح، وهو يتكاثر مثل الخلايا، ولكن حتى يتكاثر لا بد له من خلية يتسرب إليها، وهذا هو وجه الخطر في انتشار الفيروس، أي اعتماده على الخلايا الحية التي تعيد إنتاجه.

وأخطر الفيروسات هي العكوسة القلوبة ما يعرف بالرتيروفيروس، مثل فيروس الإيدز، فهذا الفيروس يتسلل إلى الكود الوراثي في نواة الخلية؛ فيصبح قطعة منها، وتعيد الخلية إنتاجه وكأنها تعيد إنتاج نفسها، وهي تنتج في الواقع وسائل دمارها وسلاح خرابها، كما هو الحال في الأنظمة الشمولية التي يتسرب إلى أجهزة الأمن فيها شرار الخلق؛ فيدمرونها ولو بعد حين.

وفي حديقتي شجرة تين زرعتها بنفسي فخرجت بفرعين منذ البداية، ونصحتني زوجتي بقص أحدهما فلم أفعل، وليتني فعلت إذا لاستوت على جذع واحد، وهو ما اضطررت إليه لاحقاً، ولكن بشكل متأخر، وأن يفعل الأمر ولو متأخراً خير من أن لا يفعل.

وهذه الشجرة تذكرني بالحياة؛ ففي الشتاء تتساقط الأوراق، وفي الربيع تدب فيها الحياة؛ فتعطيني أملاً بتجدد الحياة، وأن الموت لا يزيد عن كسوف مؤقت.

وعندما زرعت بعض الأشجار في حديقتي، ولاحظت أنها تأخرت في النمو، تعجبت حتى اكتشفت أنها كانت تؤسس جذورها تحت الأرض، قبل أن تبزغ فوق الأرض بفروع خضراء زينة للناظرين.

وكما كان تقليم الشجر مفيداً فيدفع الحياة في اتجاه جديد، كذلك الحال في تقليم الأفكار، وأفكارنا تكبر مثل أولادنا، والفكرة الجيدة تنمو مثل الكائن الحي دوماً بالتقليم والتشذيب.

وأنا أعكف منذ عشرات السنوات على بعض الأفكار؛ فأعيد صقلها كل مرة لأجدها زادت تألقاً وبهاء ونمواً.

ومنها فكرة اللاعنف حيث اكتشف كل يوم أنها ليست مجرد أفكار، بل عالم قائم بذاته، وجغرافيا مختلفة، وكوكب ينزل الفكر على سطحه بإحداثيات كونية مختلفة، مثل الضغط والحرارة وتوزع الغازات.

والفكرة الجيدة يجب أن يعنى بها الإنسان من وقت لآخر فيعيد اختبارها وترتيبها وترابطها مع نظام الفكر، ومع الوقت تتشكل شبكة ونظام معرفي في وحدة فكرية جديدة.

والكتاب الجيد يجب أن نعيد قراءته مرات ومرات. وهذه الرحلة لا نهاية لها لأنها حياة تدوم وتكبر. وسبحان الحي الذي لا يموت فتوكل عليه.

القانون الثالث (٣)

قانون الأثر النفسي مع قراءة الكتاب

أن من يدخله يخرج بغير النفس التي دخل بها؟

في المحاضرة التي تقدمت بها في مكتبة الملك عبد العزيز في الرياض في ربيع ٢٠٠٩م، آليت على نفسي وضع قوانين المعرفة بأرقام، فوصلت إلى الرقم ٣٦

مبدئياً، وقد يقفز الرقم إلى ٤٨، كما فعل روبرت غرين مع كتابه (كيف تمسك بزمام القوة) وأصل الكتاب كلمة واحدة فقط هي القوة وتحتها ثماني وأربعين قاعدة في لعبة القوة.

وهذا الكتاب أصدرته مكتبة العبيكان، وهو من أجمل الكتب في علم الاجتماع السياسي التي وقع نظري عليها بعد كتاب الأمير لمكيافيللي، وكتاب المقدمة لابن خلدون، مع الفارق بين الكتابين في الزمن والطرح.

وحين يكتمل البحث قد نصدره كتاباً، وبهذه يمكن تعميم الفائدة للناس من خبرات الذين أفنوا أعمارهم في البحث العلمي، وهي بالنسبة لعلم الله كمن يدخل المخيط عباب المحيط فبماذا يعود؟

لكننا في متحارجة بين الممكن والمستحيل، ويجب أن يتقدم كل إنسان بخبرته في غاية التواضع والسهولة، حتى يمكن للمتعقب والمهتم، أن يتابع هذا الأثر ويقبس قبسة من النور فيضيء له الطريق.

وبين يدينا اليوم القانون الثالث من قوانين البناء المعرفي، وهي كيف يمكن معرفة الكتاب الجيد؟

وأجمل ما قيل في ذلك أن الكتاب الجيد أن من يقرأه، يخرج بغير النفس التي دخل بها! وهذا يحكي عن أثر الكتب الجيدة في تغيير النفوس، وهذا يدخلنا إلى ثلاثة مباحث؟ أين نجد مثل هذه الكتب؟ وكيف تتغير النفوس مع القراءة؟ وأثر القراءة في تغيير السلوك البشري؟

هكذا روى يوسف إسلام عن القرآن، وهكذا فعل بي كتاب الفلسفة لسعد رستم، ومحنة ثقافة مزورة للنيهوم، وبنو الإنسان لبيتر فارب، ومقدمة ابن خلدون، والأحياء للغزالي، والمقال على المنهج لديكارت، والخواطر لباسكال، وقصة الفلسفة لديورانت، وكتابي منطق ابن خلدون وموسوعة العراق الحديثة للوردي، ورواية آخر

الراحلين عن زوال شعب الوبيخ الكامل من شعوب قفقاسيا، ومسألة الآخر واكتشاف أمريكا لتزفيتان تودوروف، واليابان في وجه أمريكا لشينتارو إيشيهارا، وآفاق المستقبل لجاك أتالييه، والعبودية المختارة لأتيين دي لابواسيه.

وهي أمثلة من عشرات الكتب التي غيرت تركيب دماغي. وهو ما دعاني لتأسيس أكاديمية العلم والسلم الإلكترونية فطلابها يتكاثرون يومياً، وخميرتها المعرفية لاتزيد عن ٣٠٠ كتاب، في رحلة ثماني حجج فإن أتم عشراً فمن عنده.

وأذكر جيداً حين دعيت إلى بيروت في شتاء عام ١٩٩٨م لنيل جائزة أفضل مقالة نشرت في العالم العربي، وكانت تقليداً قامت الشركة السعودية للنشر والأبحاث، سبقتها إليه اليوم جائزة دبي للإبداع الصحفي، وقد رسا رهانهم مرة أخرى عام ٢٠٠٨م على اعتبار مقالتي في جدلية الشيعي والسني، أنها أفضل ما كتب في علم السياسة مع مقالتين أخريين، والتقيت يومها بهشام علي حافظ رحمه الله، فقلت له أنت حر في الإجابة؟ فما الذي دفع اللجنة إلى منحي جائزة أفضل مقالة، وبالطبع أنا أكتب هذا من أجل فهم آليات القانون الثالث، أكثر من الدعاية لقلمي؛ فنحن وأقلامنا في النهاية سيأكلنا الدود ويفترسنا التراب.

التفت إلي هشام علي حافظ وقال: كانت مقالتك في صراع ولدي آدم؛ فقد دخلت المقالة بنفس، وخرجت بنفس متغيرة، وبعدها ظهر أثر كتاباتي عليه حين راسلني، خاصة في مشكلة العنف.

ومن هذه أيضاً الأزمة الاجتماعية، وأرويها للقارئ حتى يستفيد منها، وقلدت بذلك الفيلسوف فيتجنشتاين، حين رأيت الظلم الاجتماعي، فقلت ماذا لو ودع الإنسان المجتمع وعاش لوحده في غابة؟

وهذه المسألة راودت الكثيرين، وطبقها الصوفيون والزهاد، وتورط فيها روبنسون كروزو وحي ابن يقظان، ولو كتابة، ولم يحل لي هذا الإشكال إلا بضع كتب،

ولكنها قلبت عقلي فعلاً؛ فأصبحت أنظر للمسألة الأنثروبولوجية من نحو مختلف، وعرفت معنى المجتمع للإنسان، الذي يختصر بكلمة واحدة، أننا لولا المجتمع ما كنا بشراً على الإطلاق لغة وسلوكاً وحضارة، فالمجتمع مع أنه مع الدولة السياج الحديدي، وورطة للجنس البشري، تقترب فيه أحياناً الدولة بطغيانها مع مستوى الفوضى في الغابة، ولكن تبقى هي محضن الحضارة.

هذا اللغز انفك معي حين قرأت مقدمة ابن خلدون، وأثر الغذاء والمدافعة في ضرورة المجتمع، ثم كتاب بنو الإنسان لبيتر فارب من سلسلة عالم المعرفة الكويتية عن وظيفة الأسرة الرباعية، ثم كتاب مالك بن نبي عن ميلاد مجتمع، وكيف تموت المجتمعات، ووصلت إلى حقيقة مرة في موت المجتمع العربي، ثم الأبحاث التي اطلعت عليها باللغة الألمانية مع ثورة علم الألسنيات والأنثروبولوجيا (علم الإنسان).

ليس كتابا ككتاب؟

لمدة أسبوعين متتابعين كنت في حالة تقترب من الصدمة العاطفية، بعد أن فرغت من قراءة قصة (آخر الراحلين) لمؤلفها (باغرات شينكوبا) في روايته عن انقراض شعب كامل من شعوب قفقاسيا، الممتدة بين البحر الأسود وقزوين، وهي منطقة جبال شاهقة وشعوب متعددة تدين بالإسلام، امتداداً لدولة التتار في شبه جزيرة القرم، التي تمتد كقرن من جبهة البحر الأسود، وكانت ثلاث ممالك إسلامية تم تدميرها على يد إيفان الرهيب فلم يبق منها أثر، وبنى مكانها الروس القوقاز القلعة (سيباستيول)، كما بنوا مدينة (غروزني) التي تعني المدينة القبيحة، حيث دمرت دولة الشيشان تدميراً. وهي ليست المرة الأولى؛ فقد حمل ستالين بعد الحرب العالمية الثانية الشعب الشيشاني بالكامل إلى معسكرات اعتقال في سيبريا، عقوبة له على تعاونه مع النازيين، ولم يسأل نفسه: لماذا يستجير الإنسان بالنار من الرمضاء؟

كان الأخ بسام حاجي بيك يسألني وهو شركسي من أحفاد من هاجر من القفقاس أين وصلت في الرواية؟ كنت أقول له لقد وصلت رواية الشيخ (زاورقان) إلى موضع

هربه إلى أفريقيا بعد أن قتل الحاكم التركي المحلي الذي استولى على أختيه الاثنتين وبنى بهما؟ وزاورقان هو آخر إنسان بقي من شعب (الوبيخ)، واللغة الشركسية لها حروفها الخاصة، وكلمة الخاء تلفظ بين الشين والكاف؟ كان بسام يقول مازال أمامك كثير من الحزن؟ وكان ما قرأته كفاية؟ ولم يقرأ إنسان هذه القصة إلا وبكى فيها مرات ومرات، لأنها تراجيديا حقيقية لشعب كامل وليست قصة رجل وامرأة في عاصفة حب؟

وفعلا فعندما تقدمت في الرواية ـ التي لم استطع تركها من يدي ـ كانت المأساة تتضخم، والعذاب يزداد، والشعب القفقاسي يذوي، قلت يومها لزوجتي الشركسية سامحك الله لم يكن عندي تصور عما حدث لأجدادك فهزت رأسها ولم تجب، مما دفعني بعدها على إحضار المصادر العلمية عن محنة الشعوب القفقاسية وحروبها المستمرة مع روسيا، على نية كتابة بحث كامل عن الموضوع، على طريقة بناء الثغرات المعرفية، منها ثورة الشيخ شامل، ومنها ثورات الشيشان المتتابعة، رأينا آخرها في التسعينات مع اغتيال جوهر دودايف والمجرمين يلتسين وبريجينيف. وحتى اليوم مازالت قبضة الروس رازحة على رقبة هذا الشعب الصغير الشجاع، وكله بسبب الخطوط البترولية والأهمية الاستراتيجية للبلد.

وأذكر من الأخ عبد العزيز المطوع بعد أن اطلع على الكتاب أن نصح بأن يطبع الكتاب طبعة خاصة، وأنا أشجع على ذلك المقتدرين بطباعة ذخائر الفكر والروايات العالمية للجيل الحالي كي يعلم ما غاب عنه، ولقد حاولت الاتصال بمحي الدين سليق الذي أخرج الكتاب باللغة العربية بدون جدوى، فهذا هو الكتاب أو الرواية التي يقال عنها كتاب ليس كتاباً، لأنه ينقش في الذاكرة خطوطاً لا يمحوها الزمن، وأتمنى أن يمثل على هيئة فيلم، ولكن هوليوود مشغولة عنه بأفلام الجنس الإباحية وأفلام ضرب وقتل؟

ومن الكتب التي طبعت ذاكرتي بأثر عاطفي صادم كتاب (اكتشاف أمريكا: مسألة الآخر) لمؤلفها تزفيتان تودوروف، أستاذ السوربون من أصل بلغاري، وكانت

مفاجأة لي أخبار الكتاب والفظائع التي رواها القس لاس كاساس عن الأحداث الرهيبة والوقائع المخيفة التي مارسها الأسبان، منها قصتان لا أنساهما، ذبح أهل قرية في كوبا ومواشيهم وهم يتأملون الجنود الأسبان بكل وداعة؛ ففتكوا بهم بدون أي مبرر؟ منهم رجل قص بطنه الخنجر الحاد فاندلقت أمعاءه، فهو يحملها يتلوى من الألم، فيتقدم إليه المبشر الكاثوليكي يريد تعميده حتى يموت مطهراً من الآثام فهذا ما كان يدور في بال رجل الدين عن إسعاف هذا المبقور البطن؟

ومنها تلك المرأة التي أراد الضابط الأسباني أخذها عنوة من زوجها فلما رفضت رموها للكلاب، كلها في وقائع ميدانية سجلها رجل دين ما زال يحمل في نفسه بقايا ضمير.

فمثل هذه الكتب ليست كالكتب؛ لأن من يقرأها يخرج منها تحت وقع مشاهد متتابعة من مواقف وشخصيات مؤثرة رسمت بأفضل من ريشة أعظم فنان؟

القانون الرابع (٤)

قانون التغير والتغيير

الإنسان يتغير، والأرض تتغير، والكون يتغير، وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

هذا هو قانون الوجود. كل يوم هو في شأن. وهو قانون الصيرورة.

والصيرورة كلمة أشكلت علي، ولكن فكها سهل؛ فهي من التصير، وصار الشيء، أي أصبح وتغير من حال إلى حال، فالوجود هو هكذا، والله عبر عن الصيرورة بكلام في غاية الجلال والجمال، في كيفية تبدل خلق أحدنا مرتين وبدورتين.

الأولى الصيرورة في التشكل الجنيني. والثانية في تشكل الحياة طبقاً عن طبق.

فمن نطفة إلى علقة فمضغة . . ثم الخلق الآخر . ثم في الحياة من ضعف إلى قوة ثم ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير . وقد ينقلب أحدنا إلى ألزهايمر في نهاية الدورة فلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ثم تكمل الحلقة دورتها ، لتبدأ رحلة خلق جديدة . كذلك النشور .

وقانون الصيرورة هذا هو القانون الثالث من قوانين الوجود عند الفيلسوف اليوناني هيرقليطس ، فيلسوف الصيرورة ؛ وهو جدير بالحديث عنه في بحث مستقل ؛ فهو يقول حين تضع ساقك في برد ماء النهر ، ثم ترفعها ، وتضعها مرة ثانية لا يبقى ذلك النهر الذي وضعت فيه ساقك النهر السابق نفسه ، ولا تبقى أنت أنت ! .

وهو صادق وكاذب .

هو صادق لأن النهر يتغير فلا يبقى كما كان . بزخمه وكمية مائه ، وتياراته ، وجرفه للتربة ، وعمقه كم بلغ ؟

وهو كاذب ؛ لأن النهر بعمومه يبقى كما هو مع تغيرات طفيفة لا تعد بالحسبان ، فلو جلست ذبابة على ظهر ناقلة وبارجة اختل الميزان ولكن برقم تافه لا نحسبه ولا نعلمه ، الله يعلمه .

والنموذج على ذلك الدم في جسمنا وما فيه من أخلاط من بروتين وسكر وغازات ، فلو حسبنا كمية السكر في ثانيتين في دم أي كائن لما كان الرقم نفسه ، ولكن حسبانه في ٢٤ ساعة يقودنا إلى مخطط (جاوس) الاحتمالي ، أي أن السكر الطبيعي في الدم ، أو اليود في الدرق ، ومقدار الكلور والصوديوم والبوتاسيوم في البلاسما ، تتراوح بين حدود ومخططات ، لاتزيد ولا تنقص ، وبموجب ذلك نعلم المرض من الصحة ، فيقول الأطباء مثلا إن السكر عند الريق يجب ألا يتجاوز ١٢٤ ملغ ، وبعد الطعام بساعتين ألا يقفز عن ١٤٠ ملغ ، أما رقم ٢٠٠ ملغ ، فهو مرض يجب تتبعه وحربه .

وكذلك الحال مع البوتاسيوم في المصابين بقصور الكلية ؛ فالقفز فوق رقم ٦ إنذار ، أما رقم ٨ فهو علامة حمراء ، وقد يكون مرحلة ما قبل الوهط والموت ،

فيجب غسيل الدم فوراً، وإلا مات الإنسان مختنقا بأدرانه، فسبحان من وضع الكلية في أجسادنا تغسل ١٨٠٠ ليتر من الدم على مدار ٢٤ ساعة، بما تعجز عنه عشرات من مصالح التنظيف والزبالة في البلديات!

وقانون التغيير كما هو في الكون يتم بالنفس، والسلوك يتبع تغيير النفوس، وتغيير ما بالنفس هو من عالم الفكر، وعالم الفكر يتغير بالكلمة، لذا بدأ القرآن حملة التغيير بكلمة اقرأ؟ وثنى بالقلم وما يسطرون. وثلّث بالرفع بالعلم، وربّع بدمج المعرفة بالإيمان، فبؤس المعرفة بدون إيمان يشرح الصدر، ولا بورك لنا في طلوع شمس ذلك اليوم، الذي لا نزداد فيه علما يقربنا إلى الله تعالى.

وبالمقابل ما أفقر الإيمان بدون معرفة، ولا يمكن لمؤمن أن يدخل محفلاً دولياً، وهو غير مدرك طبيعة إضافات المعرفة الإنسانية، وإلا كان مصيره السخرية من المحفل العالمي.

وهي إحدى مشاكل الشلل العقلي في العالم الإسلامي: الانقطاع عن المعرفة، وإعادة الالتحام بعربة التغير العالمي، وهو عمل عقلي أكثر منه اقتناء منتجات الحضارة؟ فالتكنولوجيا هي نتاج من نتاج، طبقاً عن طبق، الفكر العلم - الأشياء.

القانون الخامس (٥)

قانون طبيعة المعرفة

كيف تنشأ المعرفة أو بكلمة أدق كيف نبني المعرفة؟

والجواب كما كان تركيب الدماغ كذلك هي طبيعة المعرفة، أي بالأبعاد الثلاثية، أو لنقل إنها بالعمق والسطح، وهذه تحتاج إلى دورات بحيث يخرج في النهاية نسيجاً معرفياً، فكما تفعل النساء مع نسج الصوف بإبرتين، بحيث يخرج في النهاية الكنزة أو القميص من الصوف يغطي الصدر، فإن المعامل عملت الشيء نفسه من أجل إنتاج

القماش، فثوب القماش هو خيطان متضافرة بالطول والعرض، ولو تمعن أحدنا في القماش للاحظ وجود مثل هذا التضافر من الخيطان.

الآن لنتصور الشيء نفسه مع خيطان المعرفة، ولله المثل الأعلى، وهذه هي الثقافة، فهي خيطان من معرفة موسوعية، وهذا هو الفرق بين الثقافة والاختصاص، فالطبيب مثلي لو بقي في حقل الطب لما أدرك العمق الفلسفي في الطب.

ولكن اشتغالي بحقول معرفية أخرى جعلني أضع كتابي حوار الطب والفلسفة، أو الوصايا العشر في الجراحة، أو التقدم العلمي والإيمان، أو العصر الجديد للطب فكله جاء من بركة الدراسات الموسوعية المعمقة.

وكما كان الإنسان خليطاً من الغرائز والعواطف والأفكار كذلك كان النسيج الفكري فوجب رفده دوماً بما يجعله في أبهى حلة.

كذلك فإن الحياة ليست طباً وفيزياء فقط، بل هي تضافر لكم هائل من الأشياء.

والقرآن يقول عن علم الله إنه عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ثم ينطلق في الوصف فيقول؛ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وهنا نرى تباينات وانطلاقات معرفية منوعة، تنقل الفكر في سباحة من الخيال اللانهائي، دليلاً على مصدر الكتاب. وفي هذا جاء شرح جميل ينصح بقراءته في ظلال القرآن عند شرح هذه الآية وإدخال عنصر ميكانيكا الكم في مفهوم العقلية الغيبية والعقلية العلمية.

وهو بحث يحتاج أن تكتب فيه مقالة مستقلة.

ثم إن متعة العلم هي بهذا التشابك المعرفي، وأنا أتفهم ملل الأطباء وأصحاب المهن من عملهم لفقدهم هذا العمق الموسوعي، ولذا جرت عادتي في الاجتماع بصاحب أي فرع معرفي أن أسأله عن فنه؟ فيتعجب ويسترسل، وكان قبل ذلك عيياً،

بل إنني أحرص على إنطاق كل العقول في المجلس، وتحرير الأتباع من سيطرة قوادهم، فينطلق لسانهم من عقال.

وهو ما حدث معي في جلسة فكرية في مدينة بركان في المغرب، عندما اجتمعنا مع رجل علم فاضل، ولكننا لو تركنا له الحبل على الغارب، لاستولى على البحث والحديث والمجلس، وهو مضرة له ولمن جلس له، كما أن من حسن الضيافة الاستماع للضيف؛ فهذا من الكرم غير المباشر. وهذه أمور تحدث من غير قصد وبنية ممتازة سليمة.

والرجل كما يقول الجاحظ عن أبي شمرة، أنه كان قد اعتاد على التحدث لقوم لا يناقشونه حتى فاجأه النظّام، فكان إذا تحدث كأنه آلة مسجلة، كلام يخرج من صدع صخرة، ذلك أن فلسفته كانت تقوم على أن الفكرة تؤثر بما فيها بدون استخدام مؤثرات الصوت وحركات الرأس واليدين ونبرة الصوت وقسمات الوجه. فلما بدأ النظام في نقاشه قفز من مجلسه وبدأ يخبط على فخذي النظام والتلامذة مذهولين من تصرف الشيخ؟

وهناك قوم ليس عندهم قدرة الإصغاء، والاستفادة من الآخرين، فوجب إنطاق المجلس، وتحويل المجلس إلى نقاش جماعي مفيد، وكان درساً عملياً للجميع.

إذن يجب تأسيس طبيعة المعرفة بشكل شامل مؤسس بالعمق والسطح، فيجب تلقيح الدماغ كما هو في إدخال المواد الأساسية للجسم؛ وهي ستة؛ من الماء والبروتينات والنشويات والدسم والأملاح والعناصر المعدنية والفيتامينات، ذلك أن الجسم معظمه ماء، وفي القرآن ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾.

أما البروتينات فهي لبناء العضلات، والدسم للشحم في الدماغ، والمعادن للدم، والكربوهيدرات للطاقة مثل السكر والخبز، هذا في العموم.

أما الفيتامنيات فهي عناصر بكميات جداً ضئيلة، ولكنها تمنح التوازن للجسم

بفعالياته المختلفة، وهي أكثر من عشرة، ولسنا هنا في شرح درس طبي، أو محاضرة في البيولوجيا، ولكنه تسخير العلوم للعمق الفلسفي للأشياء، فهكذا بنيت الحياة.

وهذا الموضوع شغل عقول فلاسفة اليونان قديما عن طبيعة العالم، ومما يتركب فذهب مذاهب بين أن أصل كل شيء هو الماء كما قال به (تاليس ٦٢٤ - ٥٤٦ ق. م)، أو أن أصل كل شيء هو الهواء على مذهب (اناكسامينيس ٥٨٥ - ٥٢٨ ق. م)، وكلاهما عاش في القرن الخامس والسادس قبل الميلاد، أما (أناكسيماندر ٦١٠ - ٥٤٦ ق. م) فقال إن هناك حقيقة أولية يتشكل منها كل شيء ويعود كل شيء في النهاية إليه!

أما فيثاغوراس فهو أبو الدقة الرياضية، وأن الكون هو فقط لغة أرقام علينا أن نستوعبها بما فيها الشعر والحب والموسيقى! ولكن تزلزل حين قال له تلميذه فأين الدقة في الرقم (١٤١٤١٤١ ,٣) في العلاقة بين محيط الدائرة وقطرها؟ ويقال إن هذا كلف التلميذ حياته!

ومن قال بالعناصر الأربعة، أي أن الوجود وأي موجود هو في النهاية مزيج من أربع عناصر هي الهواء والماء والتراب والنار، ولكن ديموقريطس قال بالمبدأ الذري فكان سباقا في رحلة العقل أكثر من ألفي سنة، حتى أثبت أوتوهان نظريته وضدها بإمكانية انشطار الذرة، ومنها جاءت الطاقة والسلاح النووي، هذا رزقنا ماله من نفاد.

وذهب هرقليطس صاحب مبدأ الصيرورة والحرب أن النار هي الشيء الوحيد الذي لا يتغير، وعليه فقد ألقى نفسه في النهاية في بركان إتنا وأنهى حياته بشكل درامي ليثبت آرائه بهذه الطريقة الفاجعة؟

وبالنسبة لموارد الجسم من الفيتامينات؛ فقد وجد مثلا أن الفيتامين سي (C) يؤدي فقده إلى دار الأسقربوط للبحارة الذين لايأكلون الخضار الطازجة، فتهرّ الأسنان وتتقرح اللثة، أما الفيتامين دال (D) فهو درع العظام، ونقصه يؤدي لداء الخرع،

فتلتوي عظام الصبي بعد استقامة، أما الفيتامين أ (A) فهو وقاية للعيون ونقصه يؤدي للعمى الليلي، ذلك أننا إذا دخلنا الظلام كما في دخول السينما، اشتغلت آليات جديدة فنرى في الظلام ولكن بعد حوالي ثلاثين أو أربعين ثانية. ومثل المعادن للجسم هو في الحديد (Fe) فهو للدم مثل الخرسانة المسلحة، حيث توجد ذرة حديد في كل ٥٧٤ حمض أميني لبناء الهيموغلوبين الخضاب الدموي الذي يحمل الأكسجين لأنسجة البدن... وهكذا.

وكذلك حال البناء المعرفي فيجب تغذية النسيج المعرفي بمواد غذائية.

كذلك إدخال الأفكار إلى الدماغ؛ من عشرين حقل معرفي؛ كما هو في إدخال عشرين حامض أميني يحتاجها البدن لتركيب وبناء نفسه وترميمها، فكما احتاج الجسم إلى الليزين والأرجينين والغوانين والثيمين والسيتوزين والأدنين، كذلك هو بحاجة لفكر التجديد الديني والكوسمولوجيا والتاريخ والأنثروبولوجيا وعلم الألسنيات وعلم النفس والفلسفة والفيزياء الذرية وقوانين السياسة والاجتماع الإنساني.

وإذا كان نقص الحديد يعالج بأكل السبانخ والشوكولاتة مثلا أو مركبات الحديد المكثفة، كذلك يمكن للثقافة أن تصاب بفقر دم، إذا نقصت الدراسات الفلسفية؛ فوجب رفد الدماغ بالدراسات الفلسفية المعمقة، وهو مشروع اشتغل عليه حالياً بعنوان الكتاب الفلسفي في محاولة تبسيط هذا الفن للقراء.

القانون السادس (٦)

منافذ الفهم والإيمان والكفر!

حين وصف القرآن الكافرين قال إن منافذ الفهم عندهم لا تستقبل الإشارات الكونية، وفي أكثر من موضع: صم بكم عمي فهم لايعقلون! بل وصف الكفر والإلحاد بالدفن وقبر الروح بدون استقبال أشعة الكون المتدفقة مع كل لحظة. ووصف الإيمان هو ذلك الأمل العظيم في معنى الحياة؛ فاليأس أخو الكفر، والقنوط صديق الضلال.

ومنافذ المعرفة أربعة: السماع والنطق والقراءة والكتابة. . فلنفتح نوافذ الفهم مثل شبابيك الغرف المظلمة كي تتهوى ويتخللها هواء منعش.

﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾.

ويوم القيامة يقولون: ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب الجحيم**﴾.

إنها أدوات الإيمان بالتشغيل، والكفر بالإغلاق.

والكفر لغةً الردم والطمر والإخفاء. .

والإيمان إذن هو استقبال أشعة الكون الرائعة فتنشط الروح، كما تنشط الحواس، باستقبال ضوء مثير ولون بهيج ونغم بديع.

ومنافذ المعرفة أربعة: السماع والنطق، فوجب تدريب الحوار العقلي؛ والقراءة والكتابة فوجب تنشيط الذهن بحوافز الأفكار بالقراءة الصامتة، والقراءة الإيجابية، والمنوعة، والصادمة أحياناً؛ فوجب الاطلاع على التراث الإنساني كله.

الصامتة استيعابية، والإيجابية أن لا ينام الإنسان معها! بل يطرح السؤال ليجد جوابه بالبحث بين أكداس الكتب والصفحات والنشرات والإنترنت.

والمنوعة من كل بستان زهرة، ومن كل حقل فكرة، ومن كل مفكر عبرة، ومن كل فيلسوف قبسة.

وهذا يعني فتح أفق التفكير والاطلاع، فليقرأ الإنسان للعقلاء والمجانين، وهم ليسوا مجانين بل الناس سموهم كذلك.

ليقرأ هلوسات ماوتسي دونج في كتابه الأحمر، وخرابيط القذافي في كتابه الأخضر، وترانيم كورتوا الشيوعي المخضرم في كتابه الأسود! وسحبات ونفثات نيتشه مع (هكذا تكلم زرادشت). واعترافات الكاهن جان مسلييه وكفره بالكنيسة، ونقد فولتير اللاذع، وعمق التحليل عن لابواسييه في مسألة الطغيان، وحدة

القصيمي في الرسائل المتفجرة مع القلعجي، وروعة قلم النيهوم في محنة ثقافة مزورة، وجدل هيجل في الأضداد، ومسحة التشاؤم عند شوبنهاور، ودأب البدوي في مسحه الفلسفي، ليصل إلى الإنسان الكامل في الإسلام.

أو تلك الكتابة السهلة الممتنعة عند طه حسن والوردي، وبحث أمين حول الحقيقة. وتاريخ العقل عن المسلمين في تاريخ أحمد أمين. وإبداع كامل حسين في وحدة المعرفة. وصوفية الغزالي. وفلسفة كانط، وصوفيات ابن العربي، بل وإلحاد وكفر ميشيل فوكو بالإنسان، ودعوته مع هابرماز الألماني إلى ما بعد الحداثة.

ليقرأ ولا يتشنج، وليطلع ولا يقف عند حافة وزاوية، بل يقول كما علمنا الرحمن؛ وقل رب زدني علماً.

وحسب برتراند راسل فهو يقول لو كان الأمر إلي لعرضت على عقول الأطفال أكثر الآراء تبايناً، حتى أنمي عنده ملكة النقد.

وما نحتاجه اليوم العقل النقدي أكثر من النقلي؛ فالعقل النقلي يبرر ويدافع وينشر، ويمشي إلى الأمام بمهمة وعظية للآخرين.

أما النقدي فهو للداخل يمحص الأفكار ويغربل، ويتأكد المرة بعد المرة، فينقد ثم ينقد النقد، ثم ينقد نقد النقد، وهي عملية النفس اللوامة التي ستنجح في اجتياز عقبات يوم القيامة.

ويجب أن يفهم طرفا النزاع في المجتمع، كما ذكر أحمد أمين في كتابه التاريخ العقلي عند المسلمين، أنه لو بقي تيار العقل والنقل يعدل بعضهما البعض بين جموح وفرملة، لكتب للعالم الإسلامي مصير مختلف، بل ربما كما ذهب إلى ذلك (غالب هسا) في كتابه العالم فكر ومادة إلى قيادة الجنس البشري. . .

ولكن استيلاء تيار النقل وتحطيم العقل ضرب جناح العالم الإسلامي فهوى طير بجناح واحد يتلوى من هول الوقعة؟

القانون السابع (٧)

الكتب التي غيرت التاريخ

جاءتني قبل أيام نعوة عبد الصبور شاهين رحمه الله، ونحن عرفناه عن طريق مالك بن نبي، ويبدو أنه كان يترجم له أو يساعد في نقل أفكاره، والعمالقة يحملون الآخرين فيعرفهم الناس، ولولا مالك بن نبي ما سمعنا به إلا من خلال محنة نصر حامد أبو زيد؛ فقد كان هذا النزاع المزعج بدون مبرر خلف تطليق زوجة الأخير بفتوى أزهرية، ولا جديد في هذه الفتاوى السلطانية، والرجل لحقته أي أبو زيد زوجته إلى المنفى في هولندا، وبذلك أسهم شاهين في رفع أسهم أبو زيد بدون أن يدري؟ ومن أعجب ما قرأت لاحقا أن نفس عبد الصبور شاهين حاول أن يكتب في الانثروبولوجيا الدينية، ومحاولة التوفيق بين الأبحاث العلمية الجديدة في تاريخ الإنسان والنص الديني؟ فهجم عليه من جماعته من أذاقه الكأس نفسها، التي أذاقها هو لنصر حامد أبو زيد، وهو إن دل على شيء فهو يدل على أن سيف التعصب مصلت على رقاب الجميع بمن فيهم من استخدمه، كما وصلت المقصلة إلى رقبة روبسبير في الثورة الفرنسية بعد أن أرسل إلى المقابر طبقة كاملة من الارستقراطيين إلى المدفنة بدون رؤوس؟

والمهم فقد جاءني في النعوة أن الرجل أي شاهين ترك خلفه أكثر من تسعين كتاباً؟ والسؤال إنه جهد مبارك ولكن هل هو ترداد لشيء موجود وإعادة لما كتب؟ أم فيه إبداع جديد وثورة معرفية؟ ما يسميها توماس كون في كتابه (بنية الثورات المعرفية) عن النماذج الإرشادية (Paradigms) كيف يتقدم مفكر بطرح جديد يقلب التصورات في العلوم أو المفاهيم السائدة.

ولعل القرآن يعتبر الكتاب رقم واحد في العالم الذي أنبت وأنتج أمة كاملة، وبتعبير المفكر قطب جيل قرآني فريد، ويعزى ذلك إلى ثلاثة عناصر:

ـ ذهن بدوي بسيط لم يتعقد فلسفياً أو يستعبد من حكومات مركزية.

ـ وثانياً أن هذا لم يكن ممكناً لولا أن القرآن تنزل على مكث كما جاء في آخر سورة الإسراء: ﴿ **وقرآناً فرقناه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً** ﴾ ولم يتنزل دفعة واحدة، فهو ليس كتاباً نظرياً، بل كما وصف الصحابي الجليل ذلك بدقة أنه كانت إذا تنزلت عليهم عشر آيات محكمات تأملوها وحفظوها وفهموها وعملوا فيها، أي أن الكتاب الذي يغير هو الكتاب الذي نزل في واقع ميداني.

ـ والثالث أن النموذج أي النبي ﷺ في الميدان يمثل فقرات الكتاب في فقرات من حلول اجتماعية، فلم يكن يضع يده ﷺ في مسألة أو يواجه تحدياً إلا ونجح، والجماهير تقدس الشخصيات الناجحة، فكيف مع رجل يعيش بين أظهرهم، كما قال تابعي إنهم كانوا سيحملونه على الأكتاف طوال الوقت؟ فيجيب الصحابي من واقعه؛ إنهم كانوا في معركة الخندق في برد وجوع وخوف والرسول ﷺ يقول من يذهب إلى القوم ويأتي بخبرهم أسأل الله ان يكون رفيقي في الجنة فلا يتحرك أحد حتى يأمر صحابياً فيغطس بينهم ويسمع قولهم وينقل خبرهم ووضعهم ولم يكن بأفضل من وضع المسلمين المحاصرين بكثير؟

بل إن الوردي يفاجئنا بفكرة محيرة تجعلنا نراجع مسلماتنا ماذا كنا سنتصرف لو عاصرنا النبي ﷺ مثلاً في حادثة ضربه في الطائف؟؟ نزلنا عبر الزمن بدون أن نعرفه ثم نفاجيء بالمنظر هل كنا سننصره أم نشترك مع الضاربين؟؟ إنه سؤال مزعج؛ ولكن لابد من طرحه؟؟

ليست العبرة في كثرة الكتب بل بما حوت؟

قل لايستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث؟؟ هكذا يحكم القرآن على الكثرة والنوعية؟ إن كتاب دارون عن الأنواع، ومقدمة ابن خلدون، أو رأس المال لكارل ماركس، أو حول النظامين لغاليلو، أو تفسير الأحلام لفرويد، أو حتى في

الكتاب الجديد (ألمانيا تلغي نفسها) للدعي النازي الجديد تيلو سارازين، ولدت كاملة دفعة واحدة على نحو نظري، ولم يكن القرآن يتنزل هكذا بل بظروف نفسية معينة في إجابات عن حالات ووقائع؟

تأمل مثلاً قصة الإفك من سورة النور، أو سورة آل عمران ومعركة أحد وكيف همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما، أو منكم من يريد الدنيا، أو معركة الخندق وكيف جاء العدو من فوقكم ومن أسفل منكم وبلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديد؟

أو ظروف اليأس من كل مكان، وسورة يوسف تتنزل تقول حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا؟

فكلها آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجادل في آيات الله إلا كل ختال كفور، ولذا فهو لايفتح أسراره إلا لمن يدخل هذه الأجواء النفسية؟ فيستوعب حقيقة الكلمات مذاقاً شهياً للمتوسمين.

ولذا فليس العبرة أن ينتج الإنسان مئة كتاب أو عشرة كتب، بل ما هي الأطروحة التي تقدم بها، وأنا شخصياً أصف مثلاً المفكر جودت سعيد مثل مؤلفي الأوبرات والسيمفونيات، فهو ينتج الفكر في سيمفونيات محددة ربما وصلت للعشرين، فيكرر بعضها حتى ينتج الشيء الجديد، وحين اجتمع به أقول بدأ بالسيمفونية الثالثة ثم ١٤ ثم ١١ ثم سبعة، . . . وهكذا، والرجل عنده قدرة أن يتحدث على نحو متواصل عشر ساعات بدون أن يشعر بالتعب، وموهبة أن تتكلم أصعب من أن تكتب يتحلى بها بعضهم، فإن تحدثوا أصقعوا، وهناك من الناس من لايتكلم كثيراً ولكنه ينتج غزيراً على نحو صموت؟

وهذا الموهبة تنقل أيضاً عن جمال الدين الأفغاني أنه كان يختلف عن محمد عبده، الذي كان متحدثاً بارعاً، ولكنه لم يكتب الكثير وأشهر إنتاجه هو العروة الوثقى التي أخرجوها من باريس ولم يطبع منها سوى ١٧ عدداً على ما أذكر؟

مع ذلك قد ينتج فيلسوف عظيم مئة كتاب أو قريباً من ذلك، والعبرة هي في المحتوى، فقد ترك عبد الرحمن بدوي خلفه شيئاً من هذا وكذلك برتراند راسل، ولكن جون لوك أنتج ثلاثة كتب في وقت متقارب، وفي الستينات من عمره رفعته لمكانة الخالدين.

وكذلك فعل إيمانويل كانط مع كتابيه (نقد العقل الخالص) (ونقد العقل العملي) فهما من ذخائر الفكر الإنساني.

أما شوبنهاور فلم يكتب سوى كتاب واحد مهم عن الكون إرادة وفكرة ولم ينتشر وعرض الناشر أن يبيعه في النهاية على شكل رزم ورقية؟

أما غاليلو فقد هز العالم في كتاب هو بحث في النظامين فخرت قبة السماء على رأس البابا والكرادلة، وترك سبينوزا خلفه أربعة كتب قال عنها ديورانت كانت أفضل من كل فتوحات نابليون والإسكندر.

وترك دارون كتابين عن (أصل الأنواع) و(أصل الإنسان) هزت العالم وما زالت، وترك كارل ماركس كتابه في (رأس المال) الذي هز فيه رأس المال العالمي سمك القرش وأقض مضجعه، ولم يكن خطيراً لولا نشوء الشيوعية ودولها وحروبها ومصائبها من خلف الفكر كما حصل مع النازي وكتابه "كفاحي"؟

أو الكتاب الأحمر وماوتسي دونج، أو صاحبنا من الشرق وكتابه الأخضر الذي زعم أن فيه حلول كل مشاكل الجنس البشري في الوقت الذي يتخبط فيه صاحبه في مشكلة خلف أخرى بدون حلول؟ أو الكتاب الأسود لستيفان كورتوا عن مقتل ٢٠٠ مليون من الأنام من وراء طاعون الشيوعية، ولا تختلف عنها الفاشية والبعثية العبثية وأشكالها ونظائرها؟

ولذا فليس العبرة أن يكتب الإنسان كثيراً بل أن يقرأ كثيراً حتى يفيض، وينقل شلش عن ديورانت في كتابه قصص من التاريخ أنه لم يكن يكتب مجلداً واحداً من

مجلداته الـ ٤٢ في قصة الحضارة قبل أن يقرأ خمسة آلاف كتاب، مع رحلات علمية للثقافة التي سيكتب عنها.

ويأتيني الكثير يطلبون نصحي أنه يريدون نشر مقالاتهم في مواقع، وجوابي يفجعهم حين أنقل لهم هذه الأرقام؟ ولكنها الحقيقة الموجعة أنه لم تكن الحكمة لتجري على لسان أحد ما لم يخلص لله أربعين سنة، ويقرأ أربعة آلاف كتاب؟

القانون الثامن (٨)

عتيق الكتاب قد يكون كنزاً معرفياً

كما بيعت مخطوطة أرخميدس التي ظهرت للسطح بعد ألفي سنة بالمزاد العلني بمبلغ ٢,٢ مليون دولار اشتراها ملياردير الأمازون في الإنترنت جيفري بيزوس. وحول هذا العالم يمكن تشييد ما يعرف بلحظة أرخميدس.

(لقد أمكن إنقاذ مخطوطة أصلية لأرخميدس بعد مرور ألفي سنة عليها، حيث كانت يد التزوير قد اشتغلت عليها، لمحو الكتابة، ولكن تقنيات العصر استطاعت أن تفك اللغز الأخير لكامل المخطوطة، وهي حالياً في متحف والترز الفني في بالتيمور، وتعتبر قصة كشف وقراءة المخطوطة ملحمة من ملاحم العلم، أعلن عنها في نهاية عام ٢٠٠٧م).

أما قصة هذه المخطوطة فهي من قصص المغامرات، وتبدأ رحلة الكتاب من بيزنطة حيث تمت كتابة أفكار الرجل الرياضية في مجلد خاص، بحبر بني على جلد البارشمان (Parchment)، فاختار الكاتب سبعة فصول في علم الرياضيات تعتبر أهم ما أنجزه عقل هذا العبقري؟

ويضم المجلد أيضاً مقالات لأرسطو، وبعض الخطابات من العصر اليوناني الذهبي في قطعة نفيسة من الفكر الإنساني..

كان هذا أيام النهضة العقلية في بيزنطة قبل أن تقع في قبضة المتشددين الذي يصبون العلم في قوالب إيديولوجية.. كان هذا عام ٩٥٠ ميلادية..

إلا أن بيزنطة بدأت رحلة الانحدار، وحدثت الكارثة في عام ١٢٢٩م، حيث وقعت المخطوطة الأصلية في يد رجل دين ليس من أجل قراءتها، بل أحضر هذا (المتحمس!) عصير ليمون وإسفنجة وبدأ في الدعك والدعس والكشط محاولاً إزالة أثر الكتابة؟!

محا العلم وهو يتلو التراتيل بسم كل القديسين، ثم كتب بعد كشط هذه المخطوطة العظيمة من علم الرياضيات والعصر الذهبي في أثينا، سخافته الدينية فوقها، والتي كانت من الجلد لحسن الحظ؛ فحفظت بصمات الكتابة الأولى عليها؟!

بعدها قام الإيديولوجي وبسكين فقطع المخطوطة في منتصفها وطواها اثنتين ثم حضرها لكتابة مختلفة . .

لقد أظهرت التحريات أن رجل الدين هذا لم يعتد فقط على مخطوطة أرخميدس بل كشط الجلد في خمسة كتب أخرى نفيسة .

ومما محا من هذه المخطوطة عشر صفحات للخطيب اليوناني (هايبريدس Hyperides) الذي عاش عام ٣٥٠ ق . م في أثينا، مع تعليق قديم بخط أرسطو . . المعلم الأول . .

وتبدأ قصة الكشف عن هذه المخطوطة إلى ما قبل ١٥٠ عاماً، حين عرف قيمة هذه المخطوطة البحاثة (كونستانتين فون تيشندورف Konstantin von Tischendorf) من لايبزيج في ألمانيا، حين كان الأول الذي اطلع عليها في القدس في مكتبة كنيسة قبر السيد المسيح .

وفي عام ١٩٠٦ رحل العالم الدنمركي الجليل (يوهان لودفيج هايبرج Johan von Heiberg) إلى الشرق، ويصفه أقرانه انه كان عظيم الجسم بلحية كثيفة مجعدة .

ومن الغريب أن المخطوطة عثر عليها في استانبول بدلاً من القدس؟ فكيف رحلت إلى هناك؟

قرأ هايبرج المخطوطة بشغف بالكامل وترجمها، وكان حال المخطوطة لا بأس بها حينها قبل قرن من الآن؟ ونسخ رسمات الرياضيات، وهناك أربع صفحات صبغت برسومات ملونة لم يستطع قراءة الكتابة فيها. .

بعدها بقدرة ساحر طارت المخطوطة من إستانبول إلى يد عائلة فرنسية، أما من وكيف حدث هذا الطيران فلا إجابة؟ وأقسم البطريرك المسؤول عن المعبد في إستانبول (تيموثيوس فون فوسترا Timotheus von Vostra) أن لا علم له بشيء؟

وهكذا فقد رسا مصير المخطوطة في جعبة السيد الفرنسي الرحالة (ماري لوي سيريه Marie Louis Sirieix) وكان ذلك عام ١٩٢٣م، ولكن ليس من دليل ولا (وصل استلام) بالمبلغ أنه بيع من مكان محدد؟ فقد كانت تجارة سوداء تعبث بالمخطوطة التي بدأ الشحار الأسود والعفن يأكل فيها، خاصة حين حفظت في باريس في قبو بارد معفن؟

وقبل أن يموت التاجر الفرنسي سيريه عام ١٩٥٦م زين الكتاب بأربع صفحات ملونة من صور قديسين بقصد بيع المخطوطة؟ وانتقلت المخطوطة إلى يد ابنته التي عرضت المخطوطة أخيراً للبيع في السبعينات، من خلال ٢٠٠ بروشور أرسلتها إلى متاحف العالم؟

وأخيراً وقع الرهان في ٢٩ أكتوبر من عام ١٩٩٨م حين عرضت المخطوطة في الإنترنت تحت الشيفرة (أوريكا ٩٠٥٨) فبيعت في المزاد العلني في معرض (كريستي) حيث حاول بطريرك القدس من جديد استرداد المخطوطة فخسر الدعوى قضائياً لبعد الزمن، وحاول القنصل اليوناني دخول المزاد العلني بأي ثمن، ولكن ملياردير الأمازون (جيفري بيزوس Jeffrey Bezos) (صفحة بيع الكتب في الإنترنت) كان له بالمرصاد فقد انسحب القنصل عند الرقم ١,٩ مليون دولار، واشتراه الملياردير بدون أن يفصح عن اسمه بمبلغ ٢,٢ مليون دولار؟

فأين عيون أرخميدس الدرويش لترى مخطوطته كم أصبح ثمنها؟ وهو الذي كان يطوي خاوي البطن لا يهمه سوى العلم؟

وحسنا أن وقعت المخطوطة ذات ١٧٤ صفحة في يد مالك الأمازون؛ فقد أعطاها للمتحف الفني في بالتيمور لفك سرها النهائي، وبالتعاون مع وكالة ناسا، واستخدام المسرع النووي الفيزيائي، واستخدام أشعة رونتجن وما فوق البنفسجية، أمكن الوصول إلى الأسطر الممحية بطريقة في غاية البراعة وبذلك قرئ النص للمرة الأولى على نحو كامل. .

ولعل فكرة العالم النحرير تسعفنا في وضع العالم المادي في مقابل عالم القيم والمثل، فهو كان يرى أن جميع السوائل محدبة الوجه مرتبطة بمركز الأرض، وهي فكرة تقترب من الجاذبية، وهي سطوح مائلة عوجاء غير مستقيمة؟ ولكن أين الاستقامة في حياة الناس؟ ، وكم هي عدد الأمور العوجاء الشوهاء البتراء في هذا العالم المشبع بالظلم والأحزان. .

القانون التاسع (٩)

قانون نون والقلم وما يسطرون؟

يجب استخدام القلم مع الكتاب، وحصد أفكار جيدة حاول أن تغرسها مع أرقام صفحاتها في أول صفحات الكتاب الفارغة، وبذلك ترجع لها دوماً فهي أفكارك التي تستفيد منها دوماً.

كنت في زيارة للمثقف العلواني فوقع نظري على كتاب ٣٣ قاعدة استراتيجية في الحرب) وهو الكتاب الثاني لروبرت غرين الذي كتب (القوة)، فاختطفته وبدأت أتصفح قصصه الأثيرة المثيرة؟ ومباشرة كتبت في الصفحة الأولى ص ٣١٦)) عن قصة العبد فردريك دوجلاس والإقطاعي توماس أولد والجلاد روبرت كوفي، وهي قصة سوف

أسردها في مكان آخر؟ نظر لي الأخ العلواني بشيء من العتاب وقال تمنيت ألا تكتب عليه فهو يخص رجلاً مهماً ذو منصب متألق ومقام رفيع أن يتلقى الكتاب بدون (تشاخيط وشخبرة ؟ عفواً) قلت له حسنا هذا الكتاب اطلعت عليه لأول مرة عند أبو ابراهيم صديقي المقاول المثقف الذي يعمل نهاراً مع العمال والمليسين والبلاطين والمساحين والحمالين والمطينين، مطبقاً قول من يقول عن البناء والعذاب والشقاء في رفع الأبنية والفيلا؟ هو عمل في الشموس ومعاشرة التيوس وإهدار الفلوس وإزهاق النفوس؟

نعم، دوماً تحدث حوادث في البناء وأنا شخصيا عاينت موت صديقي المهندس أبو طه أمام الفيلا التي بنيتها في الجولان بجهد ست سنين فلم أسكنها؟

نظر لي الأخ جميل وأنا أتصفح كتاب الحرب لروبرت غرين وقال إنه شدني فعلاً؟ قلت له إنه ثاني كتاب لهذا الجني روبرت غرين في التأليف؟

ولكن الأسطر الأولى لم ارتح فيها تماماً وعرفت أن هذا الكاتب يمشي على النحو التشاؤمي نفسه مع كتابه الأول عن القوة، أن العالم مظلم ظلامي والأساس هو المراوغة والنكد والكيد والاقتتال والاحتراب.

وأنا لا يهمني وجهة نظره ولكنني آثرت الاطلاع على الكتاب وعسى أن أعطي خلاصة عنه لاحقاً؟

المهم هذه عادتي وديدني في حفر الكتاب أثناء قراءتها في أخذ خلاصات فكرية من الكتاب، وكتابتها على الصفحات الأولى من الكتاب لأهم ما ورد فيها حسب وجهة نظري استطيع الرجوع لها دوماً، وهي عادة أنصح بها القارئ، فإن لم يكن فليفصل أوراقاً صغيرة يجمع فيها هذه الخلاصات الغنية.

وكلا الكتابين أي القوة والحرب أخرجته العبيكان بأكثر من طبعة على أساس أنه الكتب الأكثر مبيعاً، وهو يستحق هذا اللقب، فلقد وقع الكتاب أي الأول القوة والذي ترجمه البيجرمي بعنوان: كيف تمسك بزمام القوة، وقع أول مرة تحت نظري

حين قرأت مقالة نشرتها مجلة درشبيجل الألمانية في أعقاب صدور بحث نفساني خطير بعنوان التجربة؟

وهي ثاني مرة أقرا فيها عن هذا الموضوع عن تجربة خطيرة وقعت أيضاً في جامعة ستانفورد في أمريكا قام بها طبيب نفساني، وقام فيلم الرئيس الفرنسي بعرض هذه التجربة على نحو مروع، خلاصتها أن الإنسان يجلس في صدره وحش جاهز للانقضاض في أي لحظة، فقد قسمت التجربة المتطوعين قسمين، واحد يعطي الأسئلة والثاني يجيب، فإذا قصر الأول وأخطأ لسعه بالكهرباء؟

من العجيب أن هذه النكتة تحولت إلى واقع مروع من جلادين ومضطهدين بحيث لجأ المجربون إلى إيقافها بعد أيام ونقل بعضهم إلى المشفى من ضربات التعذيب والاقتراب من حافة الجنون؟

وهو ما يفسر لنا كيف رأينا مع أحداث ثورة تونس على الديكتاتورية كيف كان يضرب التونسي التونسي ضرباً مبرحاً؟ فهذه هي آلية السيطرة والانصياع... وأيضاً التحرر من الخوف؟ فأعظم شعورين يدمران الإنسان هما الخوف والحزن؟ لماذا؟ لأن الحزن تجميد في الماضي والخوف حالة هلع مما سيأتي وبذلك ينحبس الإنسان في خانتين ويلجم بسلسلتين؟ ولذا قال الرب عن الصالحين: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾...

إذا من التأسيس المعرفي مسك القلم مع القراءة، بل وأحياناً التلوين لتسطير أهم ما مر فيبقى في الذاكرة.

القانون العاشر (١٠)

قانون العبقرية وسنوات النضج

يحتاج المرء حتى ينضج إلى ثماني حجج؛ فإن أتم عشر فمن عنده، وما أريد أن أشق عليه، كما حصل مع خدمة موسى في بني مدين، ولكن بجهد متتابع بدون

انقطاع، وبجمع ما لا يقل عن مئة ألف وحدة معرفية، وفيها يصل إلى النضج المعرفي، ويمكن له أن يكتب بعد أن يكون قد قرأ في أقل تقدير حوالي ألف كتاب، أو كما طرحتها أنا في أكاديمية العلم والسلم الإلكترونية لتلامذتي حوالي ٣٠٠ كتاب في عشر سنين، بمعدل ثلاثين كتاباً كل سنة، بمعدل كتاب على الأقل كل أسبوعين من ذخائر الفكر الإنساني، وفي قناعتي أنه ليس ذلك الجهد الهائل، فأنا شخصيا أذكر ذلك اليوم، فعملت ما كنت أعمل في حفظ القرآن من الاستيقاظ الصباحي وأخذ المصحف في اليد، أو ساعة الغروب وكلاهما ساعتان فيهما رحمة من الله ولطف كبير، فكنت أحفظ ما استطعت ولم يكن في نيتي حفظ القرآن فجاء بالتدريج على غير قصد حتى اكتمل فما زلت أتمتع بمعانيه حتى اليوم، فأنا أقرأ دوريا كل يوم حصة فأتمتع وأجول بصري في لجج محيطه بحثاً عن درة جديدة من المعنى، وعلى السالك لهذا الطريق أن يحذر من الأمراض الثلاثة : الغرور والكسل والاجترار.

وعلي شرح ما مر وبسرعة :

فأما فكرة السنوات العشر فهي واضحة على القارئ أن يقرأ بهمة ونشاط ويودع التلفزيون وبرامج تضييع الوقت فهو في رحلة إلى الله، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، وهذا يعني أن يحضر كتب العشر سنوات وهي ستأتي في نهاية بحثي على الأقل مئة كتاب، ويفضل وهو الأحسن إلى درجة الإحسان أن يوصل الرقم إلى ٣٠٠ أو ٥٠٠ كتاب وسوف يرى هذه الكتب في نهاية هذه الرسالة الممتعة.

وأما الوحدات المعرفية فهي ماي سميها علماء النفس (التشنك CHUNK) ويضربون على ذلك مثلاً من لعبة الشطرنج، أن اللاعب الذي كون عنده أفكاراً حول اللعبة فهو حين يرى القول على طريقة الجشتالت أي الرؤية الشمولية، وكلمة جشتالت ألمانية تعني الشكل أو التشكل أو الرسمة والهيئة يقصدون منها أن نظرة واحدة إلى الموقف تصنع ذلك التصور العام المبني على أفكار سابقة. وهكذا فيمكن للشخص أن يبني في حدود مئة ألف وحدة معرفية يصل فيها إلى رأس سلم العبقرية والهضم المعرفي.

وعلى طريقة القراءة أن تكون كما شرحت أن يكون صاحياً يقظاً حاضراً الذهن يلقي السمع والبصر وهو شهيد، فلا يترك عويصاً ومستغلقاً كما يقول ابن خلدون إلا ويعيد فيه النظر كرتين وثلاث حتى يفكك المعلومة ويهضمها فتنتقل بذلك إلى نظام الفكر عنده وينسى أحياناً حتى مصدرها، ولكنها تصبح من التركيب أو نظام الفكر عنده.

مثل على ذلك التفريق بين الفكرة الثنائية وقانون الطيف، أو فكرة الاستحواذ القطبي ورؤية العالم بمنظار سوادي مظلم فهناك أمور تتولد من حيث لايشعر ولا يتوقع خلاف مقصودها، وهو ما يقوله القرآن: ﴿**لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾؟

الثنائية من منظور الفيلسوف أبكتيتوس:

"ليس هناك من شر في العالم. هات لي أي شيء وسوف أحوله لك بعصا هرمز إلى خير. كل ما في العالم خير بما فيه الفقر والمرض والعوز والألم والموت" هذا ما قاله الفيلسوف الرواقي في القرن الثاني للميلاد. ويمكن تطبيق هذا القانون على كل شيء بما فيه الاحتلال الأمريكي للعراق.

تدخل المنطقة الحقبة الأمريكية وينقسم الناس إلى فريقين من يرى في أمريكا استعمار جديد ومن يرى أنها فاتحة الديموقراطية. وهذه الرؤيا (الحدية) ضارة لأنها تنبعث من خطأ منهجي أن الألوان ليس فيها سوى أبيض وأسود. وأن الكون مركب على الثنائية. أو عندما نقول عن الشيء أنه حار وبارد وساكن ومتحرك وحامض وقلوي. فنمارس خطأ علمياً من حيث لا ندري. ومنبع الخطأ يأتي من تصور أنفسنا مركزاً للقياس ومحوراً للكون. ولم يقع العلم في خطأ أفدح من تصوره أن الأرض مركز العالم وكل من حولها يدور في حلقات دائرية مكتملة كما تصور ذلك أرسطو أن الدائرة صورة الكمال. حتى تبين أن رؤية بطليموس لا تزيد عن وهم وأن الأرض ليست مركز الكون وأن الدوران ليس على شكل دائرة بل على شكل إهليلجي (بيضوي) بما فيها دوران الإلكترون حول البروتون في قلب الذرة كما كشفها (سومر

فيلد). وما ينطبق على الفلك يصح على الفيزياء والضوء ليس أسود وأبيض بل هو طيف متدرج من الألوان بين الأحمر والأزرق استطاع نيوتن تحليله بموشور زجاجي. كما أن الحار والبارد لا يزيد عن الدرجات التي نشعر بها ودرجة الحرارة ٤٢ خطيرة على دماغنا ويجب تنزيلها ولو بمغطس ثلج ولكنها عادية عند الطيور. وتسبح الأسماك بدرجة حرارة قريبة من التجمد فلا تشعر بالقشعريرة. ونحن نرتعش بسبب تقلص العضلات المتكرر تحريراً للطاقة والدفء. ونعرف اليوم أن درجة التجمد صفر هي نزول متواضع لدرجة الحرارة والناس في كندا يبنون فنادق مؤقتة من الثلج فإذا جاء الربيع ذابت؟ واستطاع كالفن أن يصل إلى تحديد درجة البرودة القصوى نزولاً حتى ١٥ , ٢٧٣ تحت الصفر درجة تجمد الماء. أما ارتفاع الحرارة فلم يمكن تحديدها وهي على سطح الشمس ٦٠٠٠ ستة آلاف درجة وفي باطنها بضعة ملايين.

وما انطبق في الفيزياء ينطبق على الكيمياء والساكن والمتحرك، فالحموضة لا تزيد عن درجة تركيز أيونات الهدروجين في الوسط. والإلكترون يطير في غمامة حول قلب النواة بسرعة تقترب من سرعة الضوء. وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ويمكن نقل هذا القانون إلى عالم الفكر حينما تقسم الأشياء إلى صواب وخطأ وخير وشر. فكما توزعت درجة الحرارة على شكل طيف وليس على شكل استقطاب حدي، وأن الانتقال من الحار إلى البارد وبالعكس هو انتقال في (الدرجة) وليس في (الحقيقة) فيمكن فهم الوجود على هذه الصورة. والشر ليس قيمة موضوعية كما يرى عالم النفس (هادفيلد) في كتابه (علم النفس والأخلاق)، بل (وظيفة خاطئة). والوظيفة (الشريرة) "هي استعمال اندفاع (خيّر) في وقت خاطئ في مكان خاطئ نحو غاية خاطئة".

ويذهب القرآن إلى عدم اعتبار الشر شراً، بل قد يكون خيراً ﴿**لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم**﴾، كما أن كثيراً من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة

الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. كما أن المنافقين حينما يخاطبون أنهم يفسدون في الأرض يقولون إنما نحن (مصلحون)؟ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وكلمة (لا يشعرون) حقيقة اكتشفها علم النفس التحليلي وسماها (اللاشعور Subconcious).

وفي الفلسفة حيرت مشكلة الشر العقول ومعنى بناء هذا الكون المليء بالظلم وعدم الاكتمال. ولكنها مسألة يمكن فهمها ضمن (بانوراما) كونية وليس ضمن فكرة (الثنائية). فالشر ليس شراً كما يقول الفيلسوف (أبكتيتوس ٥٥- ١٣٥ م) الرواقي الذي كان لا يرى في العالم شراً مطلقاً بل درجة في الخير حسب علاقتنا به بما فيه الموت. فهذه الحياة مائدة عامرة دعانا الله إليها فإذا انتهت وجب أن نشكر صاحب الوليمة وننصرف شاكرين حامدين، لا باكين نادبين.

وهذه الفكرة تتصل بنظرة (البوذية) عن مفهوم (الصيرورة) وأن الحياة حركة فوق جسر ومن أراد الوقوف على الجسر وقف ضد تدفق مجرى الحياة وعانى. واستيعاب الصيرورة هو الذي يخلص من المعاناة. فيجب الاستسلام إلى السياق الكوني إن أردنا الوصول إلى السعادة الشاملة بدون نقص الممتدة بدون انقطاع (النيرفانا).

وقد نجح الفقهاء في استيعاب هذه المنظومة على أساس الطيف وليس الاستقطاب وتوليد أحكامهم وفق حركة ضمن طيف في خمس محطات تواترية بين أقصى الحرام مرورا بالمكروه ثم المباح وصولاً إلى المستحب وانتهاءً بالواجب. وهي حركة جداً موفقة أكثر من جعل الأحكام تتذبذب على نحو ثنائي بين الحلال والحرام، كما تتصدر العناوين بعض الكتب (الحلال والحرام في الإسلام).

والكهرباء هي حركة بين السالب والموجب وليست قراراً عند قطب فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ ولا تسبح النفس في حركة فعّالة أكثر من السباحة بين قطبي الأمل واليأس. ولا أدعى لتمثيل هذه الفكرة من رجل مطارد من جماعة تريد القبض عليه.

فأفضل ركض له هو وقوعه تحت تأثير نفسي بين الطمع بالنجاة والخوف من الوقوع في أيديهم. وتتوقف حركته طرداً مع الاقتراب من أحد قطبي اليأس والأمن. وهي محطتان ذكرهما القرآن أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وأن (لا يأمن) أهل القرى أن يأتيهم "بأسنا بياتاً وهم نائمون". فالتحرر من قطبي (الأمن) و(اليأس) هو الذي يفجر الحركة من أفضل ينابيعها طاقة. والاقتراب من أحد القطبين يعدم الحركة تدريجياً. فإذا استولى أحد الشعورين كفت الحركة عن التولد. فهي رياضيات نفسية.

وفي تحليل سياسي قام به (مالك بن نبي) في عالم الأفكار ذهب إلى أن الضلال السياسي سببه الوقوع في ذهان (الاستحالة) و(السهولة) والأشياء في طبيعتها ليست كذلك بل تسبح في طيف من الممكن والصعب والمستحيل.

والاستحالة تعني أن لا فائدة من بذل الجهد. ولكن كثيراً مما نظنه مستحيلاً هو صعب لا أكثر وهو يتطلب بذل الجهد المكافئ. كما أن بعض الأمور المستحيلة تتحول إلى ممكنة مع الزمن كما في نقل الصوت والصورة بالقوة الكهرمغناطيسية. وحين نقع في رهان الزهد بالموجود والحلم بالمستحيل نرسل عقولنا معطلة إلى إجازة مفتوحة؟

وموقف العرب من إسرائيل هو من هذا القبيل فإما كانت إسرائيل (دويلة عصابات) وإما (التنين النووي) يقذف بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ويل يومئذ للمكذبين؟ وهي ليست ذلك ولا تلك؟ وكذلك الحال مع الديناصور الأمريكي. ويمكن فهم الزلزال الأمريكي خارج منظومة زرادشت بين (أهرمان) إله الشر و(أهرمزدا) إله الخير.

وللخلاص من الأوهام العقلية الأربع لتحرير الإنسان كما قرر فرانسيس بيكون: أوهام الكهف والقبيلة والمسرح والسوق؛ فيجب النظر إلى الاحتلال الأمريكي من جانب أنه استعمار بغيض. ومن جانب أنه خير. وبين أن تستغِل أو أن تُستغَل شعرة. والفرق بين الزنا والاغتصاب والزواج أقل من شعرة فهي ممارَسة جنسية على جميع

الأحوال، ولكن بين السرية والإكراه والرضا. وفي يوم احتلت أمريكا اليابان وألمانيا. وروى لي الفيلسوف فيندوف من مدينة آخن من ألمانيا كيف جاع الألمان بعد الحرب فأكلوا لحاء الشجر وطبخوا أعشاب الأرض ولم يكن يملك أحدهم في جيبه شروى نقير. واليوم يحلق اليورو إلى سحب الغمام وتملك اليابان أضخم احتياطي من الدولار ٤٦٢ مليار مقابل ٨٠ مليار لأمريكا كما أوردته مجلة درشبيجل الألمانية.

وكان سقراط ينظر إلى ذباب الخيل أنه يهيج الخيل فيطرد عنها الخمول. ورأى (توينبي) المؤرخ البريطاني مصيبة إسرائيل أنها رحمة للعرب كي تخلق عندهم تحدي النهوض. ولا تتحول الدودة إلى فراشة فتطير بدون معاناة تمزيق السجف. ولا تتم ولادة بدون كرب ودماء. ولا أطهر من النار لتنقية المعدن من الشوائب. ولقد خلقنا الإنسان في كبد.

القانون الثالث عشر (١٣)

هواية صيد الكتب؟

عليك أيها القارئ الدؤوب أن تكون صياداً للكتب، ولو بلغة الماندرين واليابان والطليان والسويد والفرنسيس والجرمان، وعليك بمطاردة كنوز المعرفة بدون رحمة وتخاذل، ومثلاً على ذلك ما تعاونا عليه وأخي الفيلسوف البليهي فقد استطعنا أن نظفر بكتاب الطب التجريبي لكلود برنار بعد بحث ربع قرن، وكان ذلك بعد أن وقعنا على نسخة منه في مكتبة الإسكندرية، فقمنا بتصويره وأخذنا منه فوراً أكثر من نسخة، وهذا التبادل الثقافي ميسر الآن، وهو صور من عندي كتاب الخواطر لباسكال، وأنا بدوري صورت منه كتاب الشيفرة الكونية؟

وهناك من الكتب ما لا يمكن العثور عليها في أي مكان؟ فوجب أخذ صورة عنه فور وقوع الكتاب في اليد كما في كتاب "الإنسان يبحث عن المعنى" لعالم النفس النمساوي فيكتور فرانكل.

ويجب أن تعلم أن المعرفة الإنسانية كم هائل اليوم؛ فوجب فرز المعلومات بسرعة، وتوظيف الوقت للفكر الإنساني الهادي إلى صراط مستقيم، وهذا يتم كما قلنا بجهد عشر سنين عجافٍ تنتهي سمانا.

الناس مذاهب في الهوايات والصيد، ومنهم من يأتيهم رزقهم بكرة وعشياً فلا يأكلون من طعام الكتب إلا اللمم من هدايا الكتب؟

ولقد سمعت عن أناس يذهبون خصيصاً لتونس والإمارات من أجل الصيد، ولكن صيادي الكتب بعتبرون أكبر غزال، وأعظم لؤلؤة بدون غطس وبحث هي صيد الكتب.

وأنا شخصياً حين أزور أي شخص للمرة الأولى أدير بصري في بيته هل عنده من كتاب؟ أو إذا اجتمعت بمثقف ما هي أخبار سوق الكتب فهم أهم من السياسة وأخبارها من ضرب قتل نسف تحطم قطار وسقطت طائرة؟

ذلك أن المكتبة في المنزل تروي حكاية وجود عقل في البيت، وقد يتعجب القارئ لو قلت له إنني نشأت في بيت ليس فيه كتاب واحد، فوالدي كان بالكاد يفك الخط ما يسجل به حساباته، ويكتب رسائله بخط مائل كبير، وربما رأيته مرة أو مرة في دكانه وهو يقرأ جريدة، وكانت أفضل أحلامه زيادة ثروته قليلاً؟؟ فلم يحظ بالعلم ولا الثروة والواحدة تجر الثانية.

ولا أعرف أنا شخصياً من أين تسلط علي شيطان، أو بالأصح، ملاك القراءة، وبدأت منذ نعومة أظفاري فكنت اشتري بالمال القليل (الخرجية) قصص شكسبير من دكان أحمد الكيزاوي في القامشلي؟

وما زالت هذه متعتي في الحياة وكانت زوجتي رحمها الله من هذا النوع فلم تطلب مني يوما فستاناً ودكاناً، ولا مالاً وعقاراً ومتاعاً، بل متعتها كتاب ومقالة، ولقاء مع شخصية علمية، وخبر من خزائن العلم وبيوت المعرفة، عليها رحمة الله حتى اجتمع بها في جنات الخلد برحمة الرحمان.

ويوم السعادة عندي كتاب جديد لذيذ أقرأه أو تسطير مقالة إبداعية، ما دعا علماء النفس تسميتها النشوة بدون مورفين؟

وكانت الحرب علي شديدة في التعلم والبناء المعرفي، وفي يوم اعترض علي أحدهم حفظي للقرآن وقوفاً بزعمه لابد من الجلوس، وقال ثاني من أقربائي انتبه لنفسك فمن يقرأ يجنّ (لاتلق باللهجة الماردلية من حيث نشأت).

وكان نصف الأمي نصف المثقف عم لي اسمه زكي وكان ذكياً غنياً فدعاني مرة للقراءة من متكتبته فكانت بضع كتب من مجلة العربي الكويتي فانكببت على التهامهما.

وأذكر السخرية اللاذعة التي كانت تنالني ممن حولي حين بدأت في كتابة القصص الأولى، فكففت واستغنيت وتوقفت عن الكتابة.

وأذكر جيداً من طفولتي وأنا أدفع ربع ليرة لزميلي في المدرسة أن يتنازل عن قصته التي توزعها علينا مكتبة المدرسة كل أسبوع فكنت أقرأ قصتين في الأسبوع واحدة مدفوعة الثمن من جيبي؟

وبدأت في تعلم النجارة فعملت خزانة كتب ثم بدأت بجمع الكتب، وما زلت وفي اصطياد غاليها، وأذكر جيداً من حلب مكتبة عجان الحديد صاحب المكتبة العجيبة فليس ثمة كتاب في الشرق إلا وهو عند الحلبي عجان الحديد نسخة منه أعني كتب التراث وليس المعاصرة وليس في مقدوره؟ وهناك العديد من الكتب التي تقع تحت يدي لا تجد لها نسخة أخرى في السوق بعد فترة؟ نموذج ذلك كتاب تحليل الخلق لعالم النفس هدفيلد فقد وقع تحت يدي قبل أكثر من ثلاثين سنة فأخذ صديقي البليهي نسخة مصورة عنه وهو من أجود ما كتب وترجم من علم النفس.

(١٤) القانون الرابع عشر

الخبير في الكتب

يشبه خبير اللؤلؤ البحريني وصاقل الألماس الهولندي، فيقلب الكتاب بسرعة وفي دقائق؛ فيقول يبدو أنه دسم فلنتجرأ ونشتري، مع هذا فكثرة الكتب ليست الدليل على سمو التفكير، ومن ملأ بيته بكتب السحر تحول إلى ساحر، وبيت الإنسان مؤشر عقله هل فيه مكتبة وكتب؟

وإن كانت فهل هي مذهبة الأعقاب جيدة التصفيف؟ أم أنها منوعة الأحجام والألوان فيها من الأسماء أجنبية أكثر من العربية؟

لقد عمد بعضهم إلى وضع ورق جدران على شكل كتب بدون كتب، وفي القرآن: الحمار الذي يحمل الكتب على ظهره لا يستفيد منها؟

قال الرب: ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين** ﴾؟

وفي القرآن تتعدد الأمثلة بين الحمار والكلب والبعوضة والنحلة والذبابة، بين حمار ينهق فيقلق، وكلب يلهث إن حملت عليه أم لم تحمل، وبعوضة ليس في سلم المخلوقات ما هو أدنى منها فيضرب الرب المثل بعوضة فما فوقها، ونحلة تأوي إلى الجبل ومما يعرشون يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه في شفاء للناس، وذبابة نحتقرها يتحدى الرب البشر أن يخلقوا مثلها لينتهي بجملة مزلزلة: ضعف الطالب والمطلوب.

أهمية الأمثلة هي النزول للطبيعة وتحريكها أمام العقل ليتأمل، كما رأى ذلك فيلسوف التاريخ شبنجلر أن الكل يرى في الجزء والمعجزة في أبسط أشكالها وأبسط الإنتاج يدل على المصنع؟ وليس ماحدث لجماعة شهود يهوه الذين يزينون لأتباعهم أنها مكان ضعف في القرآن، والقرآن يجيب فيقول: ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾.

والقرآن في مكان آخر يقول وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون، بل تجرأ عراقي فسأل في موقع الحوار المتمدن فزعم لي أن في القرآن أخطاء لغوية فقلت في نفسي لقد خرج علينا ولا شك جاحظ القرن العشرين وسيبويه القرن الواحد والعشرين.

ومنذ زمن بعيد حاول كثير أن يجدوا الثغرات والمتناقضات فخرجوا منه بالإيمان به، وأنا شخصيا أملأ روحي كل يوم من هذه الطاقة التي لا تنضب الكتاب والذكر الحكيم فأقرأ ما شاء لي الرحمن فأشحن روحي المتعبة من هموم الحياة بروح وريحان وجنة نعيم.

خبرة معرفة الكتاب تأتي من خبرة طويلة وتمحيص آلاف الكتب من ذخائر الفكر الإنساني المنوع بالطول والعرض والعمق، يصبح المتمرس خبيراً ماهراً يعرف دسامة الكتاب من ركاكته وتهافته؟

أذكر نفسي جيداً في مسجد الفرقان في حلب حين وقع تحت يدي كتاب محنة ثقافة مزروة، فقرأته في ساعات في أقل من ليلة واحدة. وفي باريس وقع تحت يدي كتاب باتريك سيل عن سوريا الحديثة وهو ٨٠٠ صفحة فتركت كل شيء وقرأته في يومين؟ ووقع تحت يدي يوما كتاب شينتارو أيشيهارا عن اليابان أنها تقول لأمريكا لا فقراته في يومين؟ وهكذا تنتزع الإنسان من هدوئه تلك الكتب الرائعة.

وأنا رجل أؤمن بذخيرة الفكر أنه يجب تنميها دوما ولذا أراجع الإفكار الجيدة من الكتب الجيدة دوما، واليوم كنت أقرأ في كتاب ساعات القدر للمؤلف النمساوي عن الساعات الحرجة التي قررت مصائر أمم وشعوب ومعارك فقرأت خلاصة أفكار من الصفحة الأولى وهي عادتي مع الكتب الجيدة وكتاب ساعات القدر يروي ١٤ قصة من الساعات الحاسمة في تاريخ الإنسانية ولقد أضاف لذخيرتي من أسرار التاريخ الشيء الجديد، وعرفت مثلا سر سقوط القسطنطينية بيد العثمانين من باب مهمل، وقصة سايروس فيلد الذي ربط أوربا بأمريكا بكابل تحت البحر الأطلسي في ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ فشل فيها عدة مرات ولكن نجح في الأخير، وكذلك سر

هزيمة نابليون في واترلو من جنرال لم يحسن التصرف فخذله في ساعة العسرة، أو ذلك الفريق الذي اكتشف القطب الجنوبي وما خط من كلمات خالدات في اللحظات الأخيرات. . .

من امتلك الخبرة قلب الكتاب في دقائق ثم قال هنا علم يجب العكوف عليه؟

القانون الخامس عشر (١٥)

أمكنة الإنتاج المعرفي

أمكنة الإنتاج المعرفي غربية أو مترجمة شرقية في معظمها؟ فلا تحزن أخي؟ لأن الإنتاج المعرفي في معظمه غربي فوجب التعرف ومسح العصر، وأنا أقلب في الكتاب لأعرف المؤلف؟ فإن كان أجنبياً قلت ربما فيه خير وتعب، وليس أكيداً، والعكس بالعكس، وكتاب عبد الستار إبراهيم في علم النفس، ومحمد عزام في فلسفة العلوم والابستمولوجيا، ووحدة المعرفة لمحمد كامل حسين، وميلاد مجتمع لمالك بن نبي، ومن سرق الجامع للنيهوم، ووعاظ السلاطين للوردي درر بهيجة للمعرفة.

ولكن قصور الثقافة العربية جعلنا متوقفين في مربع الزمن لا ننتج فضلاً عن الاطلاع على ما ينتج؟

ومن يكتب في الصحافة كثيرون ولكن لا قلمهم سديد ولا هامش الكتابة يتسع للجديد؟ ومنه كان على الكاتب أن يتبع حكمة ديكارت القديمة فيقول قولاً لايوقظ نائماً ولا يزعج مستيقظاً.

أذكر من ألمانيا جيداً تلك الواقعة التي حدثت معي مع الجراح كارل توما الشرس أنني كنت قد أمضيت في نظام ما سمي بالدراسات العليا في مشفى المواساة في دمشق التابع لكلية الطب وأنا أظن في نفسي أنني أعمل في أرفع مستوى لاكتشف بنفسي أن المشفى الجامعي في بلدي لا يقترب من أصغر مشفى في أوبرفرانكن في بافاريا

(Oberfranken - Bavaria) وهو اعتراف مؤلم ولكن لابد منه فليس مثل الحقائق الموجعة سبباً لليقظة؟ أذكر حينما ساعدته ومعي خبرة سنتان في الجراحة أنني لم أتعلم بعد أصول العقدة الجراحية، ثم عرفت من جديد أن كل أمر هناك له تقاليده وكتبه في علم المنحلة والدباغة إلى الجراحة والخياطة فكله مستوى مختلف، وهذا أمر يجب الانتباه له في عملية البناء الحضاري، أن الحضارة ليست شراء أشياء الحضارة ولو توفر المال، وهذه فكرة استفدناها من مالك بن نبي حين فرق بين القدرة الحضارية وشراء منتجات الحضارة، فضرب مثلاً في ذلك أن أمريكا لا تستطيع شراء مدينة واحدة من مدنها لو أرادت ولكن لو تهدمت مئة مدينة فيمكن لأمريكا أو ألمانيا أن تعيد بناءها فهذا هو الفرق الجلي بين قدرة الحضارة وأشياء الحضارة؟

وهذا يقودنا إلى عدد من الأفكار الأولى أن العصر الذي نعيش فيه ليس من صنع أيدينا ولذا فهو لنا مثل عالم سندباد والجني الأزرق؟ والأمر الثاني اختلاط الأمر علينا بين الشراء والبناء، فنظن أننا لو اشترينا طيارة أو سيارة أو كلفنا شركة ببناء مشفى فقد بنينا الحضارة وهذا همّ كبير يجب التحرر منه، وهذا أيضاً الذي لفت نظري في مشافي عملت فيها فترة طويلة فكانت في البداية ألماسة تلمع وبعد عقد من الزمن توحلت إلى كارثة تلسع؟

والسر في هذا هو أن الحضارة ثلاث كلمات: الإبداع والخلق، ثم الصيانة، وثالثاً التطوير.

فهذه مشعرات ومؤكدات الوجود الحضاري؟

فإذا أردنا التأكد من وجودنا في السلم الحضاري فلننظر هل نستطيع صيانة الأشياء التي نشتريها وهل نحافظ عليها سليمة تعمل أم هل يمكن لنا أن ننتج مثلها وأفضل؟ أم هل يمكن تطوير الآلة التي اشتريناها؟ أم أننا ندمر ولا نحافظ على الأشياء التي بين يدينا فهذه مؤشرات مهمة جداً على الصحة والمرض.

الخلاصة التي انتهي إليها أن أمكنة الإنتاج المعرفية غربية في معظمها، فوجب علينا أن نتعلم لغة أجنبية ونعلم أبناءنا أن يتقنوها ليس مثلنا مكسورة بلحن غريب، بل

يمسكون بزمامها مثل أحد أولادها، وأنا شخصياً مشيت في هذا التقليد وأتقنت الألمانية وأقرأ فيها كل يوم، وبناتي وأحفادي في البيت يتكلمون ثلاث لغات بكل بساطة مع التمكن؟

بل لقد وقع تحت قراءتي أن عالمة من إسرائيل فازت أو ستفوز بجائزة نوبل للعلوم وأظنها من جامعة حيفا، وأن التفوق الإسرائيلي أساسه العلم، وهو أمر لن يستمر إلى قيام الساعة بل سيحيق بهم ماكانوا به يستهزئون؟

بمعنى أن قوة إسرائيل هي من البناء العلمي وهي جيب غربي ومشروع استيطاني كما فعل الأوربيون مع سكان الأمريكيتين؟ وأن العالم العربي لم يدخل محراب العلم؛ مما دفعني أن أعكف على موسوعة كاملة بعنوان الطب محراب للإيمان.

القانون السادس عشر (١٦)

مؤسسات التفكير الإسلامي (Think - Tanks) لتنشيط مفاصل الفكر في العالم العربي

لقد حاول المعهد العالمي للفكر الإسلامي قفزة من هذا النوع على يد إسماعيل الفاروقي، وكذلك اقترح أبو شقة مجمعة خبراء علم الاجتماع، ومن جملة ما أشجع عليه مشروع الجينوم القرآني؛ فأقترحه على كل مقتدر، لتطوير هذا المشروع في إخراج تفسير قرآني عصري بالصوت والصورة، واعتماد أدوات العلوم الإنسانية المساعدة، فلا يمكن فتح جمجمة مريض بأدوات فرعونية جراحية، وهذا المشروع بدأ به الألمان فسبقونا، ورصدوا له ملايين اليورو، وشكلت له لجنتان واحدة للمعلومات، في كل ما يتعلق بالقرآن على شكل بنك معلومات، والأخرى في تحليل وفرز المعلومات، بالطبع بدون أي تابو.

(١٧) القانون السابع عشر

ويبقى قانون ابن سينا مع النوم دليلاً

إذا قرأت فلم يفتح الله عليك، فأعط التعليمات إلى دماغك الذي لا يعرف النوم بالاشتغال على البحث، فقد كان عويص المسائل يفتح على ابن سينا ليس في اليقظة بل في النوم ومع الحلم، فيستيقظ وقد انجلت المسألة، ذلك أن الدماغ يبقى في حالة عمل، ولكنه ينقل نشاطه من مجال إلى مجال أثناء النوم، ولذا كانت المنامات حالة نشاط الدماغ في حقل خفي لا يعرف عنه العلم كثيراً. .

وحين يغلق عليك فهم كتاب ونص فاصبر صبراً جميلا، واتركه للدماغ يعمل عليه بهدوء، فقط اعط التعليمات للدماغ، ثم اذهب واسترح، وأدي نشاطاً مختلفاً ولو سباحة ورياضة حمل أثقال؛ فالدماغ لا يعبأ بذلك بل يسلك سبل ربه ذللاً.

كما حدث معي مع أول قراءة في كتاب نديم الجسر في كتابه قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، فقد كان القسم الفلسفي صعب لم يفتح لي بسرعة ولأول مرة، وحين استعنت بأستاذ الفلسفة كان يتظاهر بأنه فهم ويشرح وأنا أعرف أنه لم يفهم شيئاً، وحين اجتمعت به بعد ثلاثين سنة كان مكانك راوح؟

(١٨) القانون الثامن عشر

قانون ينابيع المعرفة أو قانون ديكارت

لا تقرأ ما يكتب عن العظماء، ولكن ما خط يراعهم هم بالذات، وإذا أردت البناء المعرفي فامض إلى المصادر الأساسية.

وكل من أسلم من الغربيين لم يقرؤوا التفاسير، بل مضوا إلى القرآن مباشرة، فذهلوا من التحليق فوق إحداثيات الزمان والمكان والأشخاص، وهو ما أشار له سيد قطب عند قوله تعالى: ﴿ **وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ أن الكلمات تشي

بطبيعة فوق أرضية، فما معنى البر والبحر وورقة الحب والرطب واليابس والظلمات في جملة واحدة؟

وكذلك حصل مع إسلام (جيفري لانج) أستاذ الرياضيات الأمريكي و(يوسف إسلام) المغني البريطاني (كات ستيفنس)؛ فلفت نظره منذ مدخل الكتاب أنه ليس ثمة مؤلف.

القانون التاسع عشر (١٩)

قانون اللغتين

فيقول إنه لا يكفي أن يقرأ الإنسان بلغة واحدة، حتى لو كانت ترجمات جيدة، بل لابد من الرجوع إلى الينابيع وبلغتها، هذا لمن أنعم الله عليه فأتقن، وهي مهمة شاقة، خاصة من تعلمها على كبر، فمن فاتته هذه المكرمة فعليه بالنهل من الثقافة الأجنبية لأن المعرفة تنتج هناك ونحن توقفنا منذ عصر المماليك الشراكسة أيام سعيد جقمق، كما أرخ بذلك لهذه النهاية ابن خلدون من الانطفاء الكامل والخسوف الكلي، أو ابن الخطيب في شعره: كنا عظاما فصرنا عظاما!!

ويذهب مالك بن نبي في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) إلى تفسير رائع في جدوى معركة أنقرة عام ١٤٠٢م تلك التي وضعت حداً للاندفاع العثماني لاحتلال أوربا بسيف تيمورلنك، وكانت كلا القوتين إسلاميتين؟

القانون العشرون (٢٠)

المسح الراداري للعصر

إن درس التاريخ أكثر من رائع وينفعنا فيه قانون الغزالي عن المسح الراداري للعصر، ففي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي كان العالم الإسلامي ينهار واكتمل

الانهيار في منتصف القرن الثاني عشر بقرني الخلافة: في الغرب إشبيلية عام ١٢٤٨م بالمنجل الصليبي، وفي الشرق بغداد تجرف بالحصادة المغولية عام ١٢٥٨م.

وفي هذا الوقت العصيب ولد الغزالي فارتسمت معاناة القرن في مخيلته، وأدرك أن الانهيار الخلقي والعقلي هو أرضية الانهيار السياسي، فصدم واعتزل ثم خرج، وكتب المنقذ من الضلال يمسح أهم أربع تيارات في عصره: المتكلمة والفلاسفة والباطنية والمتصوفة.

وكتب تهافت الفلاسفة، ليأتيه الجواب من الغرب في تهافت التهافت من ابن رشد.

كما هو الحال بين نقد العقل في المغرب على يد الجابري، ليأتيه الرد في نقد النقد من الطرابيشي المشرقي. وكلاهما جهد مزّكى ومحترم.

وفي الوقت الراهن ومن خلال عرض هذا الكم الضخم من العمل الموسوعي فهو يهدف إلى مسح العصر بعد أن لم يبق أربع اتجاهات بل لا يقل عن أربعين اتجاهاً تحتاج إلى عشرة مضغوطين في واحد من أمثال الغزالي القديم؟

القانون الحادي والعشرون (٢١)

قانون المدارس المعرفية

ففي القراءة يجب الانتباه إلى التكوين العقلي لكل كاتب هل هو كاتب وكتاب أم منهج ومدرسة، فقد يكون كتاب واحد ولكن مؤسس جداً، وقد يكون عادياً تكفيه القراءة الواحدة، وقد يكون خلفه مدرسة كما في عالم الاجتماع العراقي، ومالك بن نبي صاحب دراسات مشكلات الحضارة، والشحرور الشامي، وجودت سعيد داعية اللاعنف السوري، والفيلسوف المعرفي السعودي البليهي، والنيهوم الليبي، وعلي حرب اللبناني، والجابري المغربي، وفؤاد زكريا المصري. وهي عينات وليست نهاية الأشياء والعلوم، فالعالم العربي فيه عشرات العقول المبدعة، ولكن الاتجاه العام للعلم كنسق معرفي لم يتشكل بعد في العالم العربي.

القانون الثاني والعشرون (٢٢)

قانون العودة للطفولة مع الفلسفة

الطفل يضع الأسئلة الضخمة كالجبال، لماذا نولد أين نذهب من أين نأتي ويتكلم الطفل بعفوية ويراقب بروح الدهشة والفضول فيتعرف في المحطة والقطار على من حوله من الآباء العابسين، حتى يصاب بعدوى المرض فينكمش وينطفئ.

والفلسفة هي تلك الروح الطفولية من التعلم وعدم الكف عن السؤال وبدون خوف؟

القانون الثالث والعشرون (٢٣)

قانون الكم التراكمي والتغير النوعي

أكاد لا أصدق نفسي أحياناً وأنا أستعرض كم الكتب الجيدة التي قرأتها منذ نعومة أظفاري، وبعضها ضاع؛ فأنا عليه حزين، وبقي في الذاكرة منطبعاً؛ فهي مكتبتي؟ هكذا أنا أكتشف نفسي مع استعراضي للكتب في هذه المحاضرة، وأقول يا سبحان الله.

ولكن من يأتي بعدنا يجب أن يتجاوزنا ويبتسم لسذاجتنا الفكرية أو سبقنا في بعض الحقول المعرفية، كما نعترف لابن خلدون بعد مرور ستة قرون على كتابته، بحيث يعتبره توينبي المؤرخ البريطاني أن عمله أعظم عمل أنتجه أي عقل في أي زمان ومكان.

وكذلك الحال في الكم المعرفي المتراكم؛ فمن واظب بنى نفسه معرفياً بدون توقف، فوصل عتبات من المعرفة رائعة، وعوالم بهيجة من الفكر، مثل من اعتلى جبلاً ورأى المناظر أمامه من علو.

وكذلك الإشراف المعرفي بعد تحليق رحلة أربعين عاماً مع الكتب في مغامرات وادي الأفكار؟

القانون الرابع والعشرون (٢٤)

قانون خمسة آلاف كتاب

حتى تؤلف كتابا اقرأ خمسة آلاف

يعتبر ابن خلدون أن كمية من حفظ عشرة آلاف بيت من الشعر تدخل المرء مملكة الشعر فتفيض القوافي من جنانه على لسانه .

ولم يتحسن بياني ونطقي أنا شخصيا إلا بعد حفظ القرآن ، ولهجتي بنطقي الأقرب للفصحى ، يحتار فيها من يسمعني من أين بلد أنا؟ ولو تكلمت اللهجة الماردلية ، من حيث ولدت وترعرعت ما فهمني أحد قط ، ومع حفظ القرآن استقام لساني مع القواعد ، وكانت كريهة بغيضة لقلبي من ذكريات أستاذ كان يجلدنا ونحن طلاب ابتدائي للنحو والصرف .

ولم يكن ديورانت صاحب موسوعة قصة الحضارة يكتب مجلداً من مجلداته الأربعين ، إلا بعد قراءة خمسة آلاف كتاب ، وزيارة علمية لمنطقة الحضارة من هند وصين وطليان وعرب ويابان .

وكذلك فعل محمد عنان في موسوعته حول التاريخ الأندلسي وشمال أفريقيا من مرابطين وموحدين وتاشفين وأبو يعقوب .

وروى لي جودت سعيد ملازمته للمكتبة الوطنية في القاهرة عشر سنين بعشر ساعات يوميا ، في لذة لا تعدلها لذة .

وكذلك حبس نفسه كارل ماركس في مكتبة لندن عشر سنين قبل أن يخرج بكتاب رأس المال .

ولم تكن مقدمة ابن خلدون لتظهر للسطح لولا العزلة في قلعة عريف في المغرب .

وكذلك فعل عبد الحليم أبو شقة في كتابه موسوعة تحرير المرأة في عصر الرسالة فاكتشف حقولا مجهولة في قضايا المرأة كنت أنا وزوجتي رحمها الله ممن استفاد منه جداً .

القانون الخامس والعشرون (٢٥)

دعوة المقتدرين إلى ثلاث

طباعة هذه المحاضرات على شكل كتب توزع مجانا أو بسعر الكلفة.

ـ ترجمة ذخائر الفكر فلا نهضة بدون ترجمة، ومنها مجموعات الكرونيك الرائعة، ورصد جزء خاص عن تاريخ الإسلام كما فعلوا في تاريخ المسيحية.

إن اليابان لم تكن لتنهض بدون فتحها للعلم أياً كان مصدره، فالعلم تراكم وذخيرة إنسانية وليست نتاجاً غربياً، بل عملاً تراكمياً عبر ستة آلاف سنة بعد بناء الحضارة واختراع الكتابة.

وهو ما أشارت إليه فواتح السور بالحرف، فالحرف كتابة، والكتابة هي الذاكرة الجديدة للإنسانية التي لا تبلى.

وحالياً يوجد مشاريع لإيداع ثمرات الأقلام وإبداع العقول، على شكل مايكروفيلم في صدوع الجبال الرواسي في فرايبورج في ألمانيا، أو حتى التفكير في إيداعها على ظهر القمر، فيما لو تعرضت الحضارة الإنسانية لخطر الانمحاق والزوال فتكتشف من كائنات ذكية أخرى.

ـ مشروع الجينوم القرآني الذي سبقنا إليه الألمان في مشروع ماموت يستغرق ١٨ سنة حتى عام ٢٠٢٥ في تبني وإخراج ثلاث أمور:

ـ مشروع الأحاديث الحيوية وإن أمكن بطريق الكارتون.

ـ مشروع تفسير عصري بالصوت والصورة مع استخدام العلوم الإنسانية المساعدة.

ـ إنتاج عصري بالكارتون للسيرة في وجه ما فعل الحاقدون في الدنمرك.

القانون السادس والعشرون (٢٦)

مدارس مزعجة أو غير مرحب بها

أو هي في عين بعضهم خطيرة مضللة

هناك بعض المدارس التي قد تزعج مثل الشحرور وجمال البنا والنيهوم والجابري والوردي وجودت سعيد وابن نبي والنبهاني وشريعتي وراسل، ولكنها تبقى مدارس يجب الاطلاع عليها كما فعل الغزالي في فكرة المسح الراداري؟ راجع الفكرة ٢٠ عند الغزالي.

ـ والأمر الثاني هناك مصادر باللغات الأجنبية لابد من اختراقها، ولكنها من أبدع ما سطره يراع الإنسان.

القانون السابع والعشرون (٢٧)

السفسطائيون أو مشاريع تبسيط العلوم وتحبيب المعرفة للأطفال لإنتاج جيل من العباقرة

حرصت منذ أربعين سنة في غوص أعماق محيطات المعرفة لوضع اليد على درر المعرفة، ثم محاولة إخراج الإنتاج المعرفي، على شكل موسوعة معرفية تضم نحو عشرين فرعاً معرفياً، من فيزياء الجزئيات دون الذرية، والفلسفة رحم العلوم، مروراً بعلوم الألسنيات والأنثروبولوجيا على خطى الإنسان، وانتهاء بالتاريخ وعلم النفس وعلوم المجرات ومستقبل الكون والخيال العلمي، بلغة بسيطة تجمع بين جمال الأدب ودسامة المعلومات كل ذلك معطر بروح القرآن. ولقد استفدت من عالم الاجتماع العراقي الوردي في قوله إن عمل السفسطائيين قديماً في أثينا لم يكن تزويق الحقائق، بل تبسيط المعرفة للناس ونقلها بأدوات مفهومة.

القانون الثامن والعشرون (٢٨)

الثقافة الموسوعية

علينا أن نبني عند أطفالنا ثلاثاً: روح البحث بدون ملل، والسؤال بدون خوف، والانفتاح المعرفي بدون حدود. وأن نترك للطفل روح الاستغراق والفضول ونهم التعرف والتعلم فلا نقتل إمكانياته بالرباعي: ما في، ما يصير، ممنوع، وحرام.

وهذه تأتي من خلال المعرفة الموسوعية، في أبعاد المادة والفيزياء الذرية، وتراكيب السدم، وتضاعيف النفس، واختلاف المجتمعات وتباين الثقافات، وتنوع الألسنة.

يجب أن نبني المعرفة الموسوعية طبقاً عن طبق، بآلية الحذف والإضافة، بدون خوف من أي علم؛ فما كان باطلاً رددناه، وما كان تافهاً أهملناه، وما كان ثرياً استوعبناه، وأضفناه إلى تراكيبنا المعرفية.

علم من علم وجهل من جهل.

والمعرفة الموضوعية ذهب خالص، تصرف في أي سوق فكرية، والقرآن كون قائم بذاته، لا يناله الزمن والبلى؛ فيجب أن لا نخاف عليه، بل نخاف على أنفسنا، وكل الأمان بالتسلح بمفاهيمه.

القانون التاسع والعشرون (٢٩)

ملء الثغرات المعرفية في مدى عشرين سنة من الكدح المعرفي

بعد رحلة السنوات العشر، وتحقيق مئة ألف وحدة معرفية، يتم الانتقال إلى العقد الثاني من الكدح المعرفي في رحلة الوصول إلى النور الإلهي، فيجب أن يسأل الإنسان نفسه: ما الشيء الجديد الذي يجب أن أعرفه؟ أنا شخصيا سألت نفسي كثيراً مثلاً عن ثغرة التاريخ الروماني؟ أو فترة الحكم العثماني والمماليك وعصر نابليون؟ أو نقد العقل الخالص لإيمانويل كانط؟ أو ما هي الديمقراطية؟ والبرمجة اللغوية العصبية؟ وزوال

مغناطيسية الأرض؟ وتيارات النينو في المحيط؟ ولماذا يحدث التسونامي؟ ونفسيات الشعوب؟ وهل يطعن الثور الأسباني الخرقة أم المصارع؟ ولماذا تدفق الإسلام في القرن السابع الميلادي؟ وليس قبل ذلك أو بعده؟ إلى عشرات الأسئلة المغايرة والمشابهة؟

وهكذا أمام كل ثغرة أحاول استحضار الكتب والشغل عليها؟

فكانط فهمني ديورانت جدله، ومجلة الشبيجل الألمانية نقلت لي بأقلام عشرات الباحثين مفاهيم السيطرة والانصياع، والتسونامي وإنسان نياندرتال؟ وتعرفت عن طريق قناة الديسكفري إلى خطر زوال مغناطيسية الأرض، وموت الكوكب كما مات المريخ قبل خمسة مليارات سنة.

أما التاريخ الأندلسي فموسوعة عنان في سبع مجلدات قرأتها في ستة أشهر.

وأما التاريخ اليوناني والروماني فقصة الحضارة لويل ديورانت، والبرمجة العصبية اللغوية كتاب التكريتي فهمني أسرارها وحل لي عقدها؟

أما عبد الرحيم بدر فخرقت معه النسبية بنسبية، ومع قرني الفيزياء من الكوانتوم والنسبية كان كتاب ستيفن هوكينج في (قصة قصيرة للزمن) خير صديق ونعم الأنيس.

القانون الثلاثون (٣٠)

الحجج المعرفية، بمعنى النضج المعرفي والرسوخ العلمي، وبتعبير القرآن والراسخون في العلم يقولون كل من عند الله

وهذا يأتي في العقد الثالث من الكدح المعرفي، عندها ومع النضج تتوالى المؤلفات والمراجع وترشد الأمة برشد أبنائها، وهو ما فعله المصطفى ﷺ بتربية جيل كامل على مدى ثلاث عقود فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وديناميكية هذا الفعل هو أن من نضج واستوى على سوقه بقراءة خمسة آلاف كتاب ومرجع يصبح حجة في العلم ونحن ما ينقصنا هم الخبراء، والخبراء الناضجون بين الاطلاع الواسع والخبرة الميدانية الكثيفة.

وكما كان الحال في الطب فحتى يخرج الاستشاري المتمكن يحتاج إلى رحلة ثلاث عقود كذلك كان الحال في النضج الثقافي.

والمثقف هو من غادر حقل التخصص وبدأ في قراءة شيء لا يعمل في حقله، فيفاجئ بتدفق الأفكار من الحقول الجديدة نفسها على الغرار نفسه.

والمهم في الرسوخ أن يتم إنتاج أدمغة ممتازة في كل حقل معرفي، والعلماء هم الكادر الذي يقي الأمة من الانهيار، لأن عناصر التغيير هي ثلاث: أفكار يملح بها المجتمع، وشخصيات ناضجة، ومؤسسات مدنية علمية فعالة، فكما يقضى على الأمراض بثلاث من طاقم فني (أطباء وفنيين وممرضات) ومؤسسات (مشافي ومخابر) ووعي صحي، كذلك الحال في كل قطاع من الاقتصاد إلى السياسة.

القانون الواحد والثلاثون (٣١)

مجموعة الأفلام الراقية

تحدثنا عن الكتب والأفكار وأحد روافد الفكر الهامة هي الإنفوميديا وأهمها التلفزيون وبرامجه بين إباحية ورقص وعلم ووثائق فهو يضم الغث والسمين والعسل والسم.

وأنا أقترح بناء مراكز علمية تجمع أجمل الأفلام وأهم الوثائق لتموين عقول الشباب بأفضل ما جادت به السينما، وأنا شخصياً عندي الآلاف من الأفلام بلغات شتى ومواضيع منوعة وهي من أجمل مصادر تخصيب العقل وإمتاعه.

القانون الثاني والثلاثون (٣٢)

تطويع الفنون

من كارتون وفوتو شوب وكاريكاتير للقلم والكتاب، بل وكتابة أنيميشين لقصص تاريخنا، مثل مونت كريستو وروبنسون كروزو وما شابه.

وحرب الدنمرك بأفلام الكاريكاتير يجب أن تكون بأسلحتهم نفسها، كما كان يفعل المصطفى ﷺ لحسان بن ثابت فيقول بما معناه: اهجهم وروح القدس معك.

القانون الثالث والثلاثون (٣٣)

قانون الحفظ والفهم

لا توجد آية واحدة في الإلزام بحفظ القرآن، وعكسها موجود: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون** ﴾.

وعشرات الآيات تنوعت حول التدبر والفهم، أحصيت منها أكثر من ٤٢ آية، ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾، ﴿ **هل في ذلك قسم لذي حجر** ﴾، ﴿ **إن في ذلك لآيات لأولي النهى** ﴾، ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾.

مع هذا فالحفظ ورطة لأنه يخلق تحدي المحافظة، أما الفهم والتدبر فهي آلية نامية غير روتينية، ومنه أشار القرآن للعلماء أن يرفعهم بالإيمان والذكر الحكيم والعلم المثمر.

وتبقى ملكة الحفظ أحد ملكات الدماغ الأساسية فوجب صقلها؛ وأنا شخصيا اشتغلت على حفظ القرآن ثماني سنين عددا أثناء دراستي للطب والشريعة معا.

القانون الرابع والثلاثون (٣٤)

قانون طوفان المعلومات مقابل شح المعلومات

ما نعاينه اليوم ليس قلة المعلومات بل انهمارها بأشد من تسونامي، وأنا شخصياً يأتيني على الانترنت يومياً أكثر من ٣٠٠ رسالة، وأول شيء أفعله ليس القراءة بل المسح، وكنا سابقا نفرح بقدوم رسالة لأحدنا، وهذا يعني سرعة الفرز واستقبال الجيد، والاستفادة من الدسم.

القانون الخامس والثلاثون (٣٥)

قانون لو كررت فكرتك عشرين مرة وظننت أنهم فهموا عليك فأنت متفائل

حين نتكلم فإن المستمع يفهم بآلات فهمه، وهذا يعني أن الصيني لن يفهم شيئاً من الصربي إلا بحركات اليدين والسيمياء الوجهية وحركات اليدين وهي لغة عالمية ولكن محدودة جداً. أما لغة الخطاب فيجب أن تمشي حواجز فوق الحواجز من اللغة واللغة الثقافية، وهكذا فمن يسمع يؤكد ما عنده أكثر مما يتلقى من الآخر. وأذكر يوما أنني خطبت الجمعة ولما سألت أحد السامعين عما كنت أتحدث؟ قال: طبعاً كنت تتحدث عن الإسلام؟ وبالطبع لم أكن أتحدث بالكفر؟ وينقل عن حسن البنا قوله أن لا يتفاءل المرء كثيراً حين يتحدث مع الآخرين أن فكرته تنتشر، فقال لو كررتها عشرين مرة وظننت أن الآخر فهم عليك فأنت جدا متفائل. ومع أن النبي كان يتحدث بلغة قومه نفسها ولكنهم كانوا يقولون ما نفقه كثيرا مما تقول ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز.

القانون السادس والثلاثون (٣٦)

قانون المستقبل لشباب الإنترنت وجيل الكي بورد

من لا يستخدم الإنترنت نصف أمي، ومن لا يقرقع أصابعه على الكي بورد انتسب إلى عصر الديناصورات البائد.

ولذا فالأمل هو في الشباب الذي تواصل على مساحة قرية الكرة الأرضية إلكترونياً، فالعالم اليوم ديجتال يتحرك بسرعة النور ناراً.

وسوق الزواج أصبح بالنت، فلم يعد مكان للخاطبات، بل الفتاة ترى الآلاف من الشباب في الشاشة، وهو يرى آلاف الفتيات بالشاشة، وتأتي الفتاة من تايوان لتتزوج شاباً في كردستان في رحلة عشرة آلاف كيلو متر؟

القانون السابع والثلاثون (٣٧)

وأنا علمت نفسي أن لا أبخل في العلم فأنفق بدون تردد وبسخاء لأنه أعظم استثمار

حين كنت في معرض الكمبيوتر في الرياض قبل أكثر من عشر سنين، كانت ليلى سعيد زوجتي القديسة رحمها الله برفقتي، قلت لها طابعة الليزر قيمتها ٤١٥٠ ريال أكثر من ألف دولار؟ أجابت: خالص في العلم لا تبخل على نفسك.

وحين كنت مع أستاذي جودت سعيد في الجولان نمشي باتجاه بير عجم وأنا أتأمل الفيلا الفاخرة التي بنيتها هناك قال: تأمل إن مقالة واحدة مما خطه يراعك في نظري أهم من هذه الفيلا فهذه تزول والفكر خالد.

وصدق فقد قال المسيح يوماً للحواريين: اكنزوا لكم كنوزاً في السموات حيث لا يسرق السارقون، ولا ينقب الناقبون، ولا يأكل السوس، ويفسد الصدأ. فحيث كنزك هناك قلبك.

وحين بنيت تلك الفيلا ثم اشتريت فيلا أجمل في مونتريال في كندا لم يكن يخطر أنني لن أسكن هذه ولا تلك، بل ستنتهي حياتي كما هي عند الفيلسوف البدوي في غرفة في باريس.

وأنا حالياً أعيش في مساحة ثلاثين متراً مربعاً يهمني لقيمات وصحة جيدة وحمام منعش وسرير مريح، فهذه الدنيا بحذافيرها، ولو اطمأننت على دخل تقاعدي مريح لودعت عالم الكدح بغير تردد.

القانون الثامن والثلاثون (٣٨)

الحرية ومناخ الكتابة والفهم

ليس أعظم من مناخ الحرية للكتابة، فيكتب الكاتب ما أفاض الله عليه من شآبيب الرحمة وعظيم الأفكار، وليس أتعس وأبأس من الكتابة في ظروف العبودية

والاضطهاد، فإما خبأها أو ضاعت، أو يتقرب بها ليأكل بقيمتها ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون.

وليس أتعس من بيع النفس من أجل كلمة تزلف، أو خوف الاعتقال والتعذيب، أو الانتهاك والتخريب.

ولذا جرت العادة أن الأحرار يغادرون مناطق العبودية إلى شمس الحريات، كما ينهمر النهر من علو جبل، وتطير الفراشات باتجاه الجنوب مع إحداثيات مغناطيس الأرض، ولو كانت خلف بحر الظلمات

قانون إبكتيتوس Epictetus في الحرية

الفيلسوف إبكتيتوس: هل يستطيع أحد أن يكرهك على تصديق ما ليس بصدق؟

التلميذ: لا.

الفيلسوف: فهل يستطيع أحد أن يكرهك على فعل ما لاتعتقده؟

التلميذ: نعم.

الفيلسوف: وكيف ذلك؟

التلميذ: إذا هددني بالموت أو السجن؟

الفيلسوف: فإذا لم تخش من السجن أو الموت؟

التلميذ: لا يستطيع.

الفيلسوف: أنت حر حينئذ!

وإذ أعجبت هذه الفقرة كاتب ومفكر فاضل يدعي أنه من مدرسة المنطق الحيوي! (كذا) فقد أرسل إلى صديق له ترك بلاد العبودية إلى أرض الحريات، ينصحه بالقدوم تطبيقاً للقانون النفسي هذا، فيجيبه: وما يكون لنا أن نعود فيها بعد إذ نجانا الله منها!

وهذا القانون من قوانين البناء المعرفي ؛ يقول إن المعرفة لا تولد إلا حيث الحريات ، ولم يكن للفلسفة اليونانية أن تستيقظ لو وقعت في قبضة داريوس مع حملته المشئومة ، ولم يكن للصين أن تتقدم شعرة لولا أن فتحت نفسها شعرتين .

ولا الاتحاد السوفيتي ليسقط بدون أي هجوم خارجي لولا اعتناقه وتطبيقه مبدأ الإكراه في الدين . ولا مصير ينتظر العنفيين إلا موارد الهلاك ، كما حصل لفرعون وعاد وثمود ونوح ولوط وما مصير بول بوت والبيرتو فوجيموري منهم ببعيد .

القانون التاسع والثلاثون (٣٩)

تلاقح الأفكار وقانون الزوجية

إذا كان الوجود يقوم على الزوجية والجدلية ؛ فهذا ينطبق أيضاً على الأفكار ؛ فكما بنيت الذرة والجزيئات على علة الزوجية ، وكما تلاقحت النباتات فأنبتت من كل زوج بهيج ، وكما اتصل الحيوان ببعضه لينبت من ثنايا الأرحام ذرية جديدة تتابع رحلة الحياة ؛ فإن الأفكار تفعل الشيء نفسه فهي تتلاقح فتتكاثر ، وتنبت نسلاً جديداً ، ولكن بشرط الخصوبة من الطرفين .

إذا اجتمعت فكرة (أ) مع فكرة (ب) خرجت فكرة جديدة هي (ج) وإذا تلاقحت الفكرة (ج) مع الفكرة (أ) خرجت فكرة جديدة هي (ت) ، وإذا كان الاتصال الجنسي ضمن المحارم حجراً محجوراً ؛ فالزواج بين الأفكار غير محاصر بحرمة الزواج من الأقارب ، وبذا تتحرر الأفكار وتتوالد بسرعة انشطارية أسرع من انشطار نواة ذرة اليورانيوم في السلاح النووي ، فتستعصي على الفناء ، وتشق طرقاً جديدة دوماً بعناد ودهاء ، وتصمد أمام كل شروط تحنيطها وقتلها ، وهو سر اندفاع البشرية دوماً نحو الأفضل ؛ فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

تقوم قوانين الجدل الثلاثة على نفي النفي ، وتداخل المتناقضات معاً ، وانقلاب

الكمية الى نوعية من خلال التراكم، ويطرح القرآن الكريم فكرته عن الوجود بطريقة مختلفة يسميها (الزوجية): ومن (كل شيء) خلقنا زوجين لعلكم تذكرون؟!

الزوجية تسود الوجود فهي في الجزيئات دون الذرية بوجود الإلكترون السالب والبوزيترون الموجب، وهي في البناء الذري بوجود المادة ومضاد المادة، وهي في الحيوان والنبات والانسان بوجود الزوج القرين، وسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون.

والسؤال لماذا كانت الزوجية قانوناً سائداً في كل الوجود خلا الله عز وجل فلم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة؟ والجواب: أن منبع التكاثر هو من الزوجية عندما تتفاعلان، فمن سلبية الإلكترون وإيجابية البروتون تتعادل الذرة كهربياً، ومن التقاء الشحنات السلبية والايجابية تندمج العناصر، ومن تزواج الكائنات تخرج ذرية جديدة تتباين عن آبائها بثلاث صفات: أنها نسخ جديدة منفصلة قائمة بذاتها، وهي أفضل من آبائها التي خرجت منها بما لايستطيع أن يقوم به أي جهاز تصوير في العالم، وهي ثالثاً تحمل إمكانية تكرار النوع بالمعادلة نفسها يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون.

وإذا كانت الكائنات تكاثر نفسها عن طريق التزاوج خوفاً من الانقراض؛ فإن الله لايحتاج أن يكاثر نفسه لإنه مُحرَّر من الفناء فهو الحي القيوم الذي لا يموت فتوكل عليه.

يتزاوج الأفراد بهدف المحافظة على النوع، ولكن تزاوج الأفكار هو من أجل ترقية النوع، فالأرانب تتكاثر منذ ملايين السنين بدون تغير يذكر في اجتماعها، والنحلة تتفاهم مع رفيقاتها بلغة الرقص، ولكنها لم تعلن عن نفسها أنها أصبحت نحلة مثقفة كما يقول الصادق النيهوم؟

في عالم الخلية تتمايز الخلايا وتستقل، وفي عالم الإنسان تتكون شخصيات في أناسي، وفي المجتمع تتكون البنى والمؤسسات وتعيد إنتاج نفسها.

لو عاش الفرد لوحده لمات جوعاً، ولكن الفرد باتصاله بالآخرين يكتسب قوة

خرافية فيطير بدون جناح ويتكلم بسرعة الضوء محطماً المسافات وهو يتلقى المعلومات فينتفخ دماغه متحولاً الى كائن أسطوري حجمه فرد وقوة عقله خمسة ملايين من السنين مضروبة بستة مليارات من البشر مضروبة بمليارات لا تنتهي من بشر مروا على الأرض في عقل جمعي أسطوري ولكن بدماغ لايزيد وزنه عن كيلوغرام ونصف فقط .

القانون الأربعون (٤٠)

إهداء الكتب وأجمل الهدايا

حفلات الأعراس باهظة التكاليف كاسرة الظهر ، ويمكن استبدالها بكلفة أقل وفائدة أكبر إن لم نقل أعظم وأجمل الهدايا الكتاب؟ وتقولون وما قصة ذلك؟ والجواب هو من قصة زواجي الشخصية ، فقد عكفت زوجتي وأخوها على كتاب بعنوان حين يكون الإنسان كلاً وحين يكون عدلاً ، والعنوان مستقى من آية قرآنية عن ضرب الله المثل في رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهوكلّ على مولاه أينما يوجهه لايأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وهكذا كان هدية العرس للمدعويين نسخة من هذا الكتاب فكأن أجمل هدية ، أما الناس فقد اعتادوا على إرهاق أنفسهم بوافر الطعام حتى التخمة ثم ينصرف الناس وقد تأذت صحتهم ، في حين ومع الكتاب يرجعون بوافر العلم وراحة المعدة ، وهي دوماً أفضل فليس مثل المعدة بيتا للداء ، وليس مثل راحة الجهاز الهضمي بابا للشفاء؟

وحتى لايفهمني القارئ خطأ فأكمل أنه لابأس من إتحاف الحضور بطعام خفيف عملي ، وطيف من الحلويات والمشروبات بكلفة بسيطة . وهو ما فعلته أنا في عرسي فلم أتكلف ولم ينكسر ظهري وما زال كتاب " الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا " في خزانة الفكر ذخراً للفكر وتنشيطاً للذهن في مسائل كثيرة .

وأحيانا أقول ما هي أفضل الكتب المهداة فيأتي في ذهني عشرات الكتب ، وأنا

شخصيا أفضل دوماً أن أحمل كثيراً من نسخ كتبي التي تجاوزت ثلاثين كتاباً في السوق الفكرية فإن ارتحت للشخص في أول مقابلة أهديته جميل الكتب، بل حتى اقتطاع أجزاء من مجلد وتصويره على نحو خاص كما حصل معي في القسم الوارد في موسوعة عالم الاجتماع العراقي الوردي حين تحدث عن نشأة المملكة في مطلع القرن العشرين وظروف قيامها كل في لغة سهلة وتوثيق جيد وتعليقات وتحليلات مفيدة وحيادية يحسد عليها ومعلومات غنية تقربنا لساحة الحدث، وهي مشكلة من يكتب في مواضيع حساسة فيقع بين لغتي الزلفى والمجاملة أو التحيز فيخسر الموضوع بعداً مهماً، والوردي أبدع في ذلك، بل إنني أنصح بطباعة هذا القسم على كتاب يضيء التاريخ عن الظروف الأولية لنشأة المملكة وشخصية قائدها؟

وفي هذا الصدد سمعت عن الأمير الوليد بن طلال أنه يهدي كتاب روبرت غرين المعنون بـ (كيف تمسك بزمام القوة) الذي طبعته العبيكان، وهو ليس دعاية لا للشخص ولا للمكتبة، بل تبيانا لمفهوم الكتب الجيدة التي تهدى.

وأذكر من صديقي الذي كان يعمل معي في قسم جراحة الأوعية أنه رجع يوما من إجازته من مصر وهو يعرف غرامي بالكتب ومطاردتها؛ فقدم لي كتابا على نية (رفع العتب) فعرفت أنه لم يهتم كثيراً بقدر المجاملة، فقلبت الكتب وقبلته؛ فلم أر أنه يستحق المطالعة أكثر من خمس دقائق؟

وقبل أيام جاءني كتاب مرسل بالبريد السريع بكلفة باهظة فتصفحته فما شدني كثيراً فأنا حائر كيف أرد على المؤلف. وبالمقابل فقد زارني الأخ والمفكر ماجد عرسان الكيلاني في جبال عسير فأحضر لي نسخة كاملة بسبع مجلدات عن تاريخ المغرب والأندلس الذي اشتغل عليه عبد الله عنان ٢٥ سنة من عمره مع عشر زيارات لإسبانيا والشمال الأفريقي؛ فقرأته باهتمام ومتعة في ستة أشهر حافلات بالمشاعر وهو من أجمل كتب مكتبتي العامرة؟

وهذا يقول لنا ثلاث قواعد عن إهداء الكتب: أن تكون مفيدة، فالكتاب يبقى

والعطر يتبخر، والطعام يؤكل، والورود تذبل، والعلم لايعرف الذبول؟ والثاني: أن تبقى أثراً من المهدي يتذكره من أهدي إليه إلى آخر الدهر؟ والثالث: أن يقتني من ينابيع المعرفة حسب الشخص واهتماماته الثقافية من سياسة وأدب وفلسفة وتاريخ وعلم فلك، وعلم تاريخ الإنسان وفلسفة العلوم والاقتصاد والعلوم الذرية والتسلح والاقتصاد والمرأة والروايات والسير الذاتية؟

وحالياً ذكرنا كتاب روبرت غرين والعنان وأضيف ثلاثاً مقدمة ابن خلدون، وتجديد التفكير الديني لمحمد إقبال، والمقال على المنهج لرينيه ديكارت. .

أداة القراءة العقل..!(١)

نجيب بن عبدالرحمن الزامل

عضو مجلس الشورى السعودي

إذا فتشتم في سيرتي فقد سجنت مرتين بالرياض، الأولى وأنا أدرس بالجامعة هنا، لأنني دخلت مكتبة ولم أكن أملك مالاً كافيًا، فقد كان آباؤنا لا يعطوننا نقودًا، وخاصة للكتب، فقلت لنفس لعلي أستعير كتابًا، ولم تكن مكتبة عامة، بل مكتبة خاصة، وأخذت كتابًا ووضعته في جيبي، وكان أول كتاب كنت سأقرؤه، وكان باللغة الإنجليزية، لكن صاحب المكتبة رأى شيئًا آخر، فأخذت إلى الشرطة، وحرر لي محضرًا!

المرة الثانية، أنا من المنطقة الشرقية، وجئت للرياض في لباس مختلف، وكان شعر رأسي طويلاً؛ فأمسكت بي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاموا بقص شعري، وحرروا لي محضراً، فهل تودون المزيد من السيرة الذاتية؟!

القراءة رحلة جميلة، وماذا نستفيد من القراءة، فكرت في الكتب التي أثَّرت فيّ، بل الكتب التي قد يكون بعضكم سمع عنها، وقد يكون كثير لم يسمع عنها، والشيء الخفي وراء الكتاب، كل كتاب له قصة، وكل مؤلف وراءه قصة ومدارس، ومصادفات القراءة، جون ديوي(٢)، كان واحداً من أعظم الفلاسفة في أوروبا، وكان أستاذه الكبير هو أستاذ الفلسفة الأول "أرسطو"(٣) الذي يقول الفن هو محاكاة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة، مساء الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ، الموافق ٢١ إبريل ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع. .

(٢) جون ديوي (١٨٥٤-١٩٥٢م)، فيلسوف ورائد الفلسفة البراغماتية، ويقال: إنه هو من أطال عمر هذه الفلسفة واستطاع أن يستخدم بلياقة كلمتين قريبتين من الشعب الأمريكي، هما: (العلم والديمقراطية).

(٣) أرسطو أو أرسطوطاليس أو أرسطاطاليس (٣٢٢-٣٨٤ ق م) فيلسوف إغريقي، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في كثير من المواضيع، بما في ذلك علوم الفيزياء والميتافيزيقا، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة، والأخلاق، والبيولوجيا، وعلم الحيوان. واحد من أهم الشخصيات في تأسيس الفلسفة الغربية. كان أول من أنشأ نظاماً شاملاً للفلسفة الغربية، ويشمل الأخلاق وعلم الجمال والمنطق والعلم والسياسة والميتافيزيقا.

الحياة، فكثير من الفلاسفة بعد أرسطو أخذوا الفكرة على أنها شيء مقدس، فعبد أرسطو كالصنم.

جون ديوي كان أكثر واحد قربًا من أرسطو، وكان أيضًا تلميذًا لابن رشد⁽¹⁾، العربي الأندلسي، ديوي قال: أرسطو أخذته في القراءة، وفي تتبع الناس الآخرين، وفي فن محاكاة الحياة، ولكنه ليس شجرة ونصورها كما تعمل بالطبية، ولكن هدفنا كيف تعمل الشجرة؟ كيف نسقي الشجرة؟ كيف تنمو الشجرة؟ كيف تنمو الحياة وتدور وتتغير وتتلون مع الفصول؟ والتغير في مسوغات الحياة والموت، ومن ثم العالم المتجدد والمتغير هذه هي محاكاة الحياة، فقرر جون ديوي أن يخرج من عباءة معلمه الكبير اقتداءً به، لأنه قال: الفن محاكاة الحياة، والحياة تتغير.

من هنا نفهم القراءة، فعندما نقرأ للكتاب الكبار، يجب ألا نحاكيهم، أو نقلدهم تمامًا، ولكنهم يعلموننا كيف نفهم مسوغات الحياة، نعرف كيف يأتي الماء إلى جذر الشجرة؟ وكيف تتكون الثمار؟ وكيف تتغير مع الفصول؟ فلم نكن نقتفي أثر معلمينا الكبار في السابق أو أئمتنا، فهم غيروا في الحياة، وكل مصلح جاء ليغير في الحياة؛ لأن الظروف تتغير، ومن ثم فنحن نقتدي بمعلمينا الكبار ولكن الظروف تتغير، ومن ثم يجب أن نتغير مع مقتضيات الحياة. كان ديوي من أكثر الناس الذين أثروا فيّ في منهج القراءة، وعلَّمني فعلاً أن محاكاة الكبار من المعلمين الحقيقيين هو الذي يعلمك أن تسير على قدميك، لا أن يدفعكم دائمًا من الخلف، وأنت تسير، وترفع يديك فقط، هو الذي يعلمك أن تركب على كتفيه لتكون عملاقًا، ولكن لا تعود قزمًا عندما تنزل عن كتفيه.

---

(١) ابن رشد: هو أبو الوليد "الحفيد"، محمد وليد أحمد بن رشد الأندلسي البربري (٥٢٠- ٥٩٥ هـ= ١١٢٦- ١١٩٨م)، عالم مسلم ولد في قرطبة بالأندلس، من أسرة عرفت بالعلم والجاه. وتوفي في مراكش. يعدّ ابن رشد في حقيقة الأمر ظاهرة علمية مسلمة متعددة التخصصات، فهو فقيه مالكي، وهو قاضي القضاة في زمانه، وهو ذاته طبيب نطاسي تفوق على أساتذته حتى أن أستاذه ابن زهر قال عنه: "ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس"، وهو عينه فيلسوف عقلاني، وهو أيضا مترجم لأعمال أرسطو المرجعية للمسلمين، وهو أيضاً فلكي ذو أعمال جليلة في المضمار، وهو نفسه المتكلّم الذي تصدى لنقد المتكلمين باسم توافق المعقول والمنقول وعلى رأسهم الإمام الغزالي.

أداة القراءة العقل، وتصنيفي الخاص للعقل هو: أن تعلم الحاضر، وتقرأ بعقلك المستقبل، بالاستدلال للظاهر للوصول إلى الخفي، معرفة الأسباب لتحري النتائج، والاطلاع على التجارب لتجنب العواقب، وهذا لا يتاح إلا بالقراءة، فلنبدأ!

فكما ذكرت، عشت في بيئة طغت فيها اللغة الإنجليزية، وقرأت في البداية ما يأتينا في مجتمع شركة أرامكو؛ لأن الوالد كان يعمل في شركة أرامكو، وكانت القصص التي تأتي للأطفال في ذلك الوقت، قصص مصورة comics وكنت أقرأ البات مان batman، والسوبر مان superman، والرجل البرقي، وأقرأ كتباً صغيرة كان يخرجها - مخرج الرعب كما يسمونه - ألفرد هتشكوك(١)، وأقرأ كتيبات كانت تصدرها النيويورك تايمز New York timesوقد كانت تأتينا متأخرة في رأس تنورة في المنطقة الشرقية، وتصورت من كثرة ما قرأت وأنا صغير، أنني أعيش فعلاً في نيويورك! إلى أن عرفت الحقيقة وسعدت بها!

أول كتاب قرأته في حياتي كان له قصة، وكنت أود أن أحضره لكم، ولكن لأنني تأخرت، لم أتمكن من إحضاره، والكتاب غير مشجع، ولكن في الطرف الآخر هناك أشياء معينة قد تغير نظرتك للحياة، أو قد تبني طريقتك في الفكر، ماذا تقرأ؟ ولماذا تقرأ؟ لما انتقلت من الـ comics والأشياء المصورة إلى أن بدأت أقرأ في الفلسفة الحديثة، ونقلت إلى فلسفة الشبان الأمريكان، وكان يسمون أنفسهم الشبان الغاضبون، من أشهرهم: آرثر ملر(٢)، ولم أمر على الأدب العربي، والفلسفة العربية، لم أمر على الأدب الإغريقي، إلا فيما بعد؛ لكن كانوا هم البوابة، أدخلونا على أوهارا، وغيرهم في أمريكا. أما الكتاب، فكنت يومًا مع أخي الأصغر، وهو

---

(١) السير ألفريد جوزيف هيتشكوك، KBE، (١٨٩٩ - ٢٩ ١٩٨٠م)، مخرج ومنتج بريطاني. يعد رائدًا في العديد من تقنيات أفلام الإثارة النفسية والتشويق. انتقل هيتشكوك إلى هوليوود بعد النجاح المهني الذي حققه في بلده المملكة المتحدة في كل من السينما الصامتة وبداية السينما الناطقة. في عام ١٩٥٦ أصبح مواطناً أمريكياً مع الحفاظ على جنسيته البريطانية.

(٢) أرثر ميلر (١٩١٥ - ٢٠٠٥م) كاتب وروائي ومسرحي أمريكي. كان أحد رموز الأدب والسينما الأمريكية لمدة ٦١ عاماً. يعد من عمالقة المسرح الأمريكي المعاصر، نادى بفكرة مسرح في متناول الجمهور.

موجود الآن، وكان شقيًا، وكثير الخروج والعبث، فأخذني معه في يوم من الأيام، وكنا نذهب لنرى الأشياء التي يخرجونها الأمريكان من الـ compound الذي كنا نعيش فيه، فكانوا كل يوم أحد يخرجون أشياءهم المستعملة ليتخلصوا منها، أو يبيعونها، هذا الكتاب لم يشترهِ أحد، فأخذته، وكان فيه والعياذ بالله صورة مارلين مونرو وهي نجمة معروفة، وكانَ لون الكتاب وردياً، وبه صور نساء ومعظمهن غير متسترات، هداهن الله!

وقد سألت نفسي: لماذا الأجانب يقرؤون أكثر منّا؟ لديهم طريقة عجيبة لجذب الانتباه بالعناوين، فلديهم دائمًا عناوين: عنوان خلاب، وعنوان شارح، يسمونهم: العنوان الرئيس، والعنوان الـ subtitle عنوان فرعي، وهذا الذي جذب انتباهنا ونحن صغار، وقد كتبت مقالاً أحدث ضجة في الإنترنت، وهو بعنوان: يوم تركت الصلاة ! عندما تكون مراهقًا وصغيرًا، تبهرك الأفكار الكبيرة، وقد نرجع إلى هذه الفكرة فيما بعد، أخذت هذا الكتاب وتصورت أن به صوراً فقط، ومن حسن حظي أنه كان كتابًا مصمتًا، ليس به سوى الصورة التي على الغلاف، وكان يتحدث عن الفضائح في هوليود! وهي مدينة صناعة السينما في أمريكا، وتحدث عن نجمات هوليود في ذلك الوقت وعن فضائحهن، حتى غرقت في هذا الكتاب، ولأول مرة أقرأ كتابًا من الغلاف إلى الغلاف؛ وذلك لأنه فضائحي، وهوليود مجتمع بسيط وساذج، لكن واحداً من أعظم فلاسفة أمريكا عشق الفنانة الممثلة الأمريكية مارلين مونرو، وأثناء الزواج في الحديث والتعارف، فعن طريق هذا الكتاب عرفت الكتاب الكبار، مثل: آرثر ملر، جيمس ويليمز، إسحاق عظيموف⁽¹⁾ واحد من أعظم العقول التي عرفتها، فلو رأى أبي أو أمي هذا الكتاب لعنفوني عليه، ولكنه كان فاتحة

---

(١) إسحاق عظيموف (١٩٢٠م- ١٩٩٢) مؤلف أمريكي روسي المولد وكيميائي حيوي في تخصصه الفعلي. اشتهر بكتاباته في روايات الخيال العلمي حيث لاقت رواياته نجاحًا وانتشارًا كبيرين. وقد تركت مؤلفاته أثرًا كبيرًا في سينما الخيال العلمي وحتى في علوم الرجل الآلي أو ما يسمى بالروبوتيك والذكاء الاصطناعي عن طريق ما يعرف بقوانين عظيموف.

على الفلسفة والأدب الأمريكي، إلى أن تغيرت حياتي، لي عم وهو أحمد الزامل، يعد موسوعة تمشي على قدمين، يتحدث لغات مختلفة، وفروع اللغات، ويعرف شعوب الأرض، وصاحب علم عجيب، وإن كان خبيرًا، ويهتم بالناحية العملية، العم أحمد هاجر فعلاً إلى الكويت، وأسس شركة كبيرة. أتجول في بيتنا وإذا بي أجد جدتي تقفل في مكان معين، فاقتحمت المكان، فعلاً مثلما يقولون في قصص الأساطير، الجزر المهجورة والقرصان..!

وجدت كتب دارون، أول كتاب لدارون(١) وهو: النشوء والترقي، وهذا الكتاب فتح لي مدارك كثيرة، وأدخلني إلى الفلسفة العلمية من أوسع أبوابها، وأيقظني وأنا في عمر صغير، لأن دارون استخدم باللغة الإنجليزية كلمة لم تكن مستخدمة، وترجمتها باللغة العربية تختلف هي كلمة evolution وهي تعني التطور من شيء إلى شيء آخر، تختلف عن progress مثلاً، وشاعت نظرية دارون، The original species أصل الأنواع، كيف أصل الأنواع؟ و species وتعني الأجناس، الإنسان كان شيئًا آخر قبل أن يكون إنسانًا، هذا مدهش، لذلك الذي يجعلنا نميل إلى قراءة الكتب الأجنبية، ولا نقرأ الكتب العربية، وبالذات التأصيلية؛ لأنها تمنعك من البداية، حكم تحريم كذا، حكم تحريم كذا، لذا ليس هناك داع للقراءة، فالنتيجة معروفة، بينما دارون في القرن التاسع عشر، يقول لك: إن هناك أصلاً للأنواع، original species ولم يكتف، يأتي لك بعد ذلك بشيء اسمه الانتخاب الطبيعي Natural selection، كيف يكون هناك انتخاب طبيعي، الكتاب نقلني إلى سنوات، وقرأت الانتخاب الطبيعي، طبعًا كلكم يعرف دارون، وتعرفون نظرية النشوء والترقي، وتعرفون طبعًا أن نظريته دحضت، وها نحن نقول لشبابنا الصغار الذين لديهم أسئلة كثيرة، قد تكون كونية،

---

(١) هو تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) هو عالم طبيعة إنجليزي مشهور، صاحب نظرية النشوء والترقي، ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان. ألف كتبًا عدة في هذا الخصوص، لكن نظريته الشهيرة ووجهت بانتقاد كبير وخصوصًا من رجال الدين في جميع أنحاء العالم. دارون نفسه ظل حائرًا فيما سماه الحلقة المفقودة، التي تتوسط الانتقال من طبيعة القردة إلى الإنسان الحديث!

من؟ ولماذا؟ ونتصارع معهم، بل وننهرهم، أنا أعتقد أن الدين الإسلامي لا يستحيي من الأسئلة؛ لأن لديه كل الأجوبة، النهر والزجر هو الذي يعمق المشكلة، ثم كيف تتحكم في عقول شباب صغار السن، والأسئلة تنبع من العقل، وهذه وظيفة العقل أن يسأل.

والآن ظهرت أشياء تسمى Modern Darwin وعدلوها عندما وجدوا أن هناك أشياء كثيرة خاطئة، وأن نظرية التطور ليست صحيحة في مجملها؛ لأنه ثبت أن الديناصورات خرجت كما هي، هذه من الأشياء التي دحضت دارون، وهناك أشياء كثيرة، كما أنه قد حدثت على تلك النظرية ثورة علمية وأخرى دينية في أمريكا، لأنها كانت تدرس في أمريكا، وقد ظهرت الآن ما يسمى بالدارونية الحديثة، لكن أيضًا لدارون قصة أخرى جميلة، وهذا أيضًا يجب أن يتعلمها الناس، وهو الجد والعلم؛ فدارون قد يكون خرج بنتيجة سيئة أو غير ذلك، ولكنه عمل وبذل الجهد، دارون قد يكون من أكثر الناس المستفيدين على وجه الأرض، الآن هناك كثير من الناس يحتفلون بدارون، إلى فبراير الماضي. احتفلوا بعيد ميلاده الـ (٢٠٠)، وصنعوا كيك، وغنوا happy birthday to you، ورسموا بيته من جديد في إسكس في كامبردج.

كان لديهم سفينة اسمها بيجل، من أشهر السفن في تاريخ الفكر العلمي في العالم الغربي هي سفينة بيجل، وهي سفينة تركها الملك هنري السادس بعد الفتوحات، لعدم صلاحيتها، جاء الشاب الذي عمره ٢٤ عامًا دارون، ورأى كابتن السفينة، وارتحل بها - والقصة طويلة - وكان والده ضده، وضد فكرة سفره وترك بريطانيا، وذهابه إلى المجهول، ولكنه أصر على السفر، ووعدهم أنه سيرجع خلال عام، وذهب إلى أمريكا الجنوبية وبعض جزر الكاريبي، وطبعًا كان مرفهًا نوعًا ما، فوضعوه في قمرة صغيرة في سفينة وكانت لا تتسع حتى لأن يتحرك فيها، وضع فيها الخرائط والأشياء الأخرى، وقال: كيف سأعيش في هذه القمرة خمس دقائق؟ ولكنه عاش بها خمس سنوات، قضاها دارون في هذه السفينة بيجل، ودار بها على كل

جزر الكاريبي، وكل سواحل أمريكا الجنوبية من جهة المحيط الهادي، ثم انتقل إلى جهة المحيط الأطلنطي، وعبر عن طريق جزيرة فيجي، وله قصص كثيرة، حتى في الفكر، دارون لم يبحث فقط في تطور الأنواع، بل بحث حتى في التطور الفكري.

دارون شخصية معقدة جداً، ويقال أحيانًا ساذج naive، لكن وراءها بحث، وجد مثلاً بعض الحيوانات تختلف في البرازيل عن بعض جهات بيرو، فإذا اختلفت معنى ذلك أن هؤلاء الناس تأخروا عند هذا التاريخ، وقد سماها ثلاجة التاريخ، بعض المخلوقات لم تتطور، وقد دحضت النظرية!

ذهب إلى فيجي، ووجد هناك شيئًا غريبًا، وما زال الفيجيون يثيرونها في علم الإنسان، وتركيبة النسيج البشري والذاكرة، عندما ذهب إلى هناك وجدهم يتبادلون التحايا بالمقابلة الصدرية، كما وجدهم يعيدون كلام الإنجليز كما يسمعونه، فاتجه أيضًا إلى دراسة تطور الدماغ البشري خمس سنوات! وعندما رجع دارون نشر نظرية النشوء والترقي، والتطور والانتخاب الطبيعي، نظرية غريبة، وكان دائمًا العالم لا يستقبل النظريات بالترحاب، وخاصة الثورية الجديدة، ولأمر ما المحفل العلمي في بريطانيا استقبل دارون، وكان يعطونه درجة يسمونها في بريطانيا بـ: night foot وهي درجة فارس، وقد وقف كبير الأساقفة في لندن، وقال: حرام لا يجوز، الأغرب أن عامة الناس استقبلوه بترحاب كبير، وأعتقد أنها أكثر نظرية عمت في العالم إلى يومنا هذا، اليوم نقول الحلقة المفقودة، نقول الإنسان الأول، وحتى نأتي بها في النكات، وفي أحاديثنا المختلفة، أي قد وصلت إلى كل مكان في العالم، مع أنها قد تكون عليها ملحوظات، ولكنها أثارت طريقة في الفكر الإنساني غير مسبوقة.

هناك واحدة من أعظم أديبات العالم وأغربهن، هي فرجينا وولف(١)، وهي

---

(١) إديلين فرجينيا وولف (١٨٨٢-١٩٤١م)، روائية إنجليزية، وكاتبة قصص قصيرة. تعد واحدة من أهم الرموز الأدبية المحدثة في القرن العشرين. خلال فترة ما بين الحربين، كانت وولف كاتبة ذات مكانة مرموقة في مجتمع لندن الأدبي. من أشهر أعمالها رواية "السيدة دالواي؛ وإلى الفنار (١٩٢٧) وأورلاندو (١٩٢٨)، ومقالتها الطويلة "غرفة تخص صاحبها" (١٩٢٩) والتي جاءت فيها جملتها الشهيرة: "يجب أن يكون للمرأة مالها الخاص وغرفة خاصة بها إذا أرادت ان تكتب الروايات "!

بريطانية وعندما أتحدث عن الكتب، يشترون كتب فرجينيا وولف التي تقول: إن الكتب التي تروي قصص حياتنا على الأرض، وفوق الأرض، وبعد الأرض، وتجعلنا نستكشف معنا وجودنا على الأرض. وفرجينا وولف لديها كتاب عظيم اسمه: السيدة دالاوي Mrs Dalawi، وكتاب آخر اسمه لايت هاوس light house (المنارة)، ولدت عام ١٨٨٨ وماتت عام ١٩٤٠م، لها كتاب عجيب جداً، وفعلاً بعد موتها صنفت كأهم مفكرة، ولديها كلمة مشهورة جداً، تقول: حتى تكتب المرأة في الخيال العاطفي، يجب أن يكون لها غرفة، ويكون عندها أموال. ولديها كتاب "غرفتي الخاصة"، هذه الفتاة فرجينيا وولف، اخترعت إنجليزية جديدة، حتى يسمونها الإنجليزية النسائية، ومليئة بالفلسفة، ومليئة بالخيال غير المسبوق، ولكنها كانت مريضة، ومصابة بصدمة عاطفية، عندما ماتت أمها، وصدمة أخرى عندما ماتت أختها، ولكن الصدمة التي نقلتها إلى المستشفيات هو موت أبيها. ونحن اليوم نتكلم عن العنف الأسري، وأشياء من هذا القبيل. .

الأشياء التي لا يعرفها كثير من الناس عن فرجينيا وولف، أن الذي أدى إلى صدمتها فعلاً هو أن أباها كان أرمل سابقاً، وأمها كانت أرملة سابقة، ولديهما أولاد، وعاشت في شقتها مع أخت اسمها فينيسيا مع إخوانهم الأكبر منهم سناً، وعندما كتب أحد الأدباء الإنجليز كتب أن سبب الصدمة العصبية وانهيار فرجينيا وولف، أنها كانت تتعرض لاعتداء جنسي متكرر من جانب إخوانها: أحدهم يدعى جورج، والآخر يدعى جيلد، وهذا ما أدى بها إلى الصدمة العصبية والنفسية، وتصاب أيضاً بالقلق والاكتئاب، حتى أنها تزوجت شخصاً كانت تحبه فعلاً، وقد أخلص لها وعانى معها كثيراً، فوجدت نفسها أنها لا تستطيع أن تتخلص من هذا الاكتئاب، ولا تستطيع أن تقرأ أو تكتب. وكان لديها بيت على النهر في بريطانيا، وقررت في يوم من الأيام أن تنتحر، فلبست أحسن معطف لديها، وكان هناك معطف معروف في بريطانيا بالمعطف ذي المخابئ، وكان ذا جيوب كثيرة، أخذت الأحجار وملأت

الجيوب، ثم حشت المعطف بالأحجار، ومشت بهدوء إلى النهر، وألقت بنفسها حتى وصلت إلى أعماق النهر وماتت، وكتبت رسالة لزوجها، قيل إن ما كتبته لزوجها يعد من أفضل مقطوعات الحزن والتوديع في اللغة الإنجليزية إلى يومنا هذا، وهي موجودة لدي ولكن باللغة الإنجليزية، هل تريدون أن أقرأها عليكم باللغة الإنجليزية، أم أترجمها إلى اللغة العربية، إذن أقرأها بالإنجليزية ثم أترجمها إلى العربية.

Dearest, I feel certain I am going mad again. I feel we can't go through another of those terrible times. And I shan't recover this time. I begin to hear voices, and I can't concentrate. So I am doing what seems the best thing to do. You have given me the greatest possible happiness. You have been in every way all that anyone could be. I don't think two people could have been happier till this terrible disease came. I can't fight any longer. I know that I am spoiling your life, that without me you could work. And you will I know. You see I can't even write this properly. I can't read. What I want to say is I owe all the happiness of my life to you. You have been entirely patient with me and incredibly good. I want to say that - everybody knows it. If anybody could have saved me it would have been you. Everything has gone from me but the certainty of your goodness. I can't go on spoiling your life any longer.

I don't think two people could have been happier than we have been

تقول له: أنا متأكدة أنني أتجه إلى الجنون مرة أخرى، وأعتقد أننا لا نستطيع أن ننجح هذه المرة في التخلص من هذه الأوقات الرهيبة التي نعاني منها، وأن هذه المرة لن أشفى مطلقًا، فلقد بدأت أسمع أصواتًا، ولم أعد أستطيع التركيز كما كنت؛ لذا أنا سأعمل ما هو صالح لكلينا، لقد أعطيتني أعظم سعادة تقدم من شخص إلى شخص، لقد عشنا كأعظم اثنين ذاقا طعم السعادة في هذه الدنيا، حتى جاءني هذا الماضي الرهيب. وأنا أعلم أنني أفسد عليك حياتك، وحين أموت فتستطيع أن تعمل وتستمر في الحياة، أشكرك على كونك صبوراً كل هذه المدة، وتحملت مني ما لم

يتحمله أحد، ولن يتحمله أحد، وأعتقد لو كان في إمكان أي شخص في العالم أن ينقذ حياتي ويعيدني من جديد كما كنت لكان أنت، لم أستطع الاستمرار في الحياة، لا أستطيع، ولا أستطيع أن أفسد حياتك أكثر، ولا أعتقد أن هناك اثنين عاشا سعيدين كما كنا أنت وأنا، محبتك فيكتوريا. يقال إن هذه من أعظم رسائل التوديع التي عرفها الإنسان.

لما كنا نتكلم عن دارون وجدت كتابًا للذي يقرأ الجزء الآخر من دارون، فقد قال إن الحياة تتطور وتتغير، ولكنه كتب كتابًا آخرًا ظهر، وقد أزعج كل الدارونيين في الأرض، وهو الذي فعلاً كان رصاصة الرحمة على نظرية دارون، والكتاب اسمه: Darwin's black box صندوق دارون الأسود، في علم الكيمياء الحيوية bio-chemistry عرفت في الخمسينات، وأثبتت شيئًا جديدًا اسمه molecules الجزئيات التي تكوّن الخلية، هذه الـ molecules هندسة عظيمة لا يمكن أن تنشأ من ذاتها، وأثبت العلم أنها لا يمكن أن تنشأ من ذاتها، بل إن توافقها الهندسي والتكويني والتراكمي يجب أن يكون ذا صيغة واحدة مستمرة متباينة من الأبدي إلى الأبدي، فعلم الكيمياء الحيوية biochemistry أن الأشياء لا تبدأ حتى بالخلية، ولا تبدأ بالأنسجة، وهنا الدقة، فكما قالوا إن دارون كان naive ساذج لأنه كان يأخذ قدم حصان أو قدم بغل مثلاً وكان يصفهم، وكانت هذه طريقة غير صحيحة، مع ذلك تبدأ الأشياء بالجزيئات وليست بالخلية، فالجزيئات هي التي تكون كل الأشياء الحية الموجودة، وكانت هذه فعلاً هي رصاصة الرحمة لنظرية دارون، ولم يتوافر في وقت دارون نظريات مثل الكيمياء الحيوية، ولو قدر أن وجدت أشياء مثل هذه في عصر دارون، أو قدر لدارون أن يتواجد في العصر الحالي، لتغير رأيه.

أيصح أن أتكلم عن كتاب نسيت واضعه، وهو يتكلم عن حركة الفلك، وسير العلماء الذين أثروا في التاريخ، إنه كتاب قرأته عن جاليليو، بحثت في كل مكان عنه ولم أجده، واحترت أذكر ذلك في هذه المحاضرة أم لا أذكره، فقد أكون كاذبًا، وقد

أكون صادقًا، لكن الكتاب قرأته، وكان يوضح حياة لم أكن أعرفها عن جاليليو(١)، ويسمونه في إيطاليا جليلي، وجاليليو هو الشخص الذي كشف أن نظرية أرسطو في سقوط الأجسام غير صحيحة، ونرجع إلى جون ديوي، فأرسطو يقول: إن الأشياء تسقط على الأرض بحسب ثقلها، فإذا رمينا بفيل ونملة إلى الأرض من مكان مرتفع، أيهما يصل إلى الأرض أولاً، فحسب نظرية أرسطو، الفيل يصل أولاً، جاء جاليليو وأثبت أن الأشياء تقع أي تصل إلى الأرض في زمن واحد وبسرعة واحدة، فتتعجب أن ٢٠٠٠ سنة عاشها الناس على نظرية خاطئة، ولم يجرؤ أحد أن يناقشها، وبكل بساطة، صعد فوق برج بيزا المائل، وفي يوم هادئ من الرياح، ألقى كتلتين مختلفي الوزن وأثبت أنهما يهبطان بسرعة واحدة!

عارضت الكنيسة نظرية جاليليو، وكان في إيطاليا في ذلك الوقت مكاتب التفتيش، وهي عنيفة جدًا، وقامت بمحاكمة جاليليو، وهوجم جاليليو من كافة الجهات حتى أن هناك جماعات حديثة في المسيحية تسمى اللوترينز، وهم آباء البروتستانت فيما بعد، هاجموا الكنيسة الكاثوليكية، ولم يكن رائدهم مارتن لوثر كينج، ذلك الهولندي الذي يعرفه الجميع، لكن هناك شخص آخر اسمه كارفن، وهو رجل يميل إلى العلم، وبدأت نظرية الكارفنزم، وتقريبًا يشابه سبينوزا، كارفن هاجم جاليليو، وكانت هذه الضربة الموجعة لجاليليو، وقبل جاليليو، قتل وأحرق سبيتورو العالم المعروف قبل ١٤ يومًا من محاكمة جاليليو، فخاف جاليليو، وأيد نظرية كوبرنيكس، والإنسان يتعجب: كيف العلماء يغازلون السلطة الدينية، كوبرنيكس، وهو بولندي معروف، وجاء قبل جاليليو، والصراع لم يكن حول الحجر الذي يسقط كما قال أرسطو، لكن كان الشيء الذي توصلوا له بعد ذلك أن جاليليو قال: إن الأرض ليست مركز الكون، الأرض تدور حول الشمس، واخترع منظاراً وأثبت عن

---

(١) جاليليو جاليلي، (١٥٦٤-١٦٤٢م)، عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فأثبت أولاً خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، عن طريق الملاحظة والتجربة.

طريق قياسات رياضية والأفلاك، أن الأرض تدور حول الشمس، كوبرنيكس، هذا البولندي، وكان أيضًا راهبًا، رجل دين، اكتشف هذا الموضوع، ولكنه ألف كتابًا حول هذه النظرية وقدمه بشكل جميل إلى البابا في الفاتيكان، وقال له: إن هذه فرضيات أقدمها لك قد تكون غير صحيحة، فقبلها البابا، وأمر بتدريسها.

كوبرنيكس مشى في طريقه حتى تغير الكهنوت الموجود في الفاتيكان. جاليليو ليس لديه الحماس، وبقتلهم وحرقهم العالم الذي سبق جاليليو، فخاف جاليليو على نفسه وذكر لهم أن جميع ما قاله خطأ، وأنه تراجع عن كوبرنيكس، والشمس هي التي تدور حول الأرض، وأن الأرض هي مركز الكون، والأرض ثابتة لا تتحرك، واكتأب جاليليو بعد هذه الأحداث وذهب إلى ابنته ماريا.

القصة الجميلة هي العلاقة بينه وبين ماريا، كانت ماريا بارة بأبيها، وهي من أبر البنات بأبيها، والأب من شدة تعلقه بالعلم ونتيجة الاكتئاب الذي حل به، صار حزينًا، ويبكي في حضرة ابنته ماريا، وكانت ماريا تحكي له قصة كيف العالم الكبير الذي اكتشف أن الأرض كذا وكذا، وتعطي له قصص أن الناس سيعترفون أنك أنت الذي على صواب، وهم الخاطئون، فكان هنيئًا على حضن ابنته، وفي أحد الأيام قال لها أنا سعيد وبكى، فحضنته وبكت أيضًا حتى ماتت. هذا اليوم الذي أرسل جاليليو إلى أحد أصدقائه وقال: كان هذا اليوم انتهى فيه جاليليو، فقام جاليليو وكتب ما توصل إليه من العلم وواجه به العالم، وأوضح أن نظرية كوبرنيكس صحيحة بفضل ابنته، ثم مرض بعد ذلك إلى أن مات.

السلطة الدينية في زمن جاليليو، كانت هي الحاكمة، بوساطة الكنيسة التي حاربت العلماء في العصر الوسيط في أوروبا، طبعًا الإسلام ليس به سلطة دينية، والإسلام ليس به ما يسمَّى برجال الدين، وليس بالإسلام ما يعرف بالكهنوت، مثل ما قال برنارد لويس اليهودي: قال الإسلام هو اجتماع، ومن ثم عندما جاء الإسلام الناس قرؤوا وعلموا. ففي أحد الكتب الإسبانية يتحدث أحد المثقفين الأسبان،

يقول : "نحن لدينا العلم، وأخذنا دين الإسلام، لأن فيه اجتماعًا" وما الذي ساعد في نقل أوروبا من معراج إلى معراج، أنهم اطلعوا على كتب ابن رشد، عرفوا التجربة والمنطق والاستقراء، وكان الناس يحجون إلى قرطبة، وكان أهل قرطبة يتكلمون اللغة العربية في إيطاليا، فأنا أتكلم عن فترة معينة بالذات، ومعروف أن محاكم التفتيش حرقوا العلماء، ونعتوهم بالسحر!

الكتاب الآتي لأبي حامد الطبري، لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل عليه، وهذا الكتاب هو التفسير العظيم : "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"(١) هذا الكتاب نقلني نقلة عظيمة جدًا، وإن كان صعبًا ومتقعرًا وشديد الصعوبة، وأعترف أنني لم أفهم سوى ٣٠٪ منه، ولكنه نقلني نقلة إلى الجانب الآخر من الثقافة، الجانب الآخر من التأصيل، وبدأت أرجع إلى الكتب التأصيلية، والكتب التراثية، ولكون اسمه يتردد كثيرًا كأشهر تفسير للقرآن الكريم، ونعرفه باسم تفسير الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، عاش من ١٢٢٤ إلى ١٢٨٣م، الغريب أن هذا الكتاب لم يأت بالطرق التقليدية، والكتاب يعرفه الكل الآن، لكن حتى عام ١٩٠٠م، لم يكن يعرف هذا الكتاب، واختفى من وجه الأرض.

وهنا أود أن تحدث عن المستشرقين، هل هم ضرر بالكامل، أم نفع بالكامل، أم بين بين، فهذا المستشرق الهولندي الألماني، هو الذي قال : إن لديكم مفسرًا عظيمًا لديه كتاب عظيم، اسمه الطبري، وهذا الكتاب إن وجد لأغنانا عن جميع تفاسير القرآن، بحثوا عن الكتاب، وكان يوجد من الكتاب أجزاء هنا وهناك، ولكن الكتاب كله اختفى، الذي يعرفه الآن الجميع، ويعتقدون بالبداهة أنه موجود من البداية، المستشرقون هم الذين دلونا عليه، عندما بحثوا، أين وجدوا هذا الكتاب؟ في المراجع الإنجليزية، الكتاب حسب البلجيكي المستشرق الشهير، وجد الكتاب كاملاً في مكتبة أمير حائل، كيف وصل إلى حائل؟ أخذه المستشرقون وطبع في مكتبة بولاق في مصر.

---

(١) هو تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، رحمه الله، أجمع العلماء على عظيم قيمته، وأنه لا غنى عنه لطالب العلم عمومًا. .

شانترام، هذا كتاب قرأته خمس مرات، يتكون من ١٠٠٠ صفحة، حتى أحد أصدقائي ملوا من كثرة وجود هذا الكتاب معي، وكان هو الذي اشترى لي هذا الكتاب، وقلت سوف أترك هذا الكتاب، ولم يدر أنني اشتريت منه نسخة أخرى! وهذه النسخة هي نسخة صديقي، لم أستطع أن أتخلص منه، هذا الكتاب صاحبه قصة، ووراءه قصة، والذي كتب هذا الكتاب "شانترام" واحد من أكبر المجرمين على وجه الأرض، وقاتل، ومبيض أموال، وسفاح، ورجل عصابات وهو أسترالي اسمه: فردريك، وهو واحد من أعظم من كتب بالإنجليزية إلى يومنا هذا، أفضل من كتب بالإنجليزية رواية، وأسلوبًا، وتشويقًا، وواقعًا، وواقعية، حتى أن صحيفة الديلي تايمز قالت: إنه أعظم رواية تحدث لإنسان!

قال لي أحد الأصدقاء البريطانيين، أنه قرأ هذا الكتاب وقال: سيصبح هذا الكتاب هو الإنجيل my bible وكما قلنا عن كاتب هذا الكتاب من أوصاف سيئة: إنه مروج مخدرات، وقاتل، وعربيد، ومرتزق، وممثل سينما في الهند، عاشق، ومطارد من الإنتربول، حارب مع طالبان في أفغانستان، وعاش مع المشبوهين الهنود، وعرفني كيف يعيش الناس في بومباي، وأشياء مذهلة كثيرة، كما قيل: لو كتبت بالإبر على مآقي البصر لكانت عبرة لمن اعتبر، من كتاب ألف ليلة وليلة، تعرف على شخص اسمه عبدالقادر خان، وليس عبدالقادر خان الباكستاني، ولكنه مثله، شرير، وعلمني كيف يحارب جماعة الطالبان الأفغانية؟! وكيف كانت تمول جماعة طالبان؟! وقصص كثيرة، لهذا عندما كنت أقول: إنه يجب أن يكون لدينا إدارة لوجستية اليوم، لأن هناك أشياء يجب أن تعرف، تدير الدولة التي تعيش فيها، فالسفير ليس سفيرًا فقط، فهناك قنوات لا ندري عنها، هي التي تحرك المجتمعات، هذا الرجل أخرج الهند من جديد، عبدالقادر خان، واحد من أكبر تجار المخدرات في الهند، لا يترك صلاة، ويقول: إن المخدرات ليست حرامًا، وهو الذي موّل طالبان، هذا ملحد. يقول هذا العربيد المجرم أصبحت تلميذًا صغيرًا أمام عبدالقادر خان، هذا

الرجل لم يعتنق الإسلام، ولكنه في كتاباته كان مع الإسلام والمسلمين. وعبدالقادر باي خان، وباي تعني سيد باللغة الهندية، يقول: أرسلني عبدالقادر خان إلى خالد الأنصاري، وهو شخص فلسطيني في بومباي، لأتعلم دخول سوق المال السوداء الذي أعطاني الفرصة السانحة والوسيلة لكي أكون ما لم أرد أن أكنه أبدًا، فلم يكن يريد أن يكون مجرمًا محترفًا، يريد أن يسرق يومًا، ويقتل يومًا، ويصادق يومًا، ويرقص يومًا، لا أن أكون رجلاً محترفًا!!

ولكنني سأترك السعادة الغامرة، وسأترك السعادة لأنني محمي من هؤلاء الإخوة، يسمي عبدالقادر خان وخالد الأنصاري الفلسطيني إخوة، لقد كان خالد أول أستاذ لي، وكان من نوع الرجال الذي يحمل ثقل ماضيه معه أينما حل - شاهد التحليل النفسي عند هذا الرجل المجرم الهارب القاتل - يحمل بعينيه المتقدتين كمشاعل المعابد، لقد قابلت رجالاً مثل خالد في السجن، وفي ساحات المعارك، وفي أوكار الجريمة، ومختليات المرتزقة، ولقاءات المنفيين، كلهم يحملون صفة مشتركة بينهم، هم قساة، لأن هناك مواقد للقسوة في أعماق أسوأ الأحزان، وهم موثوقون لا يكذبون، وهم موثوقون لأن حقائق الحياة الفظيعة التي شرخت وجودهم تجعلهم لا يستطيعون أن يكذبوا، إنهم غاضبون لأنهم لا يستطيعون نسيان الماضي، ولا يستطيعون القدرة على الغفران، وهم موحدون، كلٌّ يعتقد ويتظاهر عندما يعيش معنا، فإنه يمكننا المشاركة، ولكن هذا لن يكون، لأن كل واحد منا في جزيرة مهجورة، وهؤلاء الذين مثل خالد كمن ألقوا في تلك الجزيرة، واستخدم كلمة إنجليزية لم يستخدمها عتاة اللغة، وذوقه العالي، على الرغم من أنه أول مرة يكتب، استخدم كلمة ماروند marooned، وهي كلمة للذين يقرؤون باللغة الإنجليزية جميلة جدًا، تنقلك إلى عصر القراصنة، وعصر سرقة العبيد من أفريقيا وترحيلهم منها عبر السنغال إلى المستعمرات الجديدة، فالذي لا يريدونه يرمى في الجزر، فخرجت كلمة ماروند؛ أي يرمى في الجزر الجديدة، لهذا كان الكتاب يقول: هم دائمًا معزولون وموحدون!

من آخر الأشياء التي قرأتها لشخص خفيف الظل اسمه ستيفن برايز، وهو من المثقفين والشعراء، ومن الأناس الذين يسمونهم Standing comedian أي الذين يلقون النكات واقفين، وله مؤلفات في أكثر من علم، ألف كتابًا عن أكثر الأشياء إضحاكًا، فأورد بعض الحكم للمشهورين في أمريكا، أول حكمة قال عن أحد المشهورين: إن السياسية تعطي للشخص قوة استثنائية، تجعلهم يتصرفون ببذاءة مع النساء!

أنا متأكد عمن يتحدث ستيفن برايز، ماذا تتوقعون أن يتحدث عنه؟ إنه كلينتون، الذي صار فيما بعد رئيس أمريكا، أما دونالد رامسفيلد، والذي كان وزير الدفاع الأمريكي السابق، قال للصحفيين: لن أعطيكم أرقامًا فالأعمال الذكية ليست من اختصاصي، هنا يوجد مواراة في اللغة الإنجليزية، فماذا قال: قال: Intelligent worksوكلمة Intelligent يمكن أن تحمل معنى الأشياء الذكية، ويمكن أن تأتي بمعنى الأعمال المخابراتية، وطبعًا هو كان غبيًا بالفعل!

بوب توب، هذا الأمريكي الذي كان مرشحًا في الانتخابات، يقول أنا مثل أزرائيلي، وهو كان أحد وزراء بريطانيا في الثلاثينيات وكان ذا شهرة واسعة، وهذا الرجل كان سيصبح أشهر من تشرشل لولا الظروف، قال شيئًا: قامت لعنة فسجلها عليه، هناك ممثلة مشهورة اسمها بيري ديفيد، تأتي في برامج المسابقات للممثلين المشهورين ويعطونهم نقودًا، فيقولون لها في أحد الأسئلة: لماذا دموع العين مالحة؟ فماذا قالت؟: الدمع يأتي من المثانة!! وتقول أيضًا: كل ليلة أقرأ كتابًا، وجاء ذلك في مؤتمر صحافي، حتى لا أفكر! وأخرى تقول: بسبب خلاف مع إحدى صديقاتها، قالت: أنا عقدت معها اتفاقًا شفهيًا، والاتفاق الشفهي لا يساوي الورق الذي كتب عليه! أما كريستين كوهيرا، المغنية الكبيرة، قالت: أين سيكون مهرجان كان السينمائي هذا العام؟ لعل الرد يكون في الجنادرية هذا العام؟!!

نتحدث الآن عن جدلية الكتاب الرقمي، والكتاب الورقي، وهل يمكن للأول أن يلغي الثاني؟ عملوا إحصاء في أمريكا، وفي أستراليا، وفي اليابان، ووجدوا أن

الكتاب المطبوع ما زال يزداد بشكل كبير، الآن الناس في سفرهم ورحلاتهم يحملون الكتب معهم، المطابع الآن في أمريكا والناشرون، وكذا في أوروبا، وفي اليابان، يعيشون أزهى أوقاتهم، وقبل فترة مكتبة الكونجرس ومكتبة نيويورك وهما من أكبر مكتبات العالم، مكتبة نيويورك قالت: إنها وضعت مليوني عنوان في العام الماضي من الكتب المطبوعة؛ أي الورقية، ومليون وخمسمئة عنوان من الأشرطة والأقراص والميكروفيش، وغيرها من الأشياء، والمفروض أن تذهب الأمور نحو الأشياء التقنية، ولكن من الغريب أن الكتاب هو الذي ينتشر. جيكي رولن، صاحب هاري بوتر، عادة نحن نقول: إن الشيء الرقمي يصير مع الأطفال ومع الشباب أكثر من الذين تعودوا على الكتاب، الأطفال الصغار ينمون بأعداد كبيرة في المكتبات الكبرى في أمريكا وبريطانيا واستراليا والدول الناطقة بالإنجليزية من أجل الكتاب، حتى الآن هاري بوتر الـ cd لم يلاقِ رواجًا مثل الكتاب حتى إن الشركة التي كانت تنتج الـ cd في لندن أعلنت إفلاسها، بينما طابع الكتاب يعد الآن من أغنى الأغنياء في بريطانيا، جيكي رولن كانت فقيرة لا تملك ثروة وغيرها، ثم أصبحوا من أثرياء العالم.

بالنسبة لوقتي مع القراءة؛ فعلاً ليس هناك وقت، الوقت يعتب عليك، أنا لدي ارتباطات كثيرة مع الناس ومع الجمعيات، وغيرها؛ وليس لدي تقنيات قراءة، وأقرأ في أي مكان، أنا إنسان كائن قارئ، خلقت وأنا أقرأ! في إحدى المرات شكا مني مدير المدرسة، وتابعتني الوالدة؛ فوجدت تحت كتاب العلوم كتابًا لسوبرمان؛ فأنا أقرأ في أي مكان وفي أي زمان: في السيارة أقرأ، في القطار أقرأ، في الطائرة أقرأ، ما عدا مجلس الشورى، فليس لدي أن تكون الأجواء هادئة لكي أقرأ، أو أجلس على شاطئ البحر لكي أقرأ، ليس لدي مثل هذه الأشياء، كما أنني أقرأ أي شيء، كنت أنا وهشام في تونس، ودخلنا شقة في أثناء بحثنا على مكان لنجلس فيه، وقد رأيت فوق الثلاجة كتابًا، فأخذت الكتاب، وفي تونس يتحدثون الفرنسية، والكتاب باللغة الإنجليزية، فالكتاب تجده إذا أنت أحببت القراءة!

أيضًا الاستيقاظ المبكر، هذا أخذته عن والدتي، فكانت تقوم قبل أذان الفجر، وتصيح فينا جميعًا: لماذا لا تستيقظون لأداء الصلاة؟! هناك قبائل في أفريقيا اسمها قبائل الماسان، مشهورون بتعذيب الأطفال الصغار لكي يعدونهم للحروب، وما زالوا موجودين حتى الآن في جنوب نيجيريا، فمن أشيائهم يعلمون الأبناء ألا يناموا، فيقومون قبل الفجر دفعة واحدة.

فبالنسبة لي عندما أسمع صوت أمي، قبل ما تأتي إليّ، أقوم، وتقول الوالدة: إن هذا الوقت به بركة، فالمسافة بين صلاة الفجر حتى الساعة الثامنة صباحًا هذا وقت ثري جدًا للكتابة، وثري جدًا للقراءة، والمخ يكون في أنشط حالاته، ويكون مستعدًا لتقبل أي شيء، الوقت هذا مقتول، وقت الظهر، الذي يتناول الناس فيه طعام الغداء، أيضًا وقت مقتول، ويمكن أن يستفيد منه الشخص استفادة كبيرة.

التلفزيون قاتل الوقت الأول، وقد قامت الفتيات في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بعمل تجربة في الظهران، وأسموه معرض أسبوع البيت، صارت الأم تخيط، والعائلة بالكامل تتعاون، الأولاد ينتهون من واجباتهم ويبتكرون أشياء جديدة، الأجمل العلاقات تحسنت بين الأسرة، فالوقت يخلق أشياء كثيرة. فالوقت موجود، ولكن استغلال الوقت، فإذا تخلصت من التلفزيون، ولو يومًا واحدًا، بالقيام مبكر تنجز أشياء كثيرة.

بالنسبة إلى القراءة النوعية للكتاب، والثقافات المختلفة، أعرف أن كثيرًا منكم سوف يتعرّض للكتب العربية، ولكن هذه دعوة للاطلاع على الجانب الآخر، على الأدب الأجنبي، يوجد كتاب ألف ليلة وليلة، وكان هناك شخص أمريكي من أكبر جُمَّاع الكتب في العالم اسمه: هارولد باتيك، عمل قائمة لأعظم كتب الأدب في العالم، (١٠٠٠) كتاب كان على قائمتها كتاب ألف ليلة وليلة، يقول: إن هذا الكتاب جاء لإبهار العالم، وللحث على الخيال في العالم، وهو أول صنعة روائية ظهرت على وجه الأرض، وتكلم أن الكتاب أعجوبة في حد ذاته؛ لأن المؤلف غير معروف، الذي ألفه الثقافة العامة والحياة العامة، ألف ليلة وليلة ظل (٣٠٠) سنة

يكتب، ويضاف إليه، ففيه أجمل الشعر، وفيه أجمل النثر، وفيه أجمل القصص، وفيه أجمل الخيال، وعاشت أوروبا عالة في الخيال على ألف ليلة وليلة، وترجم ألف ليلة وليلة عن طريق المستشرقين، وشغف الناس بقراءة شهرزاد وشهر يار، ولم يقف هذا الانحسار والاندهاش حتى في الصنعة السينمائية، فقد تبنت وولت ديزني قصص سندباد من كتاب ألف ليلة وليلة، وتبنت علاء الدين والمصباح السحري من ألف ليلة وليلة، وتبنت علي بابا والأربعين حرامي، بل إن علي بابا كلمة شائعة في العالم بأنه اللص، فإذا ذكروا علي بابا؟ أي أن هذا سارق، وتعني في الهند اللص!!

وهناك كتاب آخر للكاتب إبراهيم الكوني(١)، وهو كاتب ليبي، هذا الرجل ليس صنعته فقط الكتابة، ولكنه صاحب لغة ساحرة عجيبة، يقابل شخصًا في بريطانيا أمريكيًا اسمه ادجر أليمبو، كاتب يكتب في الصحراء، ودائمًا في الصحراء، وكاتب مبدع، ولم يكتشف بما يجب.

الكتب التي أثرت عليّ من الكتب الأجنبية، كان كتاب نيتشه(٢) الألماني، عن السوبرمان، أثر في كياني الفكري لمدة طويلة، وقد وثقت بالآداب البافارية والألمانية، من أمثال: نيتشه، وكانط(٣) وغيرهما. أيضًا كان واحد منهم قادني إلى أشياء

---

(١) إبراهيم الكوني: روائي ليبي، ولد بغدامس عام ١٩٤٨م، يجيد تسع لغات وكتب ستين كتاباً حتى الآن، يقوم عمله الأدبي الروائي على عدد من العناصر المحدودة، على عالم الصحراء بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود. وتدور معظم رواياته على جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية وموجوداتها وعالمها المحكوم بالحتمية والقدر الذي لا يُردّ.

(٢) فريدريك فيلهيلم نيتشه: (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) فيلسوف وشاعر ألماني، كان من أبرز الممهدين لـ (علم النفس)، وكان عالم لغويات متميزًا. كتب نصوصًا وكتبًا نقدية حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً بلغة ألمانية بارعة. يعد من بين الفلاسفة الأكثر شيوعًا وتداولاً بين القراء. يعد نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة.

(٣) إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر من بروسيا ومدينة كونغسبرغ. كان آخر فيلسوف مؤثر في أوروبا الحديثة في التسلسل الكلاسيكي لنظرية المعرفة خلال عصر التنوير. أوجد كانط منظوراً واسعًا جديداً في الفلسفة أثر في الفلسفة حتى القرن الواحد والعشرين. نشر أعمالا مهمةً عن نظرية المعرفة كذلك أعمالاً متعلقة بالدين والقانون والتاريخ. واحد من أكثر أعماله شهرة هو نقد العقل المجرد، الذي هو بحث واستقصاء عن محدوديات وبنية العقل نفسه.

جميلة، مثل: جوته كان يقول: إن أعظم من مشى على الأرض ﷺ، وكان يقول أيضًا في الديوان الشرقي، ونيتشه كان يبشر بالسوبرمان، ولم يؤثر عليّ فقط، لكنه أثر على كل الأمة الآرية والألمانية، بينما جوته كان رائعًا جدًا، وتعلق بالنبي ﷺ. ومن الكتب المهمة كتاب لكاتب اسمه فرديناند لويس، وهو مستشرق يهودي، وهذا المستشرق الغربي، هو أول من تحدث عن conflict of civilizations صراع الحضارات قبل صموئيل هنتنجتون، هو الذي تحدث عن صدام الحضارات، هذا كان يقول في محاضرة: يا جماعة يا مسيحيين أنتم ليس لديكم دين، ليس هناك ما يسمى الدين، بل هناك شيء اسمه Christianity للمسيحية، وهناك Christendom أي مملكة المسيحية، الدين الحقيقي هو دين الإسلام؛ لأن الإسلام فيه انتماء، وقال أيضًا شيئًا آخر، قال: إن الإسلام هو الدين الذي ازدهر، وسيزدهر، وسيبقى مزدهرًا إلى آخر يوم للبشر.

عملية تسويق الكتاب مشوِّقة؛ ففي النيويورك تايمز بكس، تقول: إن هذا رقم واحد، وغير ذلك، هناك شخص اسمه ستيفن كين وهو ماكينة تفريخ كتب، يكتب عن كتاب اسمه The shadow of wind كتاب لكاتب أسباني، ستيفن كين، الذي يخرج كل عام أكثر من ١٨ كتابًا، وجميع كتبه تأخذ مراتب متقدمة، فهناك يقولون: أحسن الكتب الخيالية، أحسن كتب في الطب، فإذا كنت لا تهوى العلوم فلن تقرأ، حتى لو كان أحسن كتاب في العلوم، وإذا كنت لا تهتم بالآداب فلن تهتم بأفضل كتاب في الأدب، كذلك إذا كنت تهتم بالقصص فستبحث عن الأشياء المتميزة في هذا المجال. هناك شيء في أوروبا وأمريكا يسمونه كتب العامة، ومن ضمنها كتاب خطير للعالم المعوق البريطاني، الذي يجلس على كرسي، ولا يتحدث، معاق تمامًا، كتلة لحم، هوكنز هذا كتب كتابًا دحض فيه أشياء كثيرة من نظريات آينشتين، وكتب كتابًا آخرًا عن الفلك، وهو كتاب علمي كُتِبَ للعامة، وأصبح هذا الكتاب لمدة خمس سنوات على Sunday timeالكتاب الأكثر مبيعًا، فالأشياء التي يعلن عنها يعرفها الناس، والتي لم

يعلن عنها لا يدري عنها الناس. الإنترنت، إذا علمت الاسم تبحث عنه بسرعة، ولكن الإنترنت لا يعطيك المادة كاملة، لا ينشرون في الإنترنت الكتب كاملة.

أقول: إن الكتب عندما تفتح ولا تخاف منها، فيها أشياء كثيرة تدعو إلى الجادة الصحيحة. وإذا كان يقصد الأستاذ الذي سألني، الانطباع، أو التوجيه، أنا كنت أقرأ لبوذا، لكن التوجيه أيضًا مهم، وفي كثير من الأمور تحتاج إلى التوجيه إلى الكتب الصحيحة، وأيضًا أن تقرأ للأطراف الأخرى، بدلاً من أن تقرأ لطرف واحد، حتى لا تصبح منغلقًا، يجب أن تعرف الأشياء الأخرى، حتى لو ذهبت بعيدًا فسوف ترجع إلى الصحيح.

طبعًا القراءة تختلف من كتاب لكتاب، أنا أشجع القراءة من جميع النواحي، فالقراءة أفضل من عدم القراءة، فيجب أن تقرأ ومن خلال القراءة ستتفتح لك الأبواب والاتجاهات، وتتولد لديك القدرة على الاختيار. فعندما نتكلم عن الشيوعية، من الذي سيعطي ابنه كتابًا عن الشيوعية؟ ولكن لكي نعرف أن الشيوعية هذه خطأ أم صواب؟ يجب أن نقرأ عنها، وكيف نتمكن من محاربة الشيوعية، ونحن لا نعرف ما هي الشيوعية؟ فهناك أشياء يجب أن تزول، أفضل، أحسن، وقوموني إذا أخطأت، أنا أقول: لا يوجد شيء مخيف في القراءة، حتى الأشياء السيئة، فكيف نعرف أنه سيئ؟!

جاء الخميني وتوعد من يقرأ كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية"، أتحدى أي واحد يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه بفكرة واحدة، فهو كتاب قميء من بدايته إلى نهايته، أو هذا حيدر حيدر، كتاب سيئ جدًا، وعجزت أن أخرج منه بفكرة واحدة، لكن لو لم أقرأه لما عرفت أنه سيئ لهذا الحد؛ فالمحاذير، بألا تقرأ هذا، والنفس البشرية جبلت على الفضول. الإغريق لديهم ما يسمى bandora box، الإغريق يقولون: إن الله أول ما خلق زيوس في جبل أولمب، وكلهم رجال يستمتعون، ويقولون: إن الرجال كانوا سعداء جدًا، فجاء رب الآلهة عندهم وأعطاهم صندوق

اسمه بندورا بكس، وطلب من هؤلاء الرجال بألا يفتحوا هذا الصندوق، هذا دليل على الفضول في الغريزة البشرية. لو قال لهم افتحوه، لما فتحوه، ولكن فجأة غلبهم الفضول وفتحوا الصندوق، وخرجت الأدخنة من الصندوق، وهذه الأدخنة هي: دخان الكذب، ودخان النفاق، ودخان الشر، ثم تكون وصار على شكل امرأة. ومن ذاك الوقت عرفوا النساء، وظهرت هيرا، ومنذ ذلك الوقت الرجل لم يعد سعيداً. هذه أسطورة، ولكن العكس هو الصحيح، فإن النساء هم سر سعادة الأرض.

بالنسبة لتفاؤلي عن العودة إلى القراءة، أقول: كنت مع معالي وزير الإعلام، وتحدثت معه بصراحة، في خطط كبيرة لا تنتهي في فترة واحدة، واقترحت عليه تطبيق خيارين: الأول تطوير أدوات الملاحة، مثل ملاح السفينة، إذا طور أدوات الملاحة، وقد لا يصل إلى المرفأ، لكن مع تطوير هذه الأدوات قد تكون أسهل على القائد الذي بعدك في الوصول إلى المرفأ، وهناك مشاريع سهلة وسريعة، مثل مشاريع القراءة، والكتاب، وقد قدمت لمعاليه ملفًا كاملاً، وأرجو من هذا المكان أن يطبق على شقين: شق مهرجان قرائي لكل المملكة، ومهرجان تطوير المكتبات العامة؛ فالمكتبات العامة الآن مواقعها ممتازة، وأيضًا المباني، ولكنها مهملة، ومن ثم تحتاج إلى التطوير، كما ذكرت له، نحن لا ننظر، وتعال معنا إلى المنطقة الشرقية، فلدينا هناك برنامج اسمه " أبناء وبنات المدن "، وقاموا بتجارب عملية على الأرض، وليست أشياء نظرية، الشباب مشوا باتجاه آخر داخل الأحياء غير المحبوبة في مدينة الدمام، ويسمونها "الباطنية" بها كل أنواع الممارسات الخاطئة، وبها كل الأوصاف التي تتخيلونها، فبدؤوا بالفعل بالرسم على الجدران، ثم فكرنا في تنظيم مهرجان ومسابقة للقراءة، ونعطي جوائز على ذلك، نجحت المسابقة لدرجة أن خمسين عائلة دخلوا دفعة واحدة، وقد وزع عليهم الأبناء كتبًا بسيطة، وطلبوا منهم أن يقرؤوا هم وأبناؤهم، ومن يفزْ يعطَ جوائز، وأسهم رجال الأعمال في المشروع، وتطور الموضوع، وصاروا يطلبون المزيد من الكتب، وأصبحت تتوافر معلومات عن الحي،

والأطفال تقدموا بمشروع كامل، ونحن نعرضه على معالي الوزير، فهؤلاء الشباب هم القاطرة، أما الكبار، فهم الذين يقفون أمام القاطرة ويوجهونها كيف تسير يمينًا أو يسارًا، وينبهون يا شباب لا تأخذون هذا الطريق، لأن هذا الطريق نحن عدنا منه، فيجب الخروج من إطار القنوات الرسمية، والوزارات الرسمية.

وبالفعل إذا لم نقرأ ونقرأ ونقرأ لتحجرنا، وإذا تحجرنا صار هناك نوع من ضيق الأفق الشديد، القراءة تذيب التعصب، وترفع آفاق الفكر والتقبل، ومن ثم القارئون الحقيقيون، وليس القارئ المنهج، مثل الذي في المضمار، هم أكبر قدرة على الحوار، والأكثر قدرة على التواصل، وأكثر قدرة على صنع مجتمع أفضل.

القراءة..قضية..![1]

عبدالفتاح أبو مدين

رئيس النادي الأدبي الثقافي بجدة سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، فتستطيعون أن تقتنعوا أن من بينكم قد جاء لكي يتعلم، لا لأن يلقي عليكم كلامًا، على كل حال، شكر الله فضل المتفضلين، وهذا يزيد فيّ من التشجيع، ومن السعي نحو التعلم والقراءة والإفادة مما وصل إليه كثير ممن قطعوا أشواطًا كبيرة وطويلة في البحث العلمي وفي البحث عن الثقافة:

إِن يَجِدني يَتَحَدَّث أَو يَجِد مَلَلاً يَطوي الأَحاديثَ اقتِضابا[2]

تجاربهم في القراءة، هذا العنوان الذي اختارته مكتبة الملك عبدالعزيز، رطب الله ثراه، للحديث عن الكتاب، فهو عنوان جميل يستطيع مغرم القراءة أن يجد مجالاً للحديث عن علاقته بالكتاب، وهي علاقة جد حميمة، ذلك أن صحبة الكتاب مغرية لدى الذين كانت لهم هذه العلاقات الودود، فهي حين نقرأ شاعر العرب بلا منازع أبي الطيب المتنبي: وخير جليس في الزمان كتاب، نقول ((لقد صدق أبو الطيب في وصفه للكتاب؛ لأنه خير جليس وخير صديق، ونقرأ في العصر الحديث قول أمير الشعراء:

أَنا مَن بَدَّلَ بِالكُتبِ الصِحابا
لَم أَجِد لي وافِيًا إِلاّ الكِتابا

---

[1] ألقيت هذه المحاضرة، مساء الثلاثاء ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ، الموافق ١٦ يونيو ٢٠٠٩م بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع . .

[2] من قصيدة طويلة لأمير الشعراء أحمد شوقي، يقول في مطلعها:

أَنا مَن بَدَّلَ بِالكُتبِ الصِحابا لَم أَجِد لي وافِيًا إِلاّ الكِتابا!

صاحِبٌ إن عِبتَهُ أو لَم تَعب
لَيسَ بِالواجِدِ لِلصاحِبِ عابا
كُلَّما أخلَقتُهُ جَدَّدَني
وَكَساني مِن حِلى الفَضلِ ثِيابا
صُحبَةٌ لَم أشكُ مِنها رِيبَةً
وَودادٌ لَم يُكَلِّفني عِتابا
رُبَّ لَيلٍ لَم نُقَصِّر فيهِ عَن
سَمَرٍ طالَ عَلى الصَمتِ وَطابا
كانَ مِن هَمِّ نَهاري راحَتي
وَنَدامايَ وَنَقلِيَ وَالشَرابا
إِن يَجِدني يَتَحَدَّث أو يَجِد
مَلَلاً يَطوي الأَحاديثَ اقتِضابا
تَجِدُ الكُتبَ عَلى النَقدِ كَما
تَجِدُ الإِخوانَ صِدقاً وَكِذابا
صالِحُ الإِخوانِ يَبغيكَ التُقى
وَرَشيدُ الكُتبِ يَبغيكَ الصَوابا
غالِ بِالتاريخِ وَاجعَل صُحفَهُ
مِن كِتابِ اللَهِ في الإِجلالِ قابا

حقًا إنها صحبة متميزة، وكذلك صحبة الإخوان من أولي الألباب، وأجد أبا الطيب يصف الكتاب بأنه خير جليس، وهذا حق وصحيح، وحين أقف اليوم لأسوق تجربة متواضعة، فإن الدافع الأول إليها كانت الحاجة، وأنا ولدّاتي ولعلهم كثير الذين سعوا جادين إلى هذه الصحبة الأثيرة، فإن ظروفًا ربما كانت صعبة قادت إلى تلك الصحبة، فإنسان مثلي لم يتح له نصيب من التعليم يحقق له حياة كريمة، وليس له سبيل أخرى من موارد تسد الكفاف في مسار حياته، أو تكفل له شيئًا من

الضروريات، وأدركت من خلال تعليمي المنتظم بشهور لم تزد عن العام إلا أشهراً، وهي الفترة التي جلست فيها على رحلات فصول التعليم، شهور بعضها في السنة الرابعة الابتدائية، وعام دراسي في السنة السادسة الابتدائية تخللتها أسابيع في صحبة أستاذ في المسجد النبوي الشريف في قراءة نصوص من مقرر السنة الخامسة الابتدائية نصح بذلك شيخ لي في مدرسة العلوم الشرعية في دار السكينة والحنان، ليتاح لي الالتحاق بالسنة السادسة، مرد ذلك تقدمي في السن مقارنة بالطلبة في الفصول الدراسية يومئذ، وهذا الجمز السريع الذي فرضته تلك الظروف وصولاً إلى امتحان الشهادة الابتدائية كانت نتيجته أنني أخفقت في مادة من المقرر الدراسي هي التعبير، وقال الشيخ محمد الحافظ بن موسى(١)، رطب الله ثراه، إن مادة التعبير تكتسب بالمرانة عبر القراءة، لكن الأستاذ الذي قرأ أجوبتي في الامتحان نصح في رسالته لي بتعليمي ونصحه لي، كان ذلك دافعًا لي أن أسعى نحو القراءة، وشكرت في نفسي ذلك النصح، وأنني كلما جاء ذكر إخفاقي في مادة التعبير أترحم على ذلك الأستاذ المخلص في رسالته، ولا أحد منَّا يعرف صاحبه، فهو كان في المديرية العامة للمعارف في مكة المكرمة، وأنا في دار الهجرة المباركة بالمدينة المنورة، بعد هذه الشهور الثلاثة عشرة في الدراسة المنتظمة والعابرة، وإكمالي في دروس التعبير، وكثيراً الآن في إدارة التعليم يقولون الدور الثاني معنى هذا في اللغة العربية أن هناك دوراً ثالثًا ورابعًا وخامسًا، والصحيح ونحن في بلد اللغة وبلد التعلم والتعليم أن نقول الدور الآخر، بعد هذه الشهور الثلاثة عشرة، في الدراسة المنتظمة والعابرة وإكمالي في درس التعبير في الدور الآخر، قدر لي أن نجحت في هذه المادة، ولم أفكر في مواصلة الدراسة في المرحلة الثانوية، ولم يكن هناك يومئذ مرحلة إعدادية إنما بعد الابتدائية كانت الثانوية وبوسطها وعلى الأصح ثلاث سنوات تسمى مرحلة الثقافة، والسنة الأخيرة ختام المرحلة الثانوية.

---

(١) هو العلامة القاضي المؤرخ محمد الحافظ بن موسى حميد، رحمه الله، (ت ١٤١٨ هـ) من علماء المدينة المنورة وقضاتها.

إذاً لم يتح لي المضي في مواصلة الدراسة، ومردُّ ذلك أن خالي الذي كان ينفق عليّ في حدود الكفاف قد تقاعد، وعزَّ عليّ أن أحمِّله شيئًا من أعبائي في مواصلة الدراسة الثانوية وما بعدها في السعي في الدراسة في الأزهر أو في الجامعات المصرية من خلال البعثات التي توفد إلى هناك، ولذلك رجوت خالي أن يوصي عليّ من يضعني في وظيفة في الجمارك بجدة، حيث كان يشغل نظارة عموم الرسوم، كما كانت تسمى يومئذ، وقد فعل بكتابة رسالة إلى رئيس تحرير أمانة جمارك الحجاز بجدة حيث تغير مسمَّى النظارة؛ فأصبح هناك أمانات في أنحاء البلاد في المناطق الشرقية والجنوبية والشمالية، وفي جدة تم تعييني بعد عدة شهور، في وظيفة مقيد أوراق، ولكنني في موازين كفايات العاملين وجدت نفسي دونهم!

ولمست من تجربة تكليفي بتقييد بعض الرسائل الموجهة للملحقات التابعة للأمانة، أن أمين الجمارك كان لا يجيز التوقيع على الرسائل التي أختطها بقلم متعثِّر بقوله: إنها لا تقرأ؛ فتكتب على الآلة الكاتبة!

وأدركت يومها أنني بحاجة إلى القراءة، وقد أتيح لي التعرف إلى الشاعر الأديب الأستاذ محمود عارف(١) - رحمه الله - فرجوته عوني فنصحني باقتناء نظرات المنفلوطي، ففعلت وكنت أقرأ عليه كل يوم مقالة من مقالات النظرات، وكان يكلفني بتلخيص ما قرأت، والمحصلة أنني أنقل من النص أكثر مما ينبغي عليّ؛ لأن محصولي من بدائيات التعبير صفر!

لمست ذلك من دراستي بالسنة السادسة الابتدائية، فرفاقي يكتبون في درس التعبير صفحة أو أكثر من ذلك بسطور معدودة، وكان ما أكتبه بين خمسة سطور

---

(١) محمود عارف، أديب وشاعر سعودي رائد من منطقة الحجاز. ولد في جدة عام ١٩٠٧م / ١٣٢٧هـ تلقى تعليمه بمدارس الفلاح، وعمل أستاذًا فيها. تنقل في عدد من الوظائف الحكومية، حتى عيّن في مجلس الشورى بمكة. عمل رئيساً لتحرير جريدة عكاظ في بداية قيام المؤسسات الصحافية. عضو سابق في النادي الأدبي الثقافي بجدة. تحصل على وثيقة الإبداع الأدبي من رابطة الأدب الحديث بالقاهرة. وهو شاعر مكثر، جمع قصائده في ثلاثة عشر ديوانًا، كما أنه كاتب مقالة، أنتج قرابة أربعمائة مقالة، أودع بعضها في كتب خمسة. له إسهامات أدبية واجتماعية كثيرة، منها: إسهامه في تأسيس نادي جدة الأدبي، وكتاباته الصحفية التي لا تخلو من الهم الإصلاحي والشعور الوطني الصادق. كُرِّم في أكثر من محفل. توفي في ٢٧/ ١١/ ١٤٢١هـ، رحمه الله.

وستة، وعرفت بعد التحاقي بالوظيفة في الجمارك أن مصحح وريقات امتحاني في مديرية المعارف يومئذ كان محقًا في إكمالي في درس التعبير كما أشرت إلى ذلك آنفًا؛ لأنه أخلص في أداء واجبه وأمانته رحمه الله، وبدأت القراءة لإدراكي أنها حاجة ملحة فشرعت أقرأ كل ما هو متاح لي وهو قليل في تلك الأيام المبكرة يضاف إلى ذلك الفقر المدقع لأنني عملت تسعة أشهر ملازمًا في الجمارك بدون مرتب، أما نسبة ما أقرأ فهو متواضع جداً إلى حد الضعف والهزال غير أنني لم أيأس ولم أتوقف؛ ذلك لأني عرفت قيمة القراءة، لكن فهمي لم يرق إلى التقدم بشيء من الكفاية. وفي طفولتي حفظت ما يقرب من نصف الكتاب العزيز، ذلك لأن التعليم لم يتح لي مبكرًا وتحصيلي المحدود الضيق المتأخر لم يهيئني لشيء من العمل، ومنذ أول مرتب في الوظيفة الجمركية شرعت أنفق شطرًا منه على شراء الكتب، فقترت على نفسي بحيث أنني كنت أشتري الكتاب على حساب طعامي وكنت سعيدًا بذلك؛ لأن نهمي القرائي لا يقاس عليه في تلك الأيام البعيدة.

لقد كنت أقرأ على فانوس هندي في حجرة من لبن، فإذا تعبت أستلقي على ظهري؛ أقرأ والفانوس على صفيحة خلف رأسي، وفي أكثر الأحيان أنام والكتاب على صدري وأصحو لا أدري متى وأضع الكتاب جانبًا وأطفئ الفانوس وأكمل نومي!

تلك حقبة كانت قبل عقود، لا أقيسها على ما تلاها في ارتقاء هذا البلد العزيز الكريم، وأكبر الظن أن الإنسان الذي يدرك الحاجة التي يطمع ويطمح أن يصل إليها بإصرار ودأب وجد لا حدود له، يصل بحول الله وقوته إلى بلوغ غرضه، وأعني المطالب النبيلة إلى الهدف الأسمى، وهذا النهم الذي وعيته وجعلته نصب عيني كان هاجسي وشاغلي. ومع أنني تعرفت على أصدقاء من خلال المعايشة، وكانوا يدعونني للسهر معهم وممارسة التسالي بلعب البلوت^(١)؛ فإن ذلك المسلك لم يدفع بي إلى الاندماج فيه؛ فقد رأيت أنه مضيعة لوقت ثمين غال، وأنا ذو حاجة ورغبة

---

(١) لعبة البلوت، هي (الكوتشينة)، لعبة يلعبها أربعة أشخاص باستخدام ٣٢ ورقة . . !

عارمة تدفع بي أن أكمل النقص الذي في كياني ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وهو أن أقرأ وأقرأ ما استطعت القراءة، ذلك أن القراءة الحقة تدفع بعاشقها آفاقًا، إذا التزم هدفه وحاجته، وأتيح لي أن أصبح محررًا في جمرك جدة بعد عامين اثنين؛ لأن مستوى التعبير تحسّن عندي، وأصبحت أحسن ممارسة الكتابة في الخطابات الصادرة بلغة تميل إلى الإتقان، وبالمناسبة فإن إقامتي في جدة أتاحت لي التعرف على الأستاذ حمزة سعداوي - رحمه الله - كان يعلم النحو والبلاغة في مدرسة الفلاح بجدة، وكنت أسكن بالقرب من داره، وكانت جدة يومئذ مدينة قليلة السكان رغم أهمية موقعها، حيث إنها بوابة الحرمين، وبلد تجاري قديم، فهي محوطة بسور من أبعادها الأربعة، وما عداها خلاء، سوى منطقة الرويس في شمالها، والنزلة اليمنية بجنوبها، ومن قراءاتي المحدودة جدًا، أدركت أنني أحتاج إلى أن ترتقي لغتي لتستقيم قراءتي فرجوت الأستاذ السعداوي أن يعينني في دروس النحو والبلاغة فاستجاب، وبدأ تواصلي معه حيث لم يطل مكثي مع الأستاذ محمود عارف في قراءة نظرات المنفلوطي، وكذلك فإن دراستي لقواعد البلاغة مع الأستاذ السعداوي لم تطل أيضًا، ذلك لأن فيه صرامة الرجل الجاد، وأنا قصرت في أداء الواجب الذي يكلفني به مرتين فغضب وألقى إليّ بالكراس الذي أدون فيه الواجبات وقال: إذا كنت غير مهيأ إلى ما أقدمت عليه فلا تضيّع وقتي، وتأثرت بانقطاعي عن مواصلة درسي معه، ولمت نفسي غير أنني بعد سنوات معدودة سعيت إليه في مدرسة الفلاح وقدمت إليه كتابي الأول "أمواج وأثباج" في النقد الأدبي، وكأني أقول له إن الطالب الذي قصر في مد علاقة الدرس معك، استطاع أن يحول الكتابة الأدبية على نحو ما، وكنت أشتري مجلة الرسالة(١) لصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات، كل أسبوع، لكنني لا أحسن فهم مقالات كتابها الكبار، وكانوا كلهم كباراً أمثال:

---

(١) مجلة فكرية، وثقافية، ترأس تحريرها الأديب المصري أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨م) في عام ١٩٣٣م، وكتب فيها معظم المقالات عن رموز الأدب العربي آنذاك من مثل: العقاد، سيد قطب، أحمد أمين، محمد فريد أبو حديد، أحمد زكي، مصطفى عبد الرازق، مصطفى صادق الرافعي، طه حسين، محمود محمد شاكر، وأبو القاسم الشابي. ظلت مجلة الرسالة عشرين سنة، تحمل رسالة الفكر العربي في كل مكان من العالم الناطق بالضاد والتي كانت مدرسة حقيقية ربت جيلاً وأنشأت أدبًا، وثقفت وعلمت، وقامت على صفحاتها معارك النقد والتجديد.

العقاد، وطه حسين، والرافعي، وأحمد أمين(١)، والمازني(٢)، وهيكل(٣)، وآخرين أكفاء، والرسالة تحمل قصائد شعراء مصريين وغيرهم من الوطن العربي، وأستاذي العارف هو الذي دلني على مجلة الرسالة، ظنًا منه أن تلميذه قادر على فهم ما فيها، وأنني ربما في قابل الأيام أستطيع استيعاب ذلك الأدب العالي المستوى، وقدر لي بعد أربع سنوات من هذا الدأب في القراءة، أن أحاول الكتابة، ظنًا مني أنها مفتاح الظهور، وقادني ولعي بالقراءة وطموحي، أنني شاركت في إصدار صحيفة الأضواء، وبعد توقفها، أتيح لي إصدار مجلة الرائد الأدبية، استمرت إلى صدور نظام المؤسسات الصحفية، كل ذلك دوافع للرغبة في معالجة القراءة والكتابة، غير أنني أدركت بعد ذلك أن القراءة المعمقة ينبغي لها أن تسبق الظهور؛ لأن النضج أساس لمن يريد أن يقرأ، يشارك بقلمه فيما يخوض فيه الناس، أو الكتاب على الأصح، وهذا طبع الإنسان العجل، لأنه خلق من عجل، كما يحدثنا الكتاب

---

(١) أحمد أمين: أديب ومفكر ومؤرخ وكاتب مصري ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٨م عمل مدرسًا بمدرسة القضاء الشرعي سنوات طويلة، ثم جلس على كرسي القضاء ليحكم بين الناس بالعدل، ثم أصبح أستاذًا بالجامعة، فعميدًا رغم أنه لا يحمل درجة الدكتوراة، ثم تركها ليسهم في إنشاء مجلة الثقافة العربية لتنافس: "الرسالة"، ثم بدأ رحلة من البحث والتنقيب في الحياة العقلية للعرب، فجاء بعد عناء طويل بـ"فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" و"ظُهر الإسلام"، وغيرها من الكتب.

(٢) إبراهيم عبد القادر المازني: أديب مجدد، من كبار الكتاب. تخرج بمدرسة المعلمين، وعانى التدريس، ثم الصحافة وكان من أبرع الناس في الترجمة عن الإنجليزية. ونظم الشعر، وله فيه معان مبتكرة اقتبس بعضها من أدب الغرب، ثم عمل في جريدة (الأخبار) مع أمين الرافعي، و(البلاغ) مع عبد القادر حمزة وكتب في صحف يومية أخرى، وأصدر مجلة (الأسبوع) مدة قصيرة، وملأ المجلات الشهرية والأسبوعية المصرية بفيض من مقالاته. وهو من أعضاء المجتمع العلمي العربي بدمشق، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة. له (ديوان شعر: حصاد الهشيم) مقالات، و(إبراهيم الكاتب) جزآن، قصة، و(قبض الريح) و(صندوق الدنيا)، و(ديوان شعر)، جزآن صغيران، و(رحلة الحجاز) و(بشار بن برد)، وترجم عن الإنجليزية (مختارات من القصص الإنجليزي) و(الكتاب الأبيض الإنجليزي).

(٣) محمد حسين هيكل: أديب وسياسي مصري. وهو رائد الرواية العربية فإليه ينسب شرف كتابة أول رواية حقيقية في الأدب العربي الحديث هي رواية "زينب" التي تحولت إلى أول فيلم سينمائي. وُلد في ٢٠/ ١٢ / ١٨٨٨م بالمنصورة. وأتم دراسة الحقوق عام ١٩٠٩م، وحصل على الدكتوراه من جامعة باريس عام ١٩١٣م. عمل بالصحافة، وتولى رئاسة تحرير صحيفة السياسة، ثم عضو المجمع اللغوي، ثم عيِّن وزيراً للمعارف والشئون الاجتماعية، ثم رئيساً لوفد مصر لدي الأمم المتحدة، ورئيسا لحزب الأحرار الدستوريين، وقد تولى منصب الوزارة مرات عدة، ورأس مجلس الشيوخ من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٠م، توفي في ٨/ ١٢/ ١٩٥٦م.

العزيز، غير أن المرء الذي يتحدى نفسه ليكون ربما أتيح له قدر من التحصيل ما دام سائرًا على الدرب ومتوكلاً على مولاه؛ فإن نصيبه من هذه المجاهدة سيثمر ويتحقق إن شاء الله، وأنا أتحدث عن نفسي كمثال عبر جهد المقل، أما الطامحون الذين أطالوا التلقي من خلال معلمين كبار، فنصيبهم من المعرفة كثير حين يكونون جادين وصادقين؛ إذا كان لهم أكثر من سبيل في الدرس والتلقي والسهر الطويل، في صحبة كنوز المعارف وما أكثرها.

إن التعلق بالكتاب يصبح عادة من خلال استمرار هذه الصحبة المثمرة الجميلة، وقد تؤدي هذه المداومة إلى كثير من الغبطة حين يصبح الإنسان ويمسي وبيده كتاب متجدد العناوين، وحوله كنوز من هذه المعارف التي لا حدود لها، وقد أسعدتني هذه الصحبة الثرية، فصارت ديدني، وكنت أقرأ في بعض الأيام مئة صفحة في اليوم والليلة، بجانب عملي الوظيفي، ولفت نظري في آخر رسالة رئيس المشروع الثقافي الوطني بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة الدكتور فهد العليان، هذه الجملة، لتجديد الصلة بالكتاب، ولعلي أقول إن البدء من البداية، بمعنى أن قضية القراءة بعامة تبدأ من بداية التعليم العام، فإذا أصبح الطالب والطالبة ذوي علاقة قوية بالقراءة العامة والقراءة الحرة، أمكن لهذه الصحبة أن تثمر، وأمامنا الغرب عامة، وكذلك كثير من البلاد العربية، نرى أن القراءة عندهم عادة ورغبة قوية؛ لأنهم تدربوا وتعلقوا بالقراءة من البداية، فتوثقت الصلة بهذا الكنز، ولو عدنا لأكثر من أربعة عشر قرنًا، فإننا واجدون أن أول ما نزل من الكتاب العزيز على خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم، كلمة اقرأ، وحين تصبح أمة اقرأ لا تقرأ فإنها إشكالية خطيرة، وأنا لا أهول القضية، ذلك أنه واقع مرير، ولكنه ليس عامًا، وإذا كان البدء من البداية كما نقول في مثلنا السائر، وإذا البيت قد قصّر في أداء أمانته، وينطبق عليه قولة: أمٌ تخلت وأبٌ مشغول، فإن الأمل بعد الله في تعليم قوي عبر وسائله المتعددة، ومنه نستطيع غرس حب القراءة، ينشأ ناشئ الفتية من الجنسين عبر التعليم المدرسي القوي

الفاعل قارئين، وسمو الأمير فيصل بن عبدالله بن محمد وزير التربية والتعليم، قال قبل أيام معدودة، إنه يحتاج إلى مئة يوم ليرتقي بالتعليم العام، وحين أعاد النظر في وضع أكثر ستة ملايين طالب وطالبة، وتأكد من المستوى العام، أو القائم عاد وقال إن الرقم الذي أعلنته يحتاج إلى صفر ليصبح ألف يوم، وفي تقديري أن إصلاح التعليم العام بقيادة رجل طموح كالأمير فيصل بن عبدالله قائد التعليم العام اليوم، سيكون بعون الله، ثم بعملية إصلاحية قوية، سيصبح حال التعليم بخير، إن شاء الله، لأنه هو الأساس، أما موضوع القراءة، شؤونها وشجونها فهي قضية تقلق المضاجع، وحق لها أن تكون كذلك، وأن تلقى اهتمامًا لا حدود له، حتى يتحقق الهدف، أو الأهداف المرجوة بحق، والله المستعان.

القراءة شيء أساسي، القراءة أيام زمان، كان كل الطلاب يقرؤون، ويسمعون أنفسهم، ويُسمعون من حولهم من الرفاق، الآن علاقة الطالب، وأنتم تعلمون في الجامعات وفي المدارس وفي التعليم العام، علاقة الطالب بلغته العربية علاقة صامتة، ومع الأسف، أقول: إن كثيرًا من خريجي الجامعات، ولا أعمم هذا الأمر، ولكن كثيراً منهم لا يستطيع كتابة سطر أو سطرين في لغتهم العربية، وليس الإنجليزية أو غيرها، وهناك بالطبع أسباب، فأنا أقرأ في الجرائد الآن أن آلافًا من المعلمين ما استطاعوا أن يأخذوا دورهم، زمان أيام ما كان إخواننا المصريون يأتون ليعلِّموا كان التعليم بخير، غير أن هذا الجانب أعني التعليم اكتنفه شيء من "الحمل" كثرة الأعباء من هذه المقررات.

وإن شاء الله التعليم الآن في سبيله إلى الإصلاح، فأنا أنادي دائمًا بضرورة أن يختار الطالب العلمي، عندما يصل إلى الصف الثالث الثانوي، ضروري أيضًا أن نخفض عنه كل دروس اللغة العربية! وعندما أقول هذا الكلام، يتهموني بالعلمانية! ودعهم يقولون ما يريدون؛ إنما يجب تخفيف أعباء المواد، دعوهم في الإنجليزي، في العلوم، في الفيزياء، في الكيمياء فقط، هذا كاف، لكي يستطيع أن يأتي

بالدرجات العالية ليذهب بها إلى التخصص العلمي، ولكن تضعون عليهم وهي أكثر من كل هذه الأحمال(٢٠) مادة مقررة على التخصص العلمي، أما في الثقافي أو الأدبي فلا مانع، ومع هذا كثرة هذه الأحمال من المقررات حرمت الطالب من القراءة، وبيوتنا وما أكثرها ما شاء الله ليس بها مكتبات، ولا من يقرأ، والخادمات في البيوت جعلن ليًا في لسانهم، فالقراءة شيء أساسي، أنا قلت: أمة اقرأ لا تقرأ، هذه قضية، نحن هنا مهد العرب كما سموها، مهد العرب يكون فيها الناس لا يستطيعون القراءة، ولا يستطيعون تصحيح كلامهم، فالمذيعون يلحنون، وأنا ألحن أيضًا، أنا أعترف، ولكن أنا رجل حاصل على ابتدائية فلا تحاسبوني.

المهم.. القراءة شيء أساسي سواء كان في البيت أو غير ذلك، دائمًا ما أقول إن هناك أشياء كثيرة تنقصنا.

أريد من المعلم السعودي، دقيقة إلى دقيقتين من حصته، يقول فيها للطلبة هذا وطنكم.. هذه بلادكم احرصوا عليها، لتهذيب السلوك، والذي نراه دائمًا من مخالفات في الطريق، كمن يرمي ما لايريد من سيارته، فالانتماء إلى هذا التراب، يجب على المعلمين أن يكون لديهم هذا الاهتمام، ولا أقول إنه ليس لديهم وطنية، أستغفر الله، فلا أتهم الناس، لكن نريد منهم أن يلتفتوا بعض الشيء. أن يربطوا هؤلاء الستة ملايين بترابهم، وبوطنهم، بأرضهم، بدينهم، الدين بخير إن شاء الله، لكن الانتماء ضعيف، وأنا أتكلم من منطلق حقائق.

والإنسان يستطيع أن يقسّم وقته كيفما شاء، كنا زمانًا نقرأ في المطالعة أن الذي يرتب متاعه لا يتعب، فإذا كان الإنسان لديه تلك التقنيات، يستطيع أن يبرمج واجباته، فالطالبات تقدمن على الطلاب، لأن الطالبات ماكثات في بيوتهن ويتعلمن ويقرأن، والشباب يضيعون أوقاتهم في الكرة والشارع، فقراءتهم صارت ضعيفة، والإنسان يستطيع أن يوائم بين التقنية والكتاب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

المهم: القراءة شيء أساس، وقد سمعت الأمير أحمد بن عبدالعزيز نائب وزير الداخلية يقول: إن التعليم في الفترة القادمة سيكون بخير، إن شاء الله.

وحين أعود إلى القراءة كهاجس للساعين نحوها أجنح إلى المثل السائر: عند الصباح يحمد القوم السرى(١)، ويحدوني عون الله تعالى لأقول: إن تلك الحالة المخفقة في بداية حياتي بدراسة محدودة زمنًا وظرفًا، وإخفاقي في التعبير فتح لي أبوابًا ونوافذ لأنطلق من خلالها إلى عشق القراءة، أتنقل من كتاب إلى كتاب، أمارس شيئًا غير يسير من واجباتي على أن أشق دربي في عالم القراءة بقدر ما يتاح لي، من خلال سعيي في الحياة العامة، وظروفها العاتية ومكونات الإبحار فيها عبر مسالك كثيرة؛ وأن الإرادة الطامحة قائمة تدفع إلى المسارات التي تستجيب لسائر يتحدى نفسه نحو المزيد من زاد الكتاب وإثرائه لمن يحفل بصحبته ويسهر معه ويصبح كهاجس دأبه القلق والأمل والعمل لنيل المزيد من احتياج النفس إلى مناحٍ بعيدة الأغوار وري لا ينضب؛ لأنه شلال، ولأنه هدف ليس له حدود، وعطشه يشبه عطش شرب الهيم المقبلة على الماء، الذي جعل الله منه كل شيء حي.

إن القراءة الجادة المفيدة تتطلب مكانًا هادئًا من كل المؤثرات ليتحقق من ورائها الجدوى المبتغاة، وتتساوى عندي القراءة ليلاً أو نهارًا، وفي عمر الشباب والقوة البدنية، ربما تواصلت القراءة مساءً إلى ما بعد منتصف الليل، أما في النهار فهي عندي تفترق ساعات مختلفة، وأستطيع القول: إن المرحلة الطويلة في النادي قيدتني بقراءة ما يرد إلى النادي من كتب بغية طباعتها، وكذلك بحوث ودوريات النادي، وهذه البحوث من مختلف الوطن العربي كانت بالنسبة لي وجبات مفيدة، وكأنني أقرأ في شتى مجالات الثقافة، فأنا أقرأها ليل نهار، بجانب دوامي في النادي المسائي، وقبل ذلك وظائف عملي، وخلال فترات النهار والليل، كنت أقرأ وأقرأ

---

(١) مثل عربي قديم، يُضرب للرجل يحتمل الشقة رجاء الراحة!

للرقابة والفائدة، والقراءة الأكثر وقتًا بعد تهيئة المواد للنشر، أقرأ بعد المصحح، لأستدرك أخطاءً تجاوزتها عينه، وأقرأ كرقيب لأحمي من يجيز لي فسح بحوث من الدوريات الأربعة، وكانت خمسة؛ لأن بلوغ عدد صفحات هذه الدوريات يصل إلى ألفي صفحة، وقد تزيد حين تتسع صفحات ملتقى "قراءة النص" وهو ملتقى سنوي أشبه بمؤتمر ينهض به النادي، والمحصلة نحو ألف صفحة وأكثر من ذلك، وهذه الكمية لا يستطيع الرقيب قراءتها من خلال دوام العمل المحدود، ومن المؤكد أن عند الرقيب قراءات أخرى، وقد اطمأن رئيس القسم في الإعلام الداخلي إلى أنني حريص على حمايته، وكذلك من حرصي على استمرار صدور تلك المطبوعات بلا تعثر، ونجحت في إقناعه بالحماية من جانبي، حينما زارنا معالي وزير الثقافة والإعلام الأستاذ إياد مدني في يوم تكريمي قبل بضع سنين، قلت له إنه ليس بيننا وبين الرقابة أو الإعلام مشكلات، فالرجل ذكي، فسألني: أهذا مدح أم ذم؟ قلت بل مدح، قال: كيف؟ قلت: إنني أراقب على نفسي وأحميه هو لكي تستمر سفينتي، ولا تصادر لنا مطبوعة، ولذا أنا أقرأ كل ما يصدر عن النادي، واقرأ ليل نهار، واقرأ كلمة كلمة، وحتى الناس الذين الإسلام ليس في وجدانهم، يقولون سخرية القدر، ونحن كمسلمين لا نورد هذه الكلمة هكذا، فأنا استبدل هذه الكلمة وأقول سخرية الحياة، فنتجاوز المحظورات، فأنا رقيب وقارئ معًا، ونجحت في إقناعه بالحماية من جانبه حتى أصبح لا يقرأ ذلك الكم الكبير من مواد دوريات النادي وكتبه، وهذا الاحتياط الذي أمارسه أدى عندي إلى قراءة متتابعة لكل ما ينشر غير أنها قراءة لا ترقى إلى متعة القراءة الحرة في اختيار ما أقرأ يوميًا متنقلاً بين حدائق المعرفة التي لا حدود لها في القديم وفي العصر الحديث، ولو حاول إنسان إحصاء ما تدفع به المطابع كل يوم في الوطن العربي وحده لاحتار بين ما يقرأ وبين ما يدع، وإن كان لا يقاس فيما يصدر عن الغرب من مطبوعات لا حدود لها ووطننا العربي كله - كما تعلمون - لا يقارن بما يصدر عن دولة واحدة في الغرب، وهم يقرؤون كثيرًا جدًا وفي كل تحركاتهم اليومية، القراءة لا تتوقف إلا خلال أداء الواجب الوظيفي وما إليه، ولكنني

أقول: إن قراءاتي في كثير من البحوث والكتب لا تندرج تحت مفهوم القراءة الحرة الماتعة، فهذه الأخيرة أجدى وأثمن، ولا أنكر أن قراءاتي لتلك الموضوعات الثرية مما يصل إلى النادي من كتّاب في الوطن العربي أفادني وهيأني للاستمرارية؛ لأن الكم الكبير في طياته ثقافات شتى لمثقفين نضجت معارفهم في الفكر العربي وغير العربي. . ولا أريد أن يمتد إبحاري مع نبع لمشوق، بل أريد بعد هذا السرد غير البعيد وغير الطويل أن أواصل مع من حولي من معطيات المعارف، لأسمع تحاورهم كي أستفيد مما أسمع منهم مما يفيدني ويمتعني فأستزيد منه زادًا وروافد ربما لم آت عليه في حديثي السريع العجل، وأؤكد أنني ذو سلعة مزجاة قد لا يصيغها بعضكم أو أكثركم لست أدري! وأبو العلاء يقول:

وخذ رأيي وحسبك ذاك مني		على ما فيه من عوج وأمت

القراءة.. وفك الرموز![1]

د. سلمان بن فهد العودة

المشرف العام على موقع الإسلام اليوم الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إنها أمسية جميلة، وموقع جميل أيضاً متخصص في تدريب الناس على القراءة، وحفز العقول إلى الاطلاع واستجلاء المعرفة، قبل شهر تقريبًا، وفي شهر رمضان المبارك، كان لدي حلقة عن القراءة في برنامج "حجر الزاوية"، ورأيت ضمن الحديث عن الحوافز للقراءة، إشارة إلى بعض التجارب الإيجابية، هناك تجارب رائعة وعظيمة جداً في العالم الغربي، ربما أشرت إلى تجربة في مدينة شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية، كيف أن رواية عن (قتل الطائر المحاكي)[2] كيف يطبع منها ٣٠ مليون نسخة وتوزع في كل مكان، وتكون حديثًا للناس في المجالس والمقاهي والمدارس ووسائل الإعلام، بل يقوم عدد من المحامين لتطبيق هذه الفكرة، التي هي فكرة محاربة العنصرية، وأن العدالة يجب أن تكون فوق اللون، وفوق العنصر أو الجنس.

---

[1] ألقيت هذه المحاضرة، مساء الاثنين٣٠ شوال ١٤٣٠هـ، الموافق ١٩ أكتوبر ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع. .

[2] رواية للمؤلفة هاربر لي سكوت، وهي قصة فتاة في السادسة من عمرها، تروي قصة مشوقة عن التمييز العنصري في أعماق الجنوب الأمريكي.

ولكن أيضًا نريد دائمًا أن نضرب الأمثلة الواقعية بمجتمعنا لئلا نحول فقط إلى مستلبين، ننظر إلى العالم الآخر بإيجابية، وننظر إلى أنفسنا بسلبية، فكان من التجارب الجميلة التي أشرت إليها، تجربة هذه المكتبة المباركة والقائمين عليها، جزاهم الله كل خير في عدد من المشاريع الوطنية، التي منها تجاربهم مع القراءة، والتي أعتقد أن حديثنا اليوم هو استكمال لعدد من ستة لقاءات سابقة مع عدد من رجال الأدب والفكر والثقافة في المجتمع، والذين من خلالها عرضوا تجاربهم، نتحدث اليوم عن أن العالم العربي يعيش أزمة أو أزمات، منها أزمة القراءة، فهناك مشكلة كبيرة جدًا، ومقارنة غير عادلة، سواء في عالم القراءة، حيث إن نسبة القراء العرب بالنظر إلى القراءة في العالم الغربي، نسبة ضئيلة جدًا، أو بالنسبة للنشر أيضًا في حجم ما ينشر، أو بالنسبة للعادات المختلفة بيننا والشعوب الأخرى.

أريد أن أشير إلى مقدمة بسيطة فيما يتعلق بمفهوم القراءة، لأنه ربما يبدو لبعضهم أننا نعني بالقراءة دائمًا، هو أن يمسك الإنسان كتابًا ويقرأه، ولا شك أن هذا نمط من أنماط القراءة، ولكن هناك مفهوم ربما يكون أكثر تركيبًا في موضوع القراءة، القراءة تعني فك الرموز، هذا معناه أنه يجب أن عند الإنسان معرفة بهذه الرموز، سواء كان هذا الرمز حرفًا يفكه، أو يكون الرمز صورة، وثقافة الصورة اليوم، ثقافة مسيطرة من خلال التلفزيون، ومن خلال الإنترنت، انظر الآن حجم الدخول على موقع Youtube(١) في الإنترنت، تأثير الصورة ضخم جدًا وهائل، وأكبر بكثير من تأثير الحرف، وهو وسيلة من وسائل الإيضاح كما هو معروف، وقد يكون هذا الرمز صوتًا، قدرة الإنسان على تمييز الأصوات، وعلى معرفة إن كان هذا المتحدث ساخطًا أم راضيًا، مرتاحًا أو منزعجًا، فالصوت أيضًا بل الجسد كله عبارة عن رمز يمكن للإنسان أن يحلله، وهذا قدر من الوعي والذكاء أن يلحظ الإنسان من حوله، ويستطيع أن يقرأ حركات الجسد،

---

(١) هو أكبر موقع على شبكة المعلومات العالمية (إنترنت)، يسمح للمستخدمين برفع ومشاهدة ومشاركة مقاطع الفيديو بشكل مجاني.

ونظرات العين، بعض العيون تكون منطفئة، وبعضها على العكس تكون العين معبرة، كما يقول شاعرنا العربي:

والنفس تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها(١)

وكذلك حركات الجسد كله، أيضًا الرموز قد تكون ملموسة مثلما نجده في طريقة برايل، وقد تكون غير ذلك من الأشياء، إذن القراءة عملية معقدة تبدأ بمعرفة هذه الرموز والقدرة على تحليلها، ثم تنتقل إلى مسألة الاستيعاب والفهم لهذه الرموز، ومطابقتها بالواقع بحيث يكون الفهم فهمًا صحيحًا، يقول الشاعر:

وَكَم مِن عائِبٍ قَولاً صَحيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهمِ السَقيمِ(٢)

فإحدى المشكلات في القراءة عندنا أن القارئ ربما يتكئ على انطباعه أكثر مما يتكئ على معلومات حقيقة، وأنا هنا أتكلم عن ملحوظة عند كثير من الناس ثقافتهم ثقافة الخطافين، بمعنى أنه قد يختطف المعلومة دون أن يتأكد منها، وهذا ناتج عن السرعة وعدم الصبر، ولدينا مثل يقول: المكتوب يقرأ من عنوانه، هذا ليس دائمًا، لأنه في مقابل ذلك "خداع العناوين".

وقد تقرأ عنوانًا ويكون المضمون مختلفًا، واليوم أصبح الناس يتفننون في أن يكون العنوان مثيرًا ليستجلب القراء، ولذلك كم من الناس من يقع في سوء الفهم وعدم الاستيعاب، بسبب أنه لم يقرأ قراءة صحيحة، وإنما خطف الموضوع، قرأ السطر الأول، أو قرأ بضع كلمات، أو سمع بضعة أسطر، ثم من خلال ذلك حكم، فأين نفسية العالم الصبور الذي يحاول أن يصل إلى المعلومات والحقائق؟ كذلك تكامل هذه المعلومات، وهذا الاستيعاب الذي حصل عليه الإنسان مع معلوماته السابقة؛ لأن الثقافة والمعرفة والقراءة هي عبارة عن تراكم، ولذلك فإن من جودة القراءة أن تكون المعلومات التي حصلت عليها تتواكب وتتكامل مع معلومات سابقة موجودة

---

(١) هذا البيت ذكره ابن حيان السبتي، في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، منسوبًا لخاله!

(٢) من أبيات الحكمة في شعر المتنبي. الآفة: العاهة، والضَّمير للقول.

عندكم، فتضيف إليك جديداً، وتعدل معوجًا، وتثير تساؤلاً، وقد تثير إشكالاً في بعض المقررات المسلمة عندك، وكثير من الناس قد يتلقى في طفولته معلومات، فإذا كبر بدأت الأسئلة تثور حول هذه المعلومات بحيث يستطيع أن يميز منها ما كان صوابًا وغيره، كذلك عملية التخزين في الذاكرة، وهذه العملية ربما كثير منا يظلمون أنفسهم من خلال اعتقادهم أنهم يقرؤون وينسون، بينما الواقع أن هناك احتفاظًا مباشرًا بمعنى أن الإنسان يستطيع أن يستجلب المعلومة، وهناك في اللاوعي ركام هائل جداً من المعلومات التي قرأها الإنسان تظهر خلال آونة وأخرى؛ وسوف أشير بعد قليل إلى تجربة عملية شخصية في القراءة لي، يستفيد الإنسان بموجبها من هذا المخزون الهائل الموجود في لاوعي الإنسان، والذي قد يكون حصل عليه بوسائل قراءة مختلفة، ليس بالضرورة قراءة كتاب، بل الحياة نفسها كلها قراءة، يمكن أن تتكلم عن قراءة الجسد، أو قراءة الصوت، أو قراءة الرمز، أو قراءة الصورة، فهناك قراءة الحياة، قراءة الناس، قراءة التجارب الضخمة، هناك أيضًا النقل، والقدرة على الفرز، وهذه مهمة جدًا؛ لأن من المشكلات الكبيرة أن يقع القارئ في قبضة المؤلف.

بعض المؤلفين يكون قويًا؛ قويًا في أسلوبه، قويًا في معلوماته، قويًا في قناعاته، فإذا تكلم أطاح بالخصوم، وحشد الأدلة، وسرد بيانًا لغويًا عظيمًا؛ لما يقرأ طالب مبتدئ كتاب "المحلى" للإمام محمد بن حزم⁽¹⁾؛ ويجد هذا الثراء، وهذه القوة، وهذه الثقة المفرطة بالنتائج التي توصل إليها، وهذا الهجوم على الخصوم، فإن القارئ في كثير من الأحيان قد يستسلم لهذه الروح دون أن يملك القدرة على الاستقلالية، وعلى الامتناع أمام هذه الأشياء، حتى لو كان ربما لا يستطيع أن يجيب، لكن على الإنسان أن يعود نفسه ألا ينخرط في جو من الاستسلام مع ما

---

(١) كتاب (المحلَّى في شرح المجلَّى)؛ لمؤلفه الإمام ابن حزم الأندلسي (ت ٤٦٥هـ) ناشر المذهب الظاهري، ويعد هذا الكتاب، من أهم كتبه. والمذهب الظاهري، هو الذي يأخذ بظاهر النص ومدلوله اللفظي والمعنوي، والكتاب ثروة فقهية وموسوعة جامعة في الفقه المقارن، حوى ما يعادل (٢٣١٢) مسألة بدأها المؤلف بالعقائد وأنهاها بمسائل التعزير، واستعرض ابن حزم خلالها آراء الفقهاء والمجتهدين جميعا قبل أن ينقض عليهم مبديًا رأيه.

يقرأ، وأن يكون مستلبًا، وإنما من البداية يحاول أن يركز شخصيته، وأن يطرح من الأسئلة بقدر ما يتلقى من الإجابات.

كذلك عملية الاتصال وتوظيف هذه المعلومات، وهذه القراءة التي حصل عليها الإنسان، وبذلك يتبين أن مسألة القراءة، مسألة في مجموعها أو مجملها مسألة مركبة، وفيها قدر من التعقيد، وقدر من الثراء، وقدر من التنوع، وأن أوعية القراءة ليست فقط هي الكتاب، اليوم كثيرًا ما يتكلم الناس عن الإنترنت، أو القنوات الفضائية، أو الإذاعة، أو الصحافة، وأنها خطفت الكتاب، هذا الكلام قد لا يكون مسلمًا لأسباب منها: أولاً: أن هذه الأشياء وسائل أحيانًا لترويج ما في الكتاب، أو لترويج المعرفة، فهي تعزز جانب الثقافة لو أحسنا توظيفها واستخدامها، وكذلك كثير من الكتب أصبحت متاحة للناس من خلال هذه الوسائل، ثم إن التجارب والإحصائيات أثبتت أن أكثر الناس قراءة هم الشباب في العالم كله، وهم أيضًا أكثر الناس إقبالاً على هذه القنوات؛ إذن إن الشباب هم أكثر الناس حيوية ونشاطًا في استقبال المعلومات، نعم، يحتاجون إلى التثبت؛ لأن الإنترنت أو الفضاء عالم مفتوح، وفيه حقائق، وفيه أوهام، وهناك موسوعات كاملة كما تعلمون، مثل موسوعة "ويكيبيديا"(١)، هي عبارة عن موسوعة افتراضية، أحد الشباب بعضكم يعرفه، شاب موظف هنا في الرياض، دخل في موسوعة ويكيبيديا، وكتب عن نفسه أنه الإمام فلان، وأنه دخل البلد الفلاني فاتحًا عام كذا، ودانت له البلاد، ثم أخضع البلاد المجاورة لها، وجاءته القبائل طوعًا وسلمت له وبايعته، ونشر العدل، وذكر قصة طويلة جدًا، وبعد فترة لم يتم الاعتراض عليها، فتم إدراجها كمعلومات حقيقية في هذه الموسوعة، ولذلك مسألة التثبت، ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾(٢).

---

(١) موسوعة متعددة اللغات مبنية على الإنترنت حرة المحتوى. يشارك فيها عشرات الآلاف من المحررين، يرتادها يومياً آلاف الزوار من مختلف أنحاء العالم يجرون كثيراً من التعديلات، وينشؤون كثيراً من المقالات الجديدة. منذ أنشئت عام ٢٠٠١م، نمت وتطورت بسرعة لتصبح واحدة من أكبر المواقع على الإنترنت ولتجذب أكثر من ٧٨ مليون زائر شهريًا في عام ٢٠٠٩م.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

هذا فيما يتعلق بالناس، لكن التثبت أوسع من ذلك، التثبت في المعرفة، لأن أي معلومة مشكوك فيها تحولها أنت إلى يقين فهي تضر بك مثل ضرر المعلومات اليقينية الثابتة إذا حولتها إلى موضع شك واختبار، لذلك يجب أن يكون لدينا قدرة على الفرز وعلى النقد وعلى الفحص وعلى التمييز، وبيان الغث من السمين، هذا فيما يتعلق بموضوع المعرفة، ويتعلق بأدوات المعرفة أيضًا، والتي من شأنها أن تزيد الناس علمًا وإقبالاً.

ربما أنتقل بعد هاتين المقدمتين إلى الموضوع المهم، وهو ما يتعلق بتجربتي في القراءة، يمكن تجربتي في القراءة بدأت في الطفولة، وفي المرحلة الابتدائية كنا نذهب إلى ما يسمى بـ "الحراج" في مدينة بريدة، حيث نجد كتبًا مستعملة للبيع، وبطبيعة الحال هي في الغالب قصص، وأساطير، مثل قصص السندباد، وغيرها من المغامرات والرحلات والمفاجآت، وكنا نتناوب قراءة هذه الأشياء، وأذكر أن الواحد منا كان ينتظر واقفًا لحين انتهاء الآخرين من القراءة ومجيء دوره في القراءة، هذه القصص تنمي الخيال، تنمي الثقافة اللغوية، تدرب الإنسان على القراءة، وتصنع صداقة بينه وبين الكتاب.

مسألة نشأتي في مجتمع خلو من وسائل التسلية والترفيه، كان سببًا في إقبالي على القراءة؟ قد يكون هذا صحيحًا، وبالمناسبة كنا نذهب مع الوالد - رحمه الله - إلى الدكان، فيسمح لنا بعشر دقائق إلى ربع ساعة، نذهب إلى المكتبة العلمية، وفيها نحصل على شيء آخر غير القراءة وهو الشاي، كانوا يمرون بالشاي على الرواد، وهذا شيء جميل، أيضًا المروحة الكهربائية، في ذلك الوقت كان الجو حاراً ولا توجد مكيفات، فكنا نذهب لهذه الاعتبارات، والجرائد نجدها على الطاولة، فضلاً عن كثير من الكتب، فيجب أن يحول الكتاب إلى أداة للترفيه.

ويقودنا ذلك إلى ما يتعلق بالكتب المصورة للأطفال، أنا أذكر الكتب المصورة عندنا، حتى كتب المدرسة، أول مرة أخذنا الكتب من المدرسة وأتينا بها إلى البيت في

المرحلة الأولى الابتدائية، أول مهمة أوكلت إلينا من قبل المدرسين والأسرة هو أن نطمس الصور الموجودة في هذا الكتاب دون أن يدركوا البعد المهم للصورة، الصورة هي مؤثر كبير جدًا على عقلية الطفل، وكما هو معروف يقول كونفوشيوس: "حدثني وسوف أنسى، أرني ولعلي أتذكر، أشركني وسوف أتذكر"! ويقولون: إن الإنسان يحتفظ فقط بـ ١٣٪ مما يسمع، ويحتفظ ربما بأكثر من ٧٠٪ مما يقرأ، ولكن يحتفظ بأكثر من ٩٣٪ من المعلومات التي حصل عليها عن طريق الحوار والمشاركة، إذن هذه نقطة مهمة جدًا فيما يتعلق بموضوع جعل القراءة نفسها أداة للمتعة وأداة للترفيه.

هناك نوع آخر من الكتب، وهي الكتب الشرعية التي كنت أقرؤها في الطفولة، فمثلاً كتاب "رياض الصالحين"^(١)، وكتاب "الكبائر"^(٢)، وكتاب "تفسير ابن كثير"^(٣) هذه من الكتب التي صحبناها في الطفولة بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بفضل بعض المربين من المشايخ والعلماء، وهي كتب جيدة في الجملة وجميلة، وإن كانت في الغالب أكبر من مستوى الصغار.

كان عندنا في بريدة مجموعة مكتبات تجارية، فربما أحصل على مبلغ بسيط من الوالد بسبب أنني أعمل معه، أو آتي معه إلى المتجر، فيعطيني بضعة ريالات، فأذهب إلى المكتبة وأشتري هذه الكتب، اشتريت مرة كتابًا عن الإسراء والمعراج، مكتوبًا عليه أنه لابن عباس، وقد قرأت هذا الكتاب وأنا في الصف السادس

---

(١) كتاب (رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين) للإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي. ويجمع في هذا الكتاب الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ، في جميع شؤون العقيدة والحياة، ويعرضها مرتبة في أبواب وفصول، لتكون موضوعات يسهل على القارئ العودة إليها والاستفادة منها، .

(٢) كتاب قيم للإمام الذهبي، يشمل عددًا من الكبائر التي يجدر بكل مسلم أن يوليها اهتمامه، علماً بها وحذرًا من اقترافها.

(٣) من أهم التفاسير الأثرية، مع وجازة لفظه وشمول معانيه، وقد جعل الله له قبولا عظيمًا بين الناس، خاصة وعامة. ومن أهم مميزات تفسير ابن كثير رحمه الله: اختياره أحسن الطرق في تفسير القرآن مثل تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين. اهتمامه باللغة وعلومها واهتمامه بالأسانيد ونقدها . . اهتمامه بذكر القراءات وأسباب النزول.

الابتدائي؛ فشعرت كأنني كمن تناول طعامًا مسمومًا، هذا الكتاب عرفت فيما بعد أنه كتاب موضوع، والعلماء نصوا على أنها أسطورة وليس لها أصل عن ابن عباس، وتقول الرواية إن الرسول ﷺ صعد إلى السماء نصفه من نار ونصفه من ثلج، ومشاهد وأشباح، عقلية طفل صغير غير قادرة على استيعابها، وفيها امتهان شديد للعقل، وأثرت على نفسيتي وعلى عبادتي في تلك المرحلة، فأذكر أنني شعرت بحالة من العجز، وأصبح لدى الإنسان نوع من الشك في عبادته وفي أعماله، حتى هداني الله سبحانه وتعالى إلى قراءة كتب في الأذكار، كتاب "الكلم الطيب"(١) لابن تيمية، وكتاب "الأذكار"(٢) للنووي، وبعض الكتب المفيدة الأخرى، وبدأ الإنسان يقرؤها ويتحصن بها إلى أن استقرت النفس، كنت أذهب مع والدي رحمه الله، إلى الدكان وإلى جوار المتجر، كان هناك المكتبة العلمية العامة في بريدة وهي مكتبة حكومية، هذه المكتبة نجد فيها الجرائد، نجد فيها المجلات من كل مكان في العالم، نجد فيها عددًا كبيرًا من الكتب المختلفة في ألوان العلوم، أذكر أنني قرأت فيها كتاب "الفرج بعد الشدة"(٣) للتنوخي، وهو كتاب يتميز أنه كتاب قصصي أولاً وهو مغرٍ، ثم إن هذا الكتاب فيه نوع من الأمل وفتح باب الرجاء، وأن الإنسان لا ييأس، في تلك المرحلة الطفل الصغير ربما يتوهم أشياء.

كنت أعتقد أن موتي، وأجلي قريب، ومرة من المرات كنت أسمع حديث النساء من حولي يقولون: إن فلانًا كان نائمًا ورأى في المنام أن جرادة تطير من فمه ثم بعد ذلك

---

(١) كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب، ألفه ابن تيمية، وجمع فيه أحاديث مأثورة في الدعوات والأذكار فشرحها غير واحد منهم تلميذه ابن القيم في الوابل الصيب. قدّم بمقدمات في فضل الذكر وأهميته ثم أورد خمسة وسبعين فصلاً في الأدعية والآثار: التي لا ينبغي للمسلم تركها، أذكار النوم والاستيقاظ منه، الأذان، دخول المقابر، نزول المطر، رؤية الهلال، الحزن، من ضاع له شيء، الكسوف والخسوف، النكاح والتهنئة، وغيرها كثير . . .

(٢) الأذْكَارُ للإمام النَّوَوي. أو "حلْيَةُ الأبْرَار وَشعَارُ الأخْيَار في تَلْخيص الدَّعوَات والأذْكَار المُسْتَحَبَّة في اللَّيْل والنَّهَار". كَتاب متخصص في بَيان هدي اَلنبيَ ﷺ في المواقَف والأَحوالَ المختلفة، كَما أنه يمتَاز بالإحاطةَ واعتماده على الَصحيح من الأحاديث.

(٣) للفقيه القاضي التنوخي، أبو علي المحسن بن القاضي أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي: (٣٢٧-٣٤٨هـ). عاش في أوج القرن الرابع الهجري الذي يعتبر قمة النضج والازدهار للثقافة العربية، والفكر العربي في شتى اتجاهاته الكتاب يحوي كثيراً من المواقف الطريفة والنادرة والحكايات الشيقة، والغريبة، منها حكاية (الجميلة المتوحشة) التي ترتدي جلد ذئب وتخرج في الليل تنبش القبور، وأحداثها طويلة ومشوقة.

مات، لأن هذه الجرادة كانت تعبيراً عن روحه، ويصادف أنني نمت ورأيت هذه الرؤية نفسها، صرت في حالة قلق، وكل ليلة أنام وأفكر أن الموت سوف يأتي ويقترب، ويمكن أن أتأخر في النوم ولا أنام إلا مجهدًا لأنني أنتظر الأجل، أتلبس هذه الصورة، وتلك أعطتني -سبحان الله - في هذه المرحلة المبكرة اتجاهًا إلى الله سبحانه وتعالى، وشعوراً بأن أمي وأبي لا ينفعون ولا يدفعون، بل بالعكس أن الإنسان لا يريد أن يحملهم تبعاته، ولذلك يقبل الإنسان على ربه وينخرط بعفوية وبراءة وبساطة في استغاثة وفي دعاء وفي رجاء، خاصة أنه صادف أن أحد أصدقائنا توفي بالزائدة في تلك المرحلة، وكان هذا حدثًا يهز الضمير ويهز الوجدان، المهم أن هذا الكتاب "الفرج بعد الشدة" وجد فيه الإنسان متنفسًا، وإن كان الكتاب ذاته إن عرضناه لعملية الفرز والفحص ستجده يحتوي عددًا من القصص والأساطير التي ليس لها إسناد، وبعض الروايات التي فيها مبالغات، وربط الإنسان بنوع من العجائبية، والبعد عن الواقعية، أعتقد أن الإنسان يمكن أن يتقبل مثل هذه الأشياء في تلك المرحلة، أيضًا قرأت كتبًا كثيرة على سبيل المثال "أدباء الحجاز" لحمزة شحاتة⁽¹⁾ في تلك المرحلة، ومجموعة كتبه قرأتها، ورجعت لها بعد ذلك، ووجدت أنه أديب يستحق القراءة، وإن كان يعيش حالة من الضيق النفسي، فقد بات في عزلة في آخر عمره، ولكن هذه العزلة زادته إيمانًا بالله وإقبالاً عليه، وانخراطًا في التعبد، ونعم ما يلجأ إليه العبد في حالة الضيق، هو أن يلجأ إلى ربه عز وجل، كنت آتي بالكتب معي للدكان، وأذكر أنه في إجازة صيفية واحدة بعدما تخرجت في الابتدائي والتحقت بالمعهد العلمي، في إجازة واحدة قرأت أكثر من ستين كتابًا، في إجازة ومعظمها كان للشيخ علي الطنطاوي، فوجدت في أسلوبه شيئًا رائعًا جميلاً وفتحًا غريبًا، كتاب "رجال من التاريخ"⁽²⁾، بل أصبحت أحفظ بعض الفقرات وبعض

---

(١) حمزة شحاتة: (١٩٠٨م - ١٩٧٢م). شاعر الحجاز وأديب مكة وفيلسوف الحرية في الجزيرة العربية، وطليعة الخطاب النهضوي فيه، يعتبر حمزة شحاتة من رواد الشعر الحداثي في الحجاز، وناثرٌ بمضامين فلسفية عميقة، وخطيب مفوّه.

(٢) كتاب (رجال من التاريخ)، للعلامة السوري الدمشقي علي الطنطاوي، صدر عام ١٩٥٨م في نحو ٣٠٠ صفحة من القَطْع المتوسط، وأعيدت طباعته مرات كثيرة، ثم أُضيفت إليه في طبعاته اللاحقة تراجم لم تكن قد نُشرت من قبل، فبلغ عدد ترجماته في الطبعة السابعة خمسًا وخمسين وعدد صفحاته ٤٨٠ صفحة، وضم في طبعته السابعة عدداً من الأعلام المحدثين.

السطور، ولا يعرف كثيرون أن علي الطنطاوي يكتب الشعر أيضًا، وجدت له بعض القصائد، ووجدت له كتباً ممنوعة، فأصبحت مستميتًا في الحصول عليها، وكما تعرفون أن كل ممنوع مرغوب، وحصلت عليها، ولم يكن بها شيء يوجب، لكن تعرفون أن الشروط والضوابط في ذلك الوقت محكمة جداً وشديدة جدًا، وقد يكون كل ما في الأمر صفحة وليس بها كلام يستحق، بل بالعكس كان بها ثناء على المملكة، وثناء على زيارة الملك سعود لباكستان، وكان الشيخ علي قد قال قصيدة:

أسعود باكستان أكبر دولة ولأنت أكبر سيد وعميد

وفيها يستحث العرب لتحرير فلسطين، وما إلى ذلك من المعاني الجميلة الراقية.

وكذلك قرأت كتب المنفلوطي كلها، وأذكر كتاب "العبرات"(١)، وكتاب "النظرات"، وهي كتب فيها أدب وأسلوب جميل، وقرأت قصصًا له، وأذكر منها قصة الفضيلة التي ملأتها بالدموع، لأنها فعلاً قصة مؤثرة خاصة لفتى في تلك المرحلة، وقد تبين لي فيما بعد أن المنفلوطي قد حاز على سبق في قضية، وهو أنه قام بترجمة كتب من لغة هو لا يعرفها، فقد ترجم من الفرنسية، وهو لا يعرف الفرنسية، كيف؟ وهذا هو السؤال، ولم تكن ترجمة حرفية، قد يكون فهم الكتاب وقام بصياغته بأسلوبه الخاص الذي ربما يشبه الكتاب الأصلي، وليس ترجمة حقيقة، ولذلك دائمًا يقولون "المترجم خائن" لأنه من أصعب الأشياء أن يستطيع أن ينقل المعلومات الدقيقة من لغة إلى لغة أخرى، لأن القصة ليست حروفًا كما قلنا، بل هناك محتوى ومضامين وإيحاءات كبيرة جداً، قرأت جميع كتب هؤلاء.

---

(١) جمع المنفلوطي في عمله الكبير "العبرات" الذي حقق نجاحاً كبيراً له، وجعل للمنفلوطي مكانة متقدمة في الحياة الأدبية المصرية والعربية. وبجانب "العبرات" فإن كتابه "النظرات" يقع في مكانة كتابه الأول نفسها، و "النظرات" يشتمل على ثلاثة مجلدات وهي مجموعة كبيرة من المقالات الاجتماعية نشرها المنفلوطي في صحيفة "المؤيد" التي كان يحررها الشيخ علي يوسف. ففي النظرات يتحدث المنفلوطي عن مشاكل وتحديات المجتمع المصري آنذاك. .

أيضًا قرأت كتب مصطفى صادق الرافعي(١)، وبدأت أشعر أن هناك معركة بينه وبين ما يسمون بدعاة العربية "المحافظين" ودعاة التجديد، ومن كانوا يسمونهم "المجددين" على سبيل السخرية بهم من أمثال: طه حسين، ومجموعة من كتاب الأدب العربي، اكتشفت أن هناك معركة، وقرأت كتاب "تحت راية القرآن" للرافعي، فشعرت بتعاطف معه لأنه متحمس للقرآن الكريم ويهاجمهم من منطلق شرعي، وبدأت أقرأ لتلميذه محمد سعيد العريان(٢)، وأثناء قراءتي عن الرافعي أخذت هذه الصورة الإيجابية الرائعة، ولذلك إذا وجدت في ترجمته شيئًا لا يتفق مع هذه الصورة المثالية كنت أميل إلى تكذيبه، فأذكر أنني قرأت أنه ربما يتشاءم من أشياء، أو أن لديه بعض الاعتقادات أو كذا، فأنا أعتقد أن مصطفى صادق الرافعي الذي عاش تحت راية القرآن، وهاجم الذين يعادون لغة العرب، لا يمكن أن يكون كذلك، وهذا ما يسمى بالفرز، ولا يمكن أن يكون الفرز بصورة ساذجة أو بسيطة، لكن يحسن أن يتدرب الإنسان عليه منذ الصغر، ولكنني وجدت غصة في كتب الرافعي؛ لأن أسلوبه صعب جدًا، مثلاً كتاب "المساكين"، "أوراق الورد"، هي كتب بعضهم يقول إن بعضها غزل بينه وبين مي زيادة، وبعضهم يقول غير هذا، ولكن المهم أنك تقرأ ولا تفهم شيئًا، حاولت أن أحفظ والفهم يكون بعد ذلك، ولكن الحفظ أصبح عسيرًا؛ لأنه لا يمكن الاستهداء بأي وسيلة، فتركت ذلك، وجدت بعض قصائد للرافعي، قصائد وطنية، وقصائد إيمانية، فحفظت هذه القصائد؛ لأنني مُصِر على

---

(١) مصطفى صادق الرافعي: (١٨٨٠ - ١٩٣٧م)، أديب العروبة والإسلام. ينتمي إلي مدرسة المحافظين وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي. له عدد من المؤلفات المهمة، منها: تاريخ آداب العرب، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، والمساكين، والسحاب الأحمر، وحديث القمر، وأوراق الورد، وتحت راية القرآن، وعلى السفود، ووحي القلم، رسائل الأحزان، وديوان الرافعي، وديوان النظرات.

(٢) محمد سعيد العريان: (١٩٠٥ -١٩٦٤م) أحد كبار كتاب مصر، تعرف في شبابه إلى مصطفى صادق الرافعي - وكان الرافعي أصمُّ - فكان صديقه وتلميذه - حتى لقد أطلق على العريان "كاتب وحي الرافعي"، ونتج عن هذا اللقاء أثر عميق في حياة كل منهما وفي أعمالهما، وقد التقيا على أهداف واحدة في الغيرة على اللغة العربية والعروبة والإسلام، وقد أثر كل منهما بالآخر، من كتبه التاريخية: قطر الندى، وعلى باب زويلة، وشجرة الدر، وبنت قسطنطين. فضلاً عن تحقيقه لمعظم كتب أستاذه الرافعي، وغيرها من الكتب الفكرية والثقافية. .

التواصل مع هذه الهامة العلمية، كذلك كتاب "وحي القلم" اقتنيته آنذاك، وقرأته لأنه ربما أفضل كتبه، هناك كثير من الكتب التي قرأتها في تلك المرحلة، حتى كتب العقاد(١) "العبقريات".

قرأت لطه حسين(٢)، حتى في فترة مبكرة كان عندنا شخص يبيع الكتب، فاشتريت منه "على هامش السيرة"، وقرأت له كذلك كتاب "الأيام"، ويمكن من الطرائف أن الشخص الذي ربطني بطه حسين هو سيد قطب، فقد كتب رحمه الله كتابًا اسمه "طفل من القرية"، فيه ذكريات طفولته، وقتها كان سيد قطب متأثرًا بطه حسين، وأهدى الكتاب له، وقال في الإهداء إنها يا سيدي أيام كأيامك، في بعضها من أيامك مشابه، وسائرها عنها في اختلاف، فصرت أبحث عن كتاب "الأيام"، وطه حسين لديه الأسلوب السهل الممتنع، وهذا ما يميزه عن الرافعي، والعقاد أسلوبه بين بين، ولكن ورطة طه حسين في قضية الشعر الجاهلي، والتشكيك في قصص

---

(١) عباس محمود العقاد: (١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ) عُرف كأحد أعلام الفكر والأدب المشهود لهم بطول الباع ورسوخ القدم. لقّب بالشاعر والمؤرخ والفيلسوف والسياسي والناقد والعبقري، قضى حياته في البحث والمعرفة وأخذ من كل علم بنصيب. ترك العقاد ثروة علمية وذخيرة فكرية مهمة من كتبه ومؤلفاته وبحوثه ودراساته التي ما زالت في رفوف مكتبته لم ينفض عنها الغبار. اشتهر بالمؤلفات الدسمة العميقة موضوعًا ومحتوى، ولعل كتبه عن العبقريات التي استهلها بكتابه الموسوم: عبقرية محمد، والذي كان له صدى وتقدير من العلماء والباحثين حيث أبرز فيه الشمائل والصفات المحمدية العظيمة بأسلوب ناصع وبيان قوي وبرهان ساطع، وكذا عبقرية عمر، وعبقرية الإمام، وأبو بكر الصديق، وخالد والصديقة بنت الصديق، وذو النورين عثمان، وغيرها من كتب العبقريات التي فتح بها أبصار الناس على عظمة هؤلاء وما لهم من فضل كبير في هذا الخصوص.

(٢) طه حسين: عميد الأدب العربي، هو أديب، ومفكر مصري تمكن من النبوغ والتفوق في إثبات ذاته على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهها في حياته، والتي يأتي في مقدمتها فقدانه لبصره، وهو ما يزال طفلاً صغيراً ولكنه أثبت بمنتهى الصمود، والقوة أن الإنسان لا يجب أن يوقفه عجزه أمام طموحه، بل على العكس من الممكن أن يكون هذا العجز هو عامل دفع وقوة، وليس عامل إحباط. أثرى طه حسين المكتبة العربية بكثير من الأعمال والمؤلفات، وكانت هذه الأعمال الفكرية تحتضن الكثير من الأفكار التي تدعو إلى النهضة الفكرية، والتنوير، والانفتاح على ثقافات جديدة، هذا بالإضافة لتقديمه عدد من الروايات، والقصة القصيرة، والشعر نذكر من أعماله المتميزة "الأيام" الذي يعد من أشهر أعماله الأدبية، كما يعد من أوائل الأعمال الأدبية التي تناولت السيرة الذاتية، و"على هامش السيرة، وحديث الأربعاء، ومستقبل الثقافة في مصر، والوعد الحق، وفي الشعر الجاهلي، والمعذبون في الأرض، ودعاء الكروان، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ومن بعيد، وصوت أبي العلاء، والديمقراطية في الإسلام. كما ترجم عدداً من المؤلفات الهامة إلى العربية، وترجمت مؤلفاته هو شخصياً إلى عدد من اللغات، وله كثير من البحوث.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكذلك ورطته الأخرى في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" الذي قال فيه: "إن على مصر أن تأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وحلوها ومرها"، هذه المقولة أثرت سلبًا في الانطباع عنه.

قرأنا كتبًا كثيرة جدًا في ذلك الوقت بما يسمى كتب الفكر الإسلامي من أنحاء العالم الإسلامي: من مصر، من الشام، من العراق، كتب محمود شيت خطاب(١)، وهي كتب في قادة الحروب الإسلامية، وقادة المعارك الإسلامية، قرأت معظم هذه الكتب، حاولت أن أحصل على أي شيء بحيث إذا عرفت مؤلفًا وأعجبني، اقتنيت جميع كتبه، حتى أذكر أن له كتيبًا اسمه "عدالة السماء"، وهو عبارة عن قصص بسيطة بعيدة عن الحبكة الفنية، ولكن كانت مناسبة لي ولذلك قرأتها، وأيضًا ربما تعد من السذاجة أنني حاولت أنظم، لأن من خلال محاولتي الاطلاع على كتب الشعر العربي، ومحاولة حفظ المعلقات، وحفظ المفضليات(٢)، والأصمعيات(٣)، أصبح

---

(١) محمود شيت خطاب: (١٩١٩ - ١٩٩٨م) ولد بمدينة الموصل، ونشأ نشأة إسلامية ملتزمة، هو رجل عسكري، درس العسكرية في العراق وبريطانيا، وشارك في حرب عام ١٩٤٨م، وتقلّد مناصب وزارية عدة، وشارك في عضوية لجان عربية وإسلامية عديدة، وله كثير من المؤلفات العسكرية واللغوية والفكرية. له أكثر من مائة وعشرين كتاباً منها: الرسول القائد، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية، وحقيقة إسرائيل، دراسات في الوحدة العسكرية العربية، أوهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية، وطريق النصر في معركة الثأر، والأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها، وبين العقيدة والقيادة، اولإسلام والنصر، عدالة السماء، تدابير القدر، وتاريخ جيش النبي، ودروس عسكرية في السيرة النبوية، وغزوة بدر الكبرى، والعسكرية العربية الإسلامية، والمصطلحات العسكرية في القرآن الكريم، و الصديق القائد، والفاروق القائد، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد المخزومي، وقادة فتح المغرب العربي، وقادة فتح مصر، والقتال في الإسلام...، وغيرها.

(٢) المفضليات: هي مجموعة أشعار اختارها المفضل الضبي كأحسن أشعار العرب ليدرسها لابن أبي جعفر المنصور، اليافع، المهدي بن المنصور، الخليفة التالي. اختار قصائد لسبعة وستين شاعراً. وسبعة وأربعون منهم كانوا من شعراء الجاهلية، وبينهم المرقشان الأكبر والأصغر وهما أقدم الشعراء المعروفين، ونصرانيان اثنان هما جابر بن حنّا التغلبي (رقم ٤٢) وعبد المسيح (رقم ٧٢، ٧٣، ٨٣). ومن شعرائه كذلك أربعة عشر شاعراً من المخضرمين الذين ولدوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، ثم ستة فقط من المسلمين. وسمّى المفضل مجموعته في الأصل: كتاب الاختيارات؛ ولكنها سميت بعد ذلك، نسبة إلى جامعها، بالمفضليات.

(٣) الأصمعيات، كتاب الأصمعي الشهير، وهو مجموعة في اختيار الشعر العربي، وعلى نسق المفضليات يضم مختارات من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي والكتاب يحتوي على اثنتين وتسعين قصيدة ومقطعة لواحد وسبعين شاعراً منهم أربعة وأربعون شاعراً جاهلياً وأربعة عشر شاعر مخضرم وستة شعراء إسلاميين وسبعة شعراء مجهولين. سار الأصمعي على نهج المفضليات بالاهتمام بالشعر الجاهلي وعدد المقطعات عنده كبير وأطول قصائد الأصمعيات لم تتجاوز أربعة وأربعين بيتًا بينما كانت عدد أطول قصيدة بالمفضليات نحو مئة بيت.

عندي نهم إلى حفظ الشعر، وإلى قول الشعر، وفعلاً في تلك المرحلة حفظت مطولات، ومازلت أحفظها بشكل جيد؛ لأنه كما هو معروف "العلم في الصغر كالنقش في الحجر"، فعندي قصائد سبعون (٧٠) بيتًا، (٨٠) بيتًا، حفظتها آنذاك، لا أحتاج أن أراجعها، إذا كنا في سفر أو شيء أتلوها على أصدقائي، ولا أتوقف إلا في نهايتها، بينما الأشياء التي حفظها الإنسان بعد ذلك، قد يتلكأ أو يجد صعوبة في الحفظ، وإن قرأها لا يجد الثقة في نفسه أن يسقط حرفًا أو يسقط كلمة في أي مرحلة من مراحل القصيدة، فحاولت أن أنظم بعض القصص التي وجدتها في كتاب "عدالة السماء" لمحمود شيت خطاب، وبدأت أقول شيئاً من الشعر الشعبي، كلمات من الشعر العربي، وبعضها خطاب للوالد شوقًا إليه بعدما ذهب في رحلة للحج وترك أبناءه الصغار - رحمه الله -، أو بعض الأحاديث أو التمنر أو الطلب.

مرة من المرات كنا في المعهد العلمي، وخطر ببالنا أن ندرس انتسابًا في المتوسطة العامة؛ لأنه آنذاك كان يشيع حديث أن المعهد العلمي ليس له مستقبل، وكنا لا نفهم ماذا يعني هذا الكلام، ولكن هذا الكلام أثّر علينا، وهذا دعانا أن نواصل في المعهد، لكن خطرت في البال فكرة أن ننتسب في المتوسطة، وهكذا فعلنا، درسنا انتسابًا واختبرنا، وكنت بحاجة إلى أن أقنع الوالد بذلك، وحدث هذا بقصيدة شعرية توجه له تثني عليه وتطلب منه أن يعطينا إذنًا بهذا المعنى، خلال هذه المرحلة كنت أذهب بالكتب إلى الدكان، وكان لدينا ثقافة شديدة الضغط علينا، وهو المبالغة في الخوف من العين، وأنا أقول إن العين حق، ولكن أن يتحول هذا إلى كابوس، هذا خطأ في التربية، فكان الآباء والأمهات في تلك المرحلة كثيراً ما يخوفون أبناءهم من العين والحسد، فكنت آخذ الكتاب وأضعه داخل دفتر اليومية، حتى إذا جاء أحد لا يلحظ أنني أقرأ كتابًا، بل يظن أنني أسجل حسابات أو ديونًا على الناس، أو ما أشبه ذلك، كان ذلك في مرحلة الطفولة وهي مرحلة مهمة جداً؛ لأنها صنعت العلاقة مع الكتاب، و الإخوة في المكتبة واعون جداً بهذا الشيء، ولهم نشاطات وبرامج في هذا الخصوص.

يذكر أن أحد العرب كان في القطار بإحدى الدول الأوروبية، ولحظ أن هناك امرأة معها طفل يصيح، ففتحت حقيبتها وبدلاً من أن تعطيه كسرة حلوى، أو قطعة من الشيكولاته، أخرجت كتابًا وأعطته للطفل فسكت، وأقبل على الكتاب يقرأه، والآن هناك دراسات تقول: إن الطفل من سن ستة أشهر يمكن أن يتعلم القراءة بطريقة سهلة وبسيطة، ولذلك دورنا كآباء في تعليم أبنائنا القراءة أن نجمعهم ليس في قراءة محضة، لكن في قراءة حميمية، أن يتفاعل الأب مع أبنائه ربما من خلال رواية أو قصة، يقبل مداخلات الأبناء وتعليقاتهم بدلاً من أن يكونوا متلقين فقط، وأن يكون الكتاب متاحًا للأبناء ليس فقط في المكتبة، ولكن فوق الرفوف، وقريب من متناول أيديهم في كل مكان يكون هناك كتاب، مثلما يقال عن أحد الأدباء، قال: "إن هذه الأمة ربما تصل إلى الرقي والحضارة يوم أن تكون المكتبة في بيوتنا مثل الغسالة أو الثلاجة"!

نعم يجب أن يكون في كل بيت مكتبة، وبالذات مكتبة للأبناء الصغار على مستواهم، أذكر كثيراً من الكتب التي قرأتها، كتب في قصص الأنبياء، أبو الحسن الندوي عنده كتاب في قصص الأنبياء، محمد موفق سليمة عنده مجموعة قصص للأطفال الصغار، فهذه القصص تنمي الجانب الإيماني للإنسان والارتباط والقيم الاجتماعية والأخلاقية التي يحتاج إليها.

هناك مرحلة متقدمة طبعًا وهي أن علاقتي مع الكتاب أصبحت مستمرة، وتكوّن لدينا مكتبة ضخمة مما أعده فضلاً ونعمة من الله مع أنه لم يكن هنالك توجيه قوي للكتب، وفي مكتبتي هناك بعض الكتب مكتوب عليها تاريخ الحصول على هذا الكتاب، منها ما كان عمري وقتها أربع عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة، وأحيانًا كتب مثلما قلت أن الإنسان يقرأ لمؤلف واحد فيحاول شراء جميع كتبه، أو يقرأ سلسلة، مثل سلسلة الأبطال، أو سلسلة المكتشفين، أعلام العرب وهو بمئات الأعداد، فإذا حصل الإنسان على إصدار حاول أن يقرأ جميع الإصدارات.

أعترف أنني كنت ومازلت أشعر أن ذاكرتي مثقوبة، بمعنى أن المعلومات الصغيرة لا تستقر فيها سوى فترة وجيزة ريثما تتهيأ للذهاب، وليس ذهابًا إلى بعيد، بل ذهاب

إلى منطقة اللاوعي بحيث يمكن استدعاؤها عند اللزوم، يمكن أن تكون هذه المعلومات قد أثرت على أداء الإنسان، على نفسيته، على استقراره، على شخصيته، على لغته، على عقليته أن تكوّن عقلية معتدلة قابلة للتطوير ومنضبطة أيضًا إلى حد ما، فليست المعلومات المعيار في الذاكرة، أن الإنسان عنده معلومات يستطيع أن يقولها، مثلاً المعلومات المتعلقة بالتواريخ حفظتها عشرات المرات وأنساها، عندما تقول لي متى ولد البخاري ومسلم، قرأناها في المعهد العلمي وفي الجامعة بعد ذلك، ودرسناها وقرأناها في الكتب، ومع ذلك ربما يصعب على الإنسان أن يحتفظ بالأرقام كمثال، فهذه مواهب قسمها الله سبحانه وتعالى بين عباده؛ فتجد بعض الناس يحفظ رقم سيارة ولا ينساه أبدًا، ولكنني أعتقد أن الذاكرة أوسع من تصورنا أنها مجرد استدعاء معلومات محددة، وإلا يكون الإنسان قد نسي، القراءة هنا مفيدة حتى لو لم يشعر الإنسان بفائدتها، لا شك أن هذا أمر في غاية الأهمية أجد أن العلاقة والصحبة مع الكتاب كان لها هذا التأثير الكبير، استمرت هذه العلاقة والحرص على اقتناء الكتاب، وربما أقول الأسرة بكاملها والحمد لله أصبح لها اهتمام بهذا الجانب.

عندما انتقلت إلى الجامعة أصبح لي علاقة بالكتب الشرعية، ومن التجارب التي أعتز بها، أن الله سبحانه وتعالى فتح لي التواصل مع الكتب الشرعية، مثلاً كتب الإمام ابن تيمية، أستطيع القول: إنني قرأت كل كتب ابن تيمية أو معظمها، فتاوى ابن تيمية - رحمه الله - من أولها إلى آخرها، تعارض العقل والنقل، كتب الرسائل والمسائل والفتاوى، إلى غير ذلك، كذلك ابن القيم - رحمه الله - لم يقع في يدي كتاب في تلك المرحلة إلا قرأته، زيادة على ذلك كتب السنة النبوية، هذه ثروة ليست بالهينة، أتيح لي - ولله الحمد والمنة - أن أقرأ صحيح الإمام البخاري عدة مرات، صحيح الإمام مسلم، سنن أبي داوود، الترمذي، النسائي، ابن ماجة، مستدرك الحاكم، مسند الإمام أحمد، سنن البيهقي، صحيح ابن حبان (ثمانية عشر مجلدًا)، والشيء الجميل، أنه خلال هذه القراءة كنت أقرأ كتب الفقه مثل كتاب "المغني" لابن

قدامة، "المحلى" لابن حزم، "المبسوط" للسرخسي، مجموعة من كتب الفقه في المذاهب المختلفة، الموطأ للإمام مالك وغيره - ولله الحمد والمنة - كنت خلال قراءتي معي قلم رصاص، فكان أي شيء يشدني، أشير إليه، إما في هامش الصفحة، أو في الصفحات الفارغة في أول الكتاب أو في آخره، بحيث إن هذه المجموعة من الكتب التي قرأتها موجودة في مكتبتي، وموجود عليها كل تعليقاتي، وكل العناوين التي وضعتها، أو الفوائد التي استفدته.

فعلت ذلك في كتب: زاد المعاد، وكتب ابن القيم، وكتب ابن تيمية، وكتب الفقهاء، فهذه الطريقة والتي يسمونها "طريقة الجذاذات"⁽¹⁾ بحيث إن الإنسان إذا استطاع ووجد الوقت، أو يكلف غيره، أن يعود إلى هذه الكتب، وأن يسجل هذه الفوائد في أوراق وينتفع بها، فهي تصلح مقالات، تصلح بحوثًا، تصلح فوائد، تصلح شواهد، وأحيانًا لا تحتاج أن تقرأ الكتاب كله من جديد، لأن هذا قد يكون فيه صعوبة، خاصة مع كثرة المشاغل وتقدم السن، لكن عندما تأخذ الكتاب وتتأمل التعليقات التي كتبتها قبل عشرين أو ثلاثين سنة، بحيث تذكرك بهذه الأشياء وتركز النظر عليها، فهذه تجربة مفصلية ومهمة بالنسبة لي، وأنا مدين بكثير من الاستشهادات التي أقولها في كثير من دروسي ومحاضراتي، أو التجارب، أو بعض الأشياء، أن الإنسان يقتبس هذه الأمور وينتفع بها.

أيضًا هناك طريقة أخرى في مرحلة متقدمة - لا أريد أن أستطرد وآخذ أكثر من وقتي - حقيقة أنا أعدّها نمطًا جديداً بالنسبة لي من القراءة أنه خلال الانفتاح على المحاضرات وعلى الدروس العلمية، وعلى البرامج الإعلامية عوّدت نفسي ألا أقدم أي محاضرة إلا بعد أن أقوم بإعدادها، حتى لو كان سبق لي أن ألقيت هذه المحاضرة قبل خمس أو ست سنوات، أنا أحضّر لها كما لو كنت ألقيها لأول مرة، وأحاول أن أقرأ ما قلته من قبل حتى لا أكرره بقدر المستطاع، إلا أنني أحاول تكرار بعض الأشياء

---

(١) طريقة الجذاذات: أن يكتب فيها القارئ ثم يترتبه هجائيًا ويكون لها صندوق خاص، به بيوت صغيرة بعدد حروف الهجاء، لفرز الجذاذات، ويعيبها احتمال فقد إحداها، وأنها أشبه بالعمل الآلي!

لأنها مهمة، فوجدت أنني أذهب لأقرأ معلومات جديدة، ولو أنك قرأت غدًا موضوعًا حضرته اليوم، ستجد أنه في الغد جاءت معلومات اليوم جديدة ومفيدة وكثيرة، والمعرفة أصبحت تتطور، الكتب تطبع، المعلومات تتزايد، الكم الهائل من الشبكة العنكبوتية، يسمح للإنسان أن يجدد ويطور معلوماته أولاً بأول، فأصبحت كلما أردت أن أبحث موضوعًا أو أعد برنامجًا، أقرأ فيه كمًا كبيرًا وهائلاً، وأقول إن حجم ما أقدمه خلال هذه المحاضرة، أو خلال أي برنامج ربما لا يجاوز ٢٠٪ من المعلومات التي حصلت عليها أثناء القراءة، ولكن بعض المعلومات تند عن الذهن أثناء الحديث، أو يضيق الوقت عنها، فوجدت أنه عندما يقرأ الإنسان حول أي موضوع من الموضوعات، هناك أولاً المعلومات الجديدة كما قلت، وهذه يسجلها الإنسان ويدونها بحيث إنه - ولله الحمد - في الفترة الأخيرة قبل خمس أو ست سنوات، أصبح أي موضوع عندي فيه كم كافٍ من المعلومات مكتوبة بخط يدي ومنقولة من جميع المراجع التي اعتمدت عليها، قد تكون هذه المراجع كتبًا كاملة، أو رسائل علمية (ماجستير أو دكتوراة)، وفي غالب الأحيان هي مواد مأخوذة من الإنترنت باللغة العربية، أو مترجمة من اللغات الأخرى، فأسجل النقاط المهمة أولاً على هذه المواد، أي آخذها كمواد ورقية، أسجل المواد المهمة عليها، ثم أقوم بعد ذلك بمرحلة أخرى مهما كان الوقت ضيقًا، أن أقوم بتسجيلها على ورق خاص، بحيث لا أحتاج إلى الرجوع إلى الورق الأصلي مرة أخرى، مثلاً اليوم احتجت الرجوع إلى موضوع القراءة بشكل سريع وعابر، أعود لما كتبته أنا، وليس ما قرأته قبل فترة، فهذه أولاً ما يتعلق بموضوع المعلومات التي يحصل عليها الإنسان.

النقطة الثانية، وهي الحقيقة بالنسبة لي كنت أفعلها ولكن لم أكتشفها إلا متأخرًا، أن القراءة أحيانًا تكون سببًا في مجيء أفكار لا تعرف من أين جاءت؟ فأنا أقول القارئ مثل الذي يسافر في طريق، وخلال هذا السفر يجد عن يمينه وعن شماله بيوتًا جميلة ومناظر وأشياء كثيرة يتعجب منها، ولكن الأعجب من ذلك أنها ذكرته بأشياء ليس لها علاقة بما شاهده، ذكرته بأيام الطفولة، ذكرته بجده، ذكرته بقصة حدثت

أثناء الصغر، ذكرته بكلام سمعه، ذكرته بأشياء كثيرة لو حاول أن يبحث عن رابط أو علاقة بين ما شاهد والأشياء التي تداعت إلى ذهنه لن يجد أي رابط، فأنا خلال قراءتي وجدت أن نسبة غير قليلة من المعلومات التي أجد ترحيبًا بها من المتابعين، هي معلومات لا أستطيع أن أقول إنها من عندي، ولا أستطيع أن أقول إنني قرأتها في كتاب؛ لأن الأمر بين بين، القصة أنني كنت أقرأ هذا الكتاب، قد يكون هذا الكتاب رواية، أو أي شيء آخر، ولكن خلال القراءة تداعى إلى ذهني معلومات وربما تكون هذه المعلومات من مخزون اللاوعي الذي قرأه الإنسان يومًا من الأيام، أو سمعه، أو فكر فيه، وكانت هذه القراءة هي المناسبة التي قدحت الشرارة وحركت الذهن، واستدعت هذه المعلومات، ولذلك أعتقد أن يكون الإنسان قارئًا، هذا شيء مهم جدًا، وأن نشيع هذه الثقافة حتى تصبح عادة، وهذا أصبحت أعمله بنفسي وأنصح به أبنائي دائمًا وأبدًا، أنه حيثما سافرت في الطائرة أو في سيارة أو في قطار، اجعل الكتاب واحدًا من مصحوباتك، فأنت تأخذ الملابس والأدوات التي تحتاجها، اجعل الكتاب معك، وأيضًا اجعل معك كتبًا شخصية بحيث تقرأها في وقت الفراغ ولو كان وقتًا يسيرًا، ولا بأس، قد لا تكون هذه الكتب جادة والإنسان ربما يكون متعبًا أو مجهدًا، ولكن تكون كتبًا مفيدة، أنا أعتقد أن بعض الروايات هي مثل (الحكايات)، فيها لغة، فيها متعة، فيها معلومات عن المجتمع وعادات المجتمع، وسلبياته وإيجابياته، والإنسان ينتقي ما يناسب، ينتقي الشيء الجيد..

وانتبهوا أن القدوة هنا مهمة، ففي مرة من المرات كنت بدولة الإمارات، وأعطاني شخصًا رواية، وللأسف هذه الرواية كاتبتها سعودية، وعندما قرأت بضع صفحات من هذه الرواية أصبحت أخفيها لا أريد أن يراها معي أحد؛ لأنني وجدت أن في هذه الرواية كلامًا لا يجوز في حق الألوهية، وكلامًا شنيعًا لا يتوقع الإنسان أن يسمعه من إنسان يعي ما يقول وما يكتب، ووجدت فيها جرأة مفرطة فيما يتعلق بالحديث عن القضايا الجنسية، شيئًا مؤسفًا، فأصبح الإنسان يواري ويداري أن يُرى هذا الشيء معه، فربما أن تعمل دعاية لهذا الكتاب، فلذلك يجب أن يختار الإنسان الكتب

المناسبة لاقتنائها، وفي كل لون وفن وعلم، هناك كتب كثيرة مفيدة ومناسبة يستطيع الإنسان أن يقرأها ويستفيد منها، وأن ينتفع بوقته، ويكون القدوة للآخرين أن يستفيدوا ويستثمروا، بدلاً أن نلعن الظلام، علينا أن نضيء الشموع، أعتقد أننا فعلاً بأمس الحاجة أن نتدرب على القراءة، وأن نجعل ثقافة القراءة ثقافة شائعة في: الانتظار في المستوصفات، في المسجد لا بأس أن يقرأ الإنسان شيئًا من كتاب الله تعالى، لكن يجد إلى جواره قراءة في بعض كتب التفسير، أو في بعض كتب الإيمانيات، أو بعض كتب الحديث، أو بعض كتب التاريخ، كان بعض الأئمة يقرؤون على الجماعة كتاب البداية والنهاية لابن كثير، وختموا هذا الكتاب من أوله إلى آخره، طبعًا كتاب التاريخ فيه الحقائق والاحتمالات والظنون، والأشياء الطيبة الإيجابية وضد ذلك، المهم أن يكون هناك ثقافة، أن الإنسان خلال الانتظار يحاول أن يقرأ ويستفيد بدلاً من الكلام فيما لا طائل فيه.

الكتاب مؤثّر، والقراءة كذلك، كما قلت: أوسع من الكتاب، قراءة تجارب الآخرين، الاستماع إلى الآخرين، العقل المفتوح، يمكن أن نعبر عن العقل المفتوح، وليس معنى ذلك أن العقل المفتوح هو الذي يسمح بالشذوذ، أو الشبهات أن تتسلل إليه، ولكنه العقل الذي يعرف منطقة الثبات المحكمة التي من مصلحتك، ومصلحة الحفاظ على وقتك وسلامتك النفسية، وعلى سلامة دينك، وعلى علاقتك بربك سبحانه، وعلى مستقبلك الأخروي، إن هذه المنطقة لا تقبل أي تزلزل، أو تخلخل، وهي المتعلقة بالقيم والمقدسات الشرعية، ومنطقة الحركة، والتي هي ميدان الحياة كلها ما يسمى بمنطقة المسكوت عنه، أو المباح، التجارب البشرية، الأفكار، أنا ذكرت قبل أسبوع، أن كل إنسان يمر به يوميًا ما بين ٦٠ - ٩٠ ألف فكرة أو خاطرة، لكنها تمر سريعة، وبعضها قد لا ندري عنها، وقد يقول بعضهم إن هذا هراء، ولا يمر بأفكار، بل هو يمر بأفكار، ولكنه قد يكون غافلاً فلا ينتبه لها، وهذا نوع من الغفلة، ولكن إذا كان الإنسان صيادًا ماهرًا، يكون حينئذ يقظًا للأفكار، ويقظًا لتدوينها، فبمثل ما هو

صديق للكتاب، صديق للقلم أيضًا، هذه نقطة مهمة جداً، وهو أن يكون القلم مع الكتاب، أقول: إن التحولات مثل: تحولات الأفراد، والجماعات، والأمم، تفيد فيها الكتب، وتفيد فيها الأفكار، الأفكار التي تولدها أنت وفي دائرة المسموح، المسكوت عنه، المباح؛ الأفكار التي ربما تستعيرها من دوائر أخرى، أو مجالات أخرى، أو ميادين أخرى، وتوظفها توظيفًا إيجابيًا، الأفكار التي تركبها أنت من فكرتين، وتبدو أنك مهندس هذه الفكرة، وفي الواقع أن دورك فيها فقط أنك استطعت أن تزاوج بين فكرتين، فهناك كمية هائلة، وأقول هائلة أكثر مما نتصور، لاقتباس الأفكار، وتوظيف هذه الأفكار للتحولات الإيجابية التي نصنعها في شخصياتنا في مجتمعاتنا، أنا أعتقد أنه إذا مؤسسة قامت، أو مجموعة، أو قل حزب في أي منطقة في العالم الإسلامي، أو مدرسة، أو دولة، القضية أننا بحاجة إلى تجدد مثل النهر، يقولون إنك لا تنغمس في النهر مرتين أبدًا، لأن الجرية التي انغمست فيها راحت، وجاءت جرية جديدة، كذلك هي الحياة تتجدد باستمرار، والذي لا يحسن أن يتجدد يحكم على نفسه بالفناء، وأذكر أبياتاً لأبي القاسم الشابي(١) تتعلق بهذا الموضوع في قصيدته "إرادة الحياة":

إذا الشّعْبُ يَوْمًا أرَادَ الحَيَاةَ
فَلا بُدَّ أنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر
وَلا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي
وَلا بُدَّ لِلقَيْدِ أنْ يَنْكَسِر

---

(١) أبو القاسم الشابي: (١٩٠٩ - ١٩٣٤م) شاعر تونسي من العصر الحديث كان أبو القاسم الشابي ضعيف البنية نحيف الجسم مديد القامة، ثم زاده المرض في إبان النمو الطبيعي نحولاً وضعفاً. وكذلك كان ذكيًا حاد الذهن سريع الانفعال، رقيق الطبع لطيف المعشر خافت الصوت عند التحدث، قليل التكلف في حياته الخاصة وحياته العامة. وقد كانت تعلو وجهه دائمًا مسحة من الكآبة والوجوم، برغم المرح الذي كان يحاول اصطناعه في جميع الأحوال والأحيان. نظم الشابي أشعاره في مدى ثماني سنوات أو عشر سنين في الأكثر. مما يلفت النظر أن الشابي ظهر فجأة كشاعر تام النضج. إذا قيس بأنداده المعاصرين حتى أولئك الذين كانوا أكبر منه سناً. والشابي شاعر وجداني، خالص، وهو على صغر سنه شاعر مكثر مجيد، ولقد أجمع الدارسون على أن الشابي قد طبع شعره على غرار المذهب الرومانسي.

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الحُيَاة
تَبَخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَر

فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الحُيَاةُ
مِنْ صَفْعَةِ العَدَم المُنْتَصِر

الخلاصة أنه خلال هذه التجارب التي مر بها الإنسان، من طفولته إلى شبابه إلى مرحلة ما بعد الشباب، وأنا مازلت فيها، وهي مرحلة ما بين الكهولة والشباب، يجد الإنسان أن أعظم فائدة هو أن أصبحت القراءة عادة، أصبح الإنسان يجد متعة في القراءة، فنحن نقرأ لنستمتع بما نقرأ، والقراءة عبارة عن سفر، حياة واحدة لا تكفي، فمن خلال القراءة كما يقال:

ومن وعى التاريخ في صدره
أضاف أعمارًا إلى عمره

مثل القوم نسوا تاريخهم
كلقيط عي في الناس انتسابا

أو كمغلوب على ذاكرة
يشتكي من صلة الماضي انقضابا

فعملية أن يكون لدى الإنسان قراءة، يقرأ للمتعة أولاً ولكي يجدد حياته، وأن يستفيد من تجارب الآخرين وينتفع بها، يقرأ من أجل السلاسة والسلامة النفسية، أنا أزعم أن معظم الناس يعانون قدرًا يقل أو يكثر من الإعاقة النفسية، أو من العارض النفسي أو الكدر النفسي بسبب صعوبات الحياة ومشكلاتها، ولذلك ربما أحد معوقات الناس عن القراءة، هو الإحباط وضياع الأهداف والمشاريع والأحلام التي كان الناس يفكرون بها، ويحلمون بها، فالقراءة تطلع الإنسان على عوالم، القراءة تشكل تسلية للإنسان، القراءة تعطي للإنسان مادة أن يتحدث مع الآخرين من خلال ما قرأ، بحيث كما يقال: "تحدث كما أراك"، الزوج مع زوجته، الأب مع أطفاله،

يوم من الأيام كان أولادي يقولون لي، أبي وجدنا "فلان" في الفندق، وفعلاً كانوا قد رأوا أحد الدعاة المشهورين في الفندق، فسألهم من أنتم؟ قالوا: نحن أبناء فلان، سلم عليهم وجلس يقص عليهم قصة، فعندما قابلتهم في المساء، قالوا فلان يقص ما شاء الله، أبناؤه سعداء، أنت مشغول لا تحكي لنا قصصًا، فبعد ذلك بدأت أهتم بهذا، وجدت أن عندي كمًا هائلاً من القصص التي تصلح للأطفال، وقت الفراغ الإنسان يستطيع أن يقول هذه القصة، ويشدهم إليها، ويجعلهم يشاركون في مثل هذه القصص، ويستفيدون منها، إذن نحن نقرأ أيضًا لكي نقدم للآخرين شيئًا جيدًا، ونصنع مادة للحديث معهم، مادة للتواصل بين الزوجين، بين الزملاء، بين الآباء والأبناء، المدرس مع طلابه، نقرأ حتى نصنع قدرًا من السلامة النفسية لنا، نقرأ حتى نحافظ على الأمل، نقرأ حتى نستفيد من تجارب الحياة، طبعًا نقرأ حتى نحصل على المعرفة، والمعرفة من أهم المقاصد السامية.

ويكفي أن القرآن الكريم أظن أنه به أكثر من سبعين ألف كلمة، اختار الله سبحانه وتعالى من بينها كلها كلمة واحدة لكي تكون هي أول ما يطرق سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي "اقرأ" وهي الأمر بالقراءة، إذن القراءة هي بوابة إلى العبادة، بوابة إلى المعرفة، بوابة إلى النجاح، بوابة إلى الحياة، فأحد الشباب عندما كنا نتحدث في هذا الموضوع، قال: نعم الله سبحانه وتعالى قال: اقرأ، لكن النبي ﷺ قال: ما أنا بقارئ؛ فالشاب هذا يقول: ما أنا بقارئ، حاشى رسول الله ﷺ، فهو يقصد أنا لست قارئًا، لا أجيد القراءة، لم يكن يقرأ الحرف، والله سبحانه وتعالى جعل هذه معجزة للنبي ﷺ ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾(١).

ولهذا كان ذلك إعجازًا، أن يكون النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، أن يكون هو معلم البشرية، وأن يقدم هذا العلم العظيم، وهذه المعرفة الصحيحة الصادقة،

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات ٤٨ - ٤٩.

التي لا يزيدها مرور الأيام والليالي إلا وضوحًا ونصوعاً وثباتاً، هذا نوع من الإعجاز، وفي هذا يقول الشاعر عزيز أباظة:

إن أمية الرسول قضاها الله عن حكمة لها بينات
كل أمية سواها يسيح الجهل فيها وتسبح الظلمات

قد لا أستطيع أن أحدد هذا بشكل دقيق كم نسبة القراءة في تكويني، ولكنني أزعم أنني مدين للقراءة بشكل كبير جداً في أي شيء يعتقد الآخر أنه إيجابي في شخصيتي، لأن الإنسان كما يقولون لا يولد متعلمًا، كما قال الإمام الشافعي:

تَعَلَّم فَلَيسَ المَرءُ يولَدُ عالمًا
وَلَيسَ أَخو عِلمٍ كَمَن هُوَ جاهِلُ
وَإِنَّ كَبيرَ القَومِ لا عِلمَ عِندَهُ
صَغيرٌ إِذا التَفَّت عَلَيهِ الجَحافِلُ
وَإِنَّ صَغيرَ القَومِ إِن كانَ عالمًا
كَبيرٌ إِذا رُدَّت إِلَيهِ المَحافِلُ

فكثير من الأشياء الإنسان يتعلمها، الآن أصبح هناك جوانب من الانضباط في شخصيتي في أمور معينة، أجد نفسي حريصًا على النظافة على سبيل المثال، في حين أنا أقدمها لأبنائي فأصبحت جزءًا من شخصيتهم وتكوينهم، أكيد أن هذا ليس شيئًا تعلّمناه في مجتمعنا، وإنما هي أشياء الإنسان اقتبسها، لذلك أعتقد أنه عندما يكون لدى الإنسان ذهن متطلع، أحيانًا أزعم، وأقول: إن المجتمع يتغير، وأستطيع أن أقول وبشكل أخص المجتمع السعودي يتغير، خلال هذا الأسبوع قابلت عددًا من الشباب، وسمعت منهم أفكارًا وتساؤلات بالتأكيد لم نكن نسمعها في الأجيال السابقة، وليست كلها سلبية، بل لها جانب إيجابي إذا وجدت نوعًا من الاستيعاب والاحتواء، قد تكون فرصة لأن نحدث التغيير الإيجابي وليس السلبي؛ لأننا لا نزعم أن مجتمعنا السعودي هو صورة مثالية، ولذلك مهمتنا أن نحافظ على الأشياء الموجودة، يجب أن

نحافظ على الأشياء الإيجابية في هذا المجتمع، لكن أي أشياء أخرى سلبية مثل: قضية التعصب القبلي، أو قضية الجمود، أو قضية التعصب للموجود، لمجرد أنه مألوف، أو قضية رفض ما عند الآخرين أحيانًا، والتزكية المطلقة للنفس.

أحد الإخوة، يقول: إنه كان في المغرب العربي، وكانوا يشاهدون محطة تلفزيونية تنتمي إلى هذه البلاد؛ فخرج أحدهم يقول: نحن لدينا ولله الحمد العقيدة الصحيحة وهذه لا توجد في أي مكان في العالم، فيقول: كان الناس يسمعون ويقولون ما هذا الكلام؟!

طبعًا أنت الآن تدرك أنك تتكلم في فضاء مفتوح، ولا تتكلم مع نفسك، وحتى لو تتكلم مع نفسك، أنا لا أؤمن أبدًا أن أصبح أنا وأنت في جلسة خاصة أن نأخذ راحتنا في الكلام عن الآخرين، ولكن نحاول أن نقوم بعملية تمثيلية، فعندما يسمعنا الآخرون نذوِّق عباراتنا ونستر بعض الأخطاء!

أنا أؤمن أن العالم، والمسؤول، والمثقف، والأب، والمعلم، يجب أن يكونوا شفافين حتى في حديثهم مع أنفسهم والأفكار الموجودة بداخلهم، وبعيدين عن أي انحرافات في التفكير، والسلوك والقيم، وخاصة فيما يتعلق بالقيم، فكل ابن آدم خطاء، لكن المشكلة عندما يكون لدى الإنسان قيمة يحافظ عليها ويعتقد صوابها، فأظن أن ليس مجتمعنا السعودي مثالاً يجب أن يحتذى ونحافظ عليه فقط، لا.. مجتمعنا فيه أشياء كثيرة طيبة وإيجابية، وهناك أشياء تحتاج إلى مراجعة وتصحيح، وهناك أشياء تحتاج إلى نفي، وفوق هذا وذاك هناك تجارب ونجاحات وفضائل عند الآخرين من العرب والمسلمين، بل عند أم الأرض، يجب أن يكون لدينا قدرة واستعداد على اقتباسها والاستفادة منها دون أن يداخلنا خوف أو رعب، أن نكون في حالة من الهلع فهذه علامة ضعف، أو علامة هزيمة، بعضهم يعتقد أن قبول مثل هذه الأشياء هزيمة نفسية.

أقول: إن الهزيمة النفسية أن يكون الإنسان خائبًا ولذلك يغلق الأبواب ولا يريد أن يستفيد من الآخرين، تتعجب أنه كيف أن الرسول ﷺ، في الفترة التي بنى فيها

الصحابة، وبنى فيها هذا المجتمع، عوّدهم أن يقتبسوا، وأن يكون قد أخذ هذا الجيل الأول تجارب عسكرية، وتجارب إدارية، وتجارب اجتماعية، وتجارب طبية، من أمم الأرض من اليونان، ومن الرومان، ومن الفرس، وحتى من العرب في الجاهلية، في المعمار، في البناء، في الإدارة، في أشياء كثيرة جداً دون تردد، والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه التجارب التي استطاعت أن تستوعب ثقافات الآخرين، وعلى مدى أكثر من عشرة قرون، استطعنا أن نقتبس الحضارة الإنسانية ونعيد إنتاجها، فالمبالغة في الخوف قضية تحتاج إلى مراجعة، ولذلك أنا أقول إن من أعظم ثمرات وفوائد القراءة أن تعزز هذه الجوانب لتساعدنا على التغيير الإيجابي، وليس التغيير السلبي.

هناك نقطة أخرى، وهي مسألة القائد غير القارئ، نقول إن مسألة القيادة تختلف، والقراءة أيضًا تختلف، فمن خلال المقدمة قد أشرت أن قصة القراءة ليست مرهونة برموز الحروف، إمامنا، هو غير قارئ بمعنى قراءة الحرف، ولكنه هو إمام القرّاء، وإمام العلماء، وإمام الأنبياء، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، إذن هناك قراءة الحياة، قراءة التجارب، فمن التجارب التي استفدت منها أنا أيضًا مسألة كبار السن، ففي منطقة القصيم في مرحلة من المراحل أصبحت أحرص على زيارة المسنين، في عمر الثمانين والتسعين والمئة سنة، وذهبت إلى عدد منهم، بل زرنا بعض المشايخ في مدينة حقل كان عمره مئة وعشر سنوات أو مئة وخمس عشرة سنة، وأهدى لي كتابًا وختمه بختمه، وختمه قد أصدره في السنة التي ولد فيها الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - ولم يمت الشيخ إلا من قريب، والشيخ اسمه داود القيسي، وهو متخصص في الفرائض وفي الفقه، وولي القضاء في الخلافة العثمانية، كذلك كان هناك مجموعة من المسنين، بعضهم كانوا سائقي سيارات، وبعضهم ذهبوا إلى التجارة في الشام وطلب الرزق، وبعضهم عاشوا تجارب، فهؤلاء عندما تستمع إليهم فأنت تقرأ كتابًا، قد تكون لغة بسيطة ولكنها مفيدة جدًا، ولا أعتقد أنه يوجد قائد غير قارئ، لكن قد يوجد قائد لا يقرأ الحروف، ولكنه يقرأ المعاني والأفكار والتجارب.

من الأشياء المؤلمة أن يقال: إن (٨٠) عربيًا يقرؤون كتابًا واحدًا في السنة، اللبناني يقرأ بمعدل ١٠ دقائق يوميًا، المصري يقرأ بمعدل ٩ دقائق يوميًا، السعودي يقرأ بمعدل ٦ دقائق يوميًا، الأوروبي يقرأ بمعدل ٣٥ كتابًا في السنة لكل شخص، كل فرد من أفراد الشعب، كذلك ما يتعلق بموضوع الطباعة والنشر، تجد أن للفرد الواحد خمسمئة كتاب، في بريطانيا لكل (٥٠٠) فرد كتاب، في ألمانيا لكل (٩٠٠) فرد كتاب، في العالم العربي لكل (١٢٠٠٠) فرد كتاب، لو تأتي للحديث عن الترجمة ستجد شيئًا مذهلاً لو كنا نتكلم عن الاستفادة من خبرات الآخرين، تجارب الآخرين، هنا عملية الترجمة سواء الترجمة من اللغة العربية أو الترجمة إليها، يوجد مركز للترجمة في الإمارات، ويوجد مركز للترجمة في قطر، يوجد أكثر من مكان هنا في المملكة، وفي مصر، لكن تظل حركة الترجمة متراخية جداً بالقياس إلى حجم الاحتياج.

أتاح لي وجودي في التحفُّظ خلال خمس سنوات، فرصة كبرى للقراءة، وكانت من أزهى فترات الوقت بالنسبة للقراءة حيث قرأت كتبًا كثيرة، وفي الفترة الأخيرة لما سمح لنا باقتناء القلم، كنت أسجّل كل ما أستطيع أن أسجله من فوائد أو معلومات، خلال ذلك الوقت استطعت أن أقرأ كمًا هائلاً من الروايات، يتسلّى بها الإنسان. كنا نقرأ أحيانًا (١٦) ساعة في اليوم، أو (١٧) ساعة في اليوم، لأن نشاطنا الوحيد هو القراءة بالإضافة إلى الصلاة والنوم، فكنا نقرأ كثيراً، وقد سبق أن تحدثت عن هذا الموضوع - فلدى بعض الإخوة تحفظ حول هذه القضية - أنا هنا لا أتكلم لأزكّي فكرة السجن!!، أو فكرة الدخول في السجن، !! ولكن أتكلم عن فكرة استثمار الأوقات أو الفترات التي قد تكون سلبية في نظر قوم، أو تقييد للحرية، ومع ذلك الإنسان يمكن أن يوظفها بتوفيق الله سبحانه وتعالى إلى أن تكون إيجابية من خلال استثمارها بطريقة سليمة وصحيحة، خلال تلك الفترة أنا أعدت قراءة فتاوى ابن تيمية كاملة، وحفظ القرآن الكريم، تجديد حفظ المنذري في صحيح مسلم، قراءة صحيح مسلم قراءة متأنية مع المقارنة، قراءة شرح صحيح البخاري، الإحسان لابن

حبان، شروحات السنة النبوية، الروايات من روائع الأدب العالمي، المترجمات، الكتب القديمة، كتب أدبية مثل العقد الفريد، كتاب الأغاني للأصفهاني، لا تكاد تجد كتابًا تطاله اليد إلا قرأناه والحمد لله واستفدنا منه، في فترات ما قبل النوم وهي ما بعد الاضطجاع وأن يغشاك النوم وتأخذ من خمس دقائق إلى سبع دقائق، وكان معي الأخ خالد لبعض الوقت وهو حاضر بيننا الآن، كان يقرأ وأنا أستمع حتى ينام الأعجل منا حتى يتوقف عن القراءة، ويروى عن الإمام أحمد، أنه حينما يذهب إلى الوضوء كان يجعل من يقرأ عليه، نحن طبقنا هذه العادة الحميدة ولا أقول السنة، طبقناها في بعض الحالات، بل كان الخفير إذا أراد أن يدخل للسؤال، ربما يتحرج ويحتاج إلى أن يستأذن؛ لأنه يشعر بالانشغال وأن الوقت مضغوط، ولذلك أنا أعاتب نفسي الآن إذا شعرت أن هناك أوقاتًا تضيع مني، فأقول ربما الإنسان يوم من الأيام يندم على ضياع هذا الوقت، وربما يحتاج الإنسان هذا الوقت في المستقبل ولا يستطيع الظفر به.

يقولون: إن الزهري(١)، كان يقرأ في القرآن والتفسير والحديث، وإذا شعر بالملل انتقل إلى أشعار العرب وأخبارهم وتاريخهم وأيامهم، فهذا علم، وهذا علم؛ فالتنوع أعتقد أنه شيء إيجابي، وإن بعض هذه الروايات فيها عبر حقيقية، لأن بعضها قد تكون روايات حقيقية، تذكر قصصًا حقيقية يستفيد منها الإنسان، وبعضها وإن لم تكن حقيقية إلا أنها تحاكي الحقيقة، بمعنى أنها تكشف عن ثقافة المجتمع. وأذكر رواية قرأتها عنوانها "الأرض الطيبة" وهي تتحدث عن المجتمع الصيني، وكذلك كتاب اسمه "مجاعات برية"، هناك كم هائل من الكتب تكشف لك حياة بعض المجتمعات، ثقافاتهم، وعاداتهم، وإيجابياتهم، وسلبياتهم، يستفيد منها الإنسان فائدة كبيرة، هي كما قلت عبارة عن سفرة، ولكن تسافر بعقلك وأنت باق

---

(١) هو الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الأصغر ابن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي الزهري القرشي المدني. وإذا أطلق العلماء لفظ الزهري أو لفظ ابن شهاب فلا ينصرف هذان اللفظان إلا إليه لغلبتهما عليه دون غيره. كان الزهري مثلاً في الحفظ وقدوة في الإتقان والضبط وكان يمتاز بالسرعة الفائقة في الأخذ والفورية النادرة في الاستيعاب والحفظ، وقد لاحظ عبد الملك بن مروان ذلك حينما التقى به أول مرة وقال له: اطلب العلم فإني أرى لك عينًا حافظة، وقلباً ذكيًا.

بجسدك.

نتحدث الآن عن الطفل، وأسئلته عن قضايا الإلهية، هذه من النقاط التي نعاب فيها أحيانًا، وهو أن كثيراً من الآباء والأمهات، بل المعلمين لو تسأله هل قرأت كتابًا في التربية؟ قال: لا. . العلم هنا ليس إلهامًا مجردًا، فكيف تطمع أن تكون مربيًا ناجحًا مع أن هذا علم تطور بشكل كبير؛ لأنه علم يخضع للتجربة، ويخضع للملاحظة، وأيضًا العلاقات الزوجية، مشكلات كثيرة في العلاقات الزوجية وعندما تسأل الزوجين هل قرأت كتابًا، يقال: لا، ومن تجربتي عندما أقول للمرأة اقرئي كتابًا، تشعر وكأنني أريد أن أتخلى عنها، بمعنى ليس هناك وقت لكي تقرأ كتابًا، لا. . فمن دون أن يقرأ لا يستطيع الإنسان أن يكون لديه بصيرة، لا تجد إنسانًا لديه وقت أن يمضي معك أربع أو خمس ساعات، وبالمناسبة فمن التقنيات الجديدة اليوم، فهناك الكتاب المقروء، وهناك الكتاب الموجود على الشبكة العنكبوتية، هناك الكتاب المسموع، أنا سمعت عددًا من الروايات على أشرطة، وعلى CD وعددًا من الدواوين الشعرية، المتنبي موجود على أشرطة، وقد سمعت ديوان المتنبي كله، أو جله، وقد حفظت كثيراً من أبياته لأنني أكرر سماعه في السيارة، وتجد المتعة، والفائدة، والثقافة. محمد إقبال شاعر الإسلام في شبه القارة الهندية، دواوينه كلها موجودة. عبدالله البردوني، ومجموعة كبيرة من المواد الثقافية موجودة على CD بإمكان الإنسان أن يستمع إليها، إذا كان الإنسان لا تساعده عيناه على القراءة، أو لا يساعده وقته أن يجلس ليقرأ، فيستطيع أن يسمع وهو في الطريق مثلاً.

أسئلة الأطفال عن الجنة وعن النار تحتاج إلى لباقة وإلى خبرة في التعليم، أمس أحد أطفالي الصغار، قال معلومة مثلما قالت الأخت عن الله سبحانه وتعالى، غير صحيحة، فأردت أن أصحح له، وجدته يضع يديه على أذنيه ويرفع صوته كأنه لا يريد أن يسمع، يصر على معلومته، وأنت تحترم طفولته هنا وبراءته، وتأتي فرصة أخرى لكي تعطيه معلومة ليس بالضرورة أن تشعره أنها تعليق على المعلومة التي

قالها، وأحيانًا تجد الأطفال يقولون كلامًا بعفوية وهو صادق، فإذا سقط الكأس منه، وسألته لماذا أسقط الكأس، قال: لم أسقطه أنا، ولكن الله أسقطه، فطبعًا يحتج بالقضاء والقدر، القضاء والقدر يحتج به في المصائب وليس في المعايب، يحتج به في الأمور التي ليس للإنسان فيها إرادة ولا اختيار، لكن في فعل الإنسان فيما يتعلق بالذنب، يحتج به فيما مضى أنه قضاء وقدر، ولكن لا يحتج به في المستقبل أن يصر على الذنب، وإنما قد يكون قدرك هو التوبة إلى الله سبحانه وتعالى والإقلاع عن الذنب.

للقراءة السريعة ألوان كثيرة جدًا، وهي فن يدرس، أحيانًا يمكن أن يقرأ الإنسان (٢٠,٠٠٠) كلمة خلال دقيقة واحدة، وأذكر أنني كنت في الكويت وأهدى لي أحد الشيوخ كتابًا له، كتاباً علمياً نحو ٣٠٠ صفحة، بينما كنت أهم للذهاب للمطار فتصفحت الكتاب في السيارة على عجل، وبعدما وصلت كان معي أحد الشباب أعطيته الكتاب وقلت له اختبرني في هذا الكتاب، قرأته يمكن خلال ربع ساعة، طبعًا السبب أنه في تخصصي، وأنا أعرف القصة من أولها لآخرها، فهناك كثير من النصوص، وكثير من النقول لما تبدأ بها تعرف نهايتها، هذه تتجاوزها لأنها موجودة عندك وتعرف اتجاهها، إذًا القراءة السريعة فن يمكن للإنسان أن يتدرب عليه، وبالإنترنت كثير من المذكرات والمعلومات، هناك عملية الاستعراض، وهناك القراءة المقطعية، هناك التحليق فوق النص، وهناك أن يقرأ الإنسان مقدمة الكتاب، ويقرأ الخاتمة، ويقرأ الفهارس، ومن خلالها يمكن أن يكون انطباعًا حول الكتاب مناسبًا أو غير مناسب أو يكون لديه ثقافة عن هذا الكتاب في وقت الحاجة إليه، والكتب تختلف، فهناك بعض الكتب يحتاج أن تقرأه ثلاث مرات، وأذكر كلمة للعقاد يقول: لأن أقرأ كتابًا واحدًا ثلاث مرات أحب إليّ أن أقرأ ثلاث كتب مرة واحدة، لكن كلام العقاد هذا ليس مطلقًا، لأن بعض الكتب لا تحتاج أن تقرأه مرة واحدة، بل يكفي أن تمر عليه مرور الكرام لتعرف مضمون هذا الكتاب، وأذكر مجموعة من الشباب أخذوا

مجلات، كان لديهم مجلات تخرجها الجامعة التي ينتمون إليها، وذهبوا إلى أحد الشيوخ في مصر، أحد المحققين الكبار المشاهير والذين يعرفهم الجميع، والذين كان لديهم احترام شديد لوقتهم ولما يقرؤون، فأهدوه هذه المجلات، فأخذها منهم ورماها مع النافذة، ولما خرجوا أخذوها في طريقهم وعادوا أدراجهم، فليس كل شيء يستحق أن يضيع الإنسان فيه وقته، هذا فيما يتعلق بموضوع القراءة السريعة، بعض الكتب يستحق من خلال أنك قرأته، ترى أن تعيده مثنى وثلاث ورباع.

يجدر بي الإشارة إلى المشروعات الوطنية للقراءة.. (القراءة للجميع) شعار رفع في مصر وفي لبنان (دشن الكتاب)، ويمكن أن يرفع هنا من خلال هذه المكتبة؛ لتشجيع الناس على القراءة مثلما حدثني الإخوة قبل الدخول هنا، أنه يمكن في مطار الملك خالد في قاعة السفر أن يكون هناك مكان للكتب والقراءة، وكذلك لكبار السن، للشباب للأطفال، للبنات، ويمكن في المستشفيات، وأن يكون الكتاب في كل مكان، دع الكتاب يقابل الناس في كل مكان، لكن سؤال الأخ يوسف يتعلق بمسألة لمن يقرأ؟ لاشك أن ليس كل الناس عندهم القدرة على اختيار الكتاب الذي يقرؤونه، فبعض الناس يحتاجون إلى تسمية، ولا أدل على ذلك فأخي الدكتور المقدم يقول إن كثيراً من الأسئلة تطلب أن أختار لهم كتبًا يقرؤونها، فبطبيعة الحال بعض الناس يريد أن يتعرف إلى الكتب التي يبدأ بها، أو الكتب التي تشجعه على القراءة، أنا مثلاً في بداية تكويني ما كنت أقرأ أي كتاب في الواقع، غالبًا ما كنت أقرأ كتبًا محددة أعرف أن هذه الكتب مضامينها شبه متفق عليها، مثل كتب التفسير وكتب الحديث وكتب في جوانب تأصيلية، ثم بعد ذلك وجد الإنسان أن يتوسع ويقرأ بعض الكتب الأخرى، كتب أدبية، ودواوين شعرية وروايات، الآن أصبحت أقرأ الكثير والحمد لله؛ لأنني لا أجد أن ما سأقرؤه سيؤثر عليّ تأثيراً سلبيًا، أجد أنه مع الوقت إذا درب الإنسان نفسه يصبح عنده ملكة التمييز، وملكة الفرز بين ما هو نافع وما هو غير نافع، فكثير من الأشياء مثل موضوع القصص، القصص في الغالب ليس بها مشكلة مزمنة تواجه الإنسان، إذا كان الإنسان لديه الثقافة الكافية في هذا المجال،

ولذلك أقول إنه من الصعب أن تقول للشباب لا تقرؤوا إلا ما يقول لكم شيوخكم أو يسمونه لكم، هذا مع الوقت سيولد نوعًا من التكرار، ومثلما يقال إن رجلاً جاء إلى شيخه وقال إنه حفظ كتاب القاموس المحيط، فقال له: إذن زيد في نسخ القاموس نسخة، أي أن النسخ كثيرة، وأنت نسخة إضافية، فلا يحتاج أن تحفظه، ولا أستطيع القول أن يقرأ الإنسان ما هب ودب، فقد أقرأ أنا كتبًا، لو شاورتني ابنتي أن تقرأ هذا الكتاب لنصحتها بألا تفعل، ولكنني أيضًا أعرف أننا في عصر الشبكة العنكبوتية، وفي عصر الانفتاح، وأن الكتاب إذا منع من الباب يدخل مع النافذة، ومن الطرائف أن أحد أمراء بني أمية، وكان أميرًا لديه نقص في تفكيره، وقد ضاع له صقر في المدينة، فأمر أن تغلق أبواب المدينة حتى لا يذهب الصقر بعيدًا، ونسي أن الصقر يحلق في الفضاء، يروى هذا عن بشر بن مروان، أو غيره لست أدري، والمقصود أن العصر اليوم ليس عصر محاصرة الناس، وإنما عصر صناعة القناعة والمناعة عندهم وتوجيههم نحو الأفضل، وهذا شيء في نظري مهم، وأحيانا أن يقرأ الإنسان بموجب التزكية، هذا يمكن أن يجور عليه، وقد ذكرت تجربة أو حادثة، أن هناك مجموعة من الشباب بينهم حوار، وهم منقسمون إلى مجموعتين، كانت مجموعة معجبة بالأستاذ سيد قطب - رحمه الله - وأفكاره، وهو من الناس الذين قرأت لهم، وقد قرأت جميع كتب سيد قطب بلا استثناء في مرحلة من المراحل، بما في ذلك في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق، وقد أكون حفظت معالم في الطريق، أو حفظت نصوصًا له، لديه براعة أدبية، لديه أسلوب، لديه عاطفة حارة، وعنده إيمان قوي، وله فضل كبير في تثبيت إيمان هذا الجيل، ولكن سيد قطب رحمه الله، ليس معصومًا ولا مزكى في كل اجتهاداته، فكان له عثرات بسبب حداثة تجربته في الميدان الإسلامي، وبسبب ظروف السجن التي عاشها، ظروف العالم الإسلامي، من الخطأ أن نعتبر أن ما قاله سيد قطب هو التعبير الحقيقي عن الإسلام وكأنه الصورة الصحيحة، أو أن سيد قطب هو المدرسة التي نسخت ما قبلها، لا. . . ، ولكن أيضًا

من الخطأ أن يتم محاربة كتب سيد قطب، وكأن هذه الكتب شر، بينما نجد كل ما شئت من الألوان والأنواع والعناوين موجودة ومباحة ومتاحة، أعتقد أن قضية التربية على الاعتدال، إما أن ننساق مع شخص ما أو منهج ما، ونسلمه قيادنا أو نرفضه، ألا يوجد حل وسط؟ بل هناك حل، فيستفاد من كتب سيد قطب رحمه الله، في أشياء كثيرة جداً، وفي جوانب حتى في المنهج على الأقل فيها إشكال، كلام سيد قطب رحمه الله عندما يتكلم في قضية المجتمعات والمجتمع الجاهلي، هو لا يقصد تكفير الناس، وأنا سألت أخاه محمد قطب، لقيته وقرأت جميع كتب محمد قطب، وقرأت شخصيته، لأننا التقينا به وسألناه أسئلة كثيرة عن تجربته وحياته وسجنه، ومجيئه إلى هنا في المملكة، ولكنني سألته عمّا يشاع من أن سيد قطب يكفر الناس ويكفر المجتمعات، هل هذا صحيح؟ فقال لي الأستاذ محمد قطب، إن كلمة نحن دعاة ولسنا قضاة، هي ليست كلمة للأستاذ حسن الهضيبي كما هو عنوان كتاب مطبوع، هذه الكلمة قالها أصلاً الأستاذ سيد قطب، وقصد بها أنه لا يحكم على الناس، وأن الناس مسلمون، ولا يقصد بالكلام تكفيرهم، ولكن لغته فيها حدة ومبهمة، وربما حملت بعض الشباب على ما لا يجمل ولا يحسن؛ بسبب استلامهم واستسلامهم واستلابهم لهذا الفكر، ولذلك القدرة على ضبط المعيار، عملية حقيقة ليست بالأمر الهين، المقصود أن مالك بن نبي مفكر عظيم، وأنا أنصح بقراءة كتبه، وهو رائد من رواد النهضة، وقد قرأت معظم ما كتبه مالك بن نبي، فمرة من المرات شباب معجبون بسيد قطب، وأتى لهم شخص بكلام مالك بن نبي، ونسبه إلى سيد قطب وقال اسمعوا الكلام الذي يقوله سيد قطب وأنه ليس بعالم ولا مفكر، ثم قرأ هذا الكلام وهو لمالك بن نبي، فطفقوا يؤيدون هذا الكلام ويحملونه على وجوه أنه صحيح لكن أنت فهمك غير صحيح، ومن الغد جاء لهم بكلام لسيد قطب ونسبه لمالك بن نبي، وقال لهم اسمعوا ماذا يقول مالك بن نبي، وبالمناسبة مالك بن نبي زار السعودية وألقى محاضرة بجامعة الملك سعود، فأذكر هذا الاسم في ذلك الوقت

وتعلمت كيف ينطق الاسم، فبدؤوا يسفهون هذا الكلام ويفندونه وأنه غير صحيح، ويأتون عليه بالأدلة، فبعد أن انتهوا قال لهم الكلام الذي قبلتموه هو لمالك بن نبي، والكلام الذي رددتموه هو لسيد قطب، فأسقط في أيديهم، وأنا أقول إنه من الخطأ أن نربي في أبنائنا وفي جيلنا وفي شبابنا على أنهم يسلمون لأشخاص، صحيح أن هناك قيادات فكرية، أنا أقول إن ابن تيمية قيادة فكرية، وقيادة فكرية فذة، ولكن أيضًا من الخطأ أن تأخذ ابن تيمية بطريقة انتقائية، يمكن أن بعض الناس يعظم ابن تيمية كاسم، ولا يقرأ ابن تيمية بشكل جيد، فلو قلت له ابن تيمية يقول كذا وكذا، صدق، دون أن يتأكد، ولو قيل له إن ابن تيمية ينفي كذا، مع إنه قد يوجد لابن تيمية أكثر من قول في المسألة الواحدة، وقد يرد ابن تيمية على ابن تيمية، وهذا شيء أنا وجدته، وقد سئل ابن تيمية في مسألة في الفتاوى عن مسألة البيوع، فقال هذا باطل بالاتفاق ويجب رده، ثم ابن تيميه نفسه في تفسير آيات أشكلت، تكلم عن هذه المسألة بعينها، وكتب فيها ١٥٠ صفحة، وقال إن هذا القول صحيح، ولا يتصور إلا هو، هكذا الإنسان بشر، فهنا أنا أقول إن ابن تيمية يعد قيادة فكرية، ويمكن جدًا أن نستفيد من الإنجازات التي أحدثها أو عملها، لكن تجد من شبابنا اليوم من يأخذون عن ابن تيمية قضية التترس في العمليات التخريبية التي تقوم في العالم الإسلامي، أو بعض مضايق التكفير، دون أن يكونوا أتقنوا قراءة ابن تيمية، ولا فهموا مراده، ولا جمعوا نصوصه، فهذا أيضًا مما يضار به العالم، ويساء به إلى ثقافته وعلمه.

سألني أحد الأبناء الشباب، عن موقفه تجاه الكتاب، الذي يحبه ويقتنيه ثم يتصفحه ثم يرميه بعد ذلك أو يركنه، طبعًا هذا في حد ذاته شيء إيجابي؛ لأن الإنسان يرغب في اقتناء الكتاب، ولأننا بحاجة أيضًا لأن نسوّق الكتاب ونجعل للكتاب قيمة، ففي عالمنا العربي الآن، وعندنا هنا في المملكة انظر كيف تنتشر الأسواق (المولات) كل يوم تسمع أن سوقًا جديدًا يفتتح، لكن تجد بضاعة الكتب، وطباعة الكتب، تجدها قصة مختلفة تمامًا، والكاتب قد يتعب في كتابه، وقد يستحق الكتاب فعلاً الاهتمام ثم لا يجد من يرفع به رأسًا، ولا من يطبعه له، وإذا طبعه لا

يدري كيف يسوقه، أو يوزعه، وهناك حالات كثيرة جدًا من هذا القبيل، لكن هناك كتاب مشهورون هؤلاء أصبح الناس يبحثون عن كتبهم، وهؤلاء يعدون على الأصابع، بينما تشجيع فكرة القراءة، وتشجيع فكرة التأليف والكتابة، هذا غير موجود، وقد كتبت كلمة أثناء تعليق بعض الإخوة، وهو الدكتور مازن، قلت أنا أشك أننا جادون، هذا من باب المصارحة مع الذات، نحن كشعوب عربية وإسلامية نتكلم عن القراءة، وهناك محاولات جميلة، ولكن أشك فعلاً أننا جادون في عملية تحويل القراءة إلى عادة، ونتحول فعلاً إلى شعوب قارئة ومتعاملة بشكل إيجابي وجيد مع الكتاب، ولذلك شراء الكتاب شيء إيجابي، والكتاب تورثه لأبنائك من بعدك، ومجرد تصفح الكتاب ربما استفدت منه، لكن على الإنسان أن يكون لديه نشاط قرائي، سواء لهذا الكتاب أو لغيره من الكتب.

قد يسألني سائل: ماذا تقرأ الآن، وأقول بصراحة إنني لم أعد أقرأ أي كتاب، ليس هناك من وقت، القراءة عندي إذا كنت أعد مادة، وهذه زاد بالنسبة لي، إذا كان عندي برنامج أو محاضرة أو موضوع أقرأ ولله الحمد بامتياز، يمكن خمس ساعات، ولو جلست إلى الساعة الواحدة ليلاً، عندي مجموعة ملفات لا تطيب نفسي أن أتركها، لأنني أعرف أنني ربما لا أعود إليها فيما بقي من عمري، ولذلك أقول أنجز قراءتها الآن وآخذ الفائدة الموجودة فيها، ولهذا أشعر أنني أكبر وأتجدد كلما قرأت مثل هذه الأشياء، ولا تتجدد ثقافتي ومعلومات فقط، وإنما حتى حماستي وحيويتي تتجدد مع القراءة، وهذه فائدة ونافذة مهمة جدًا، وهذا لون، اللون الآخر بعض الكتب الجديدة التي يصبح لها دوي، فقد يعطيني أحد كتابًا ويقول إن هذا الكتاب مفيد، أو متميز، أو هذا الكتاب مترجم، أو أجد من خلال مقدمة هذا الكتاب أنه يستحق أن يقرأ، وأن فيه أشياء نفيسة أو ثمينة، علمًا أننا خلال برامجنا في الغالب نحرص كما في برنامج "حجر الزاوية" في رمضان، أنه في كل حلقة نقدم كتابًا أو كتابين يتعلقان بالموضوع، وبالمناسبة أذكر في إحدى الحلقات ربما في القراءة أو غيرها ذكرت كتابين، وهذا جواب على الإخوة الذين يسألون ماذا يقرؤون؟، يمكنهم أن

يقرؤوا الكثير، لكن الدكتور حمد المرزوقي، قرأت له قديمًا أوراقًا وطنية، وبعض الكتب التي تدل على نوع من التشكك، ثم وجدت أنه أصدر أخيرًا كتابين جميلين أحدهما في البرهان والقرآن، وفيه حديث عن القرآن وعن تاريخ الأمة، عن الإسلام، وعن القيم الإسلامية، وجدت أن لديه شجاعة كبيرة أن يعترف في مقدمة هذه الكتب أنه كان لديه شك، وأنه كان متأثرًا بالمذهب الديكارتي، وأنه وصل إلى النهاية، وأنه وجد قراره ومستقره في القرآن الكريم، وأنا أقول: إن هذه الكتب من الجميل أن تقرأ وأن يستفاد منها، وأتمنى أن يلقى الضوء عليها من بعض الكتاب كتجربة متميزة، وتشجعنا أيضًا على أن نعود مجتمعنا، أن نغير بعض الأشياء ولا نستحي من أنه معروف بكذا أو كذا، وكلكم قرأتم في جريدة الوطن قبل أسبوع كلام الدكتور عبدالله الغذامي، وهو أحد الشخصيات الفكرية التي سبقتني إلى هذا المنصة ضمن تجاربهم في القراءة، فقال في مداخلته وفي مقابلته أنه يمد يده إلى الإسلاميين حتى لو احتاج الأمر إلى أن يحرق كتبه، أنا أعتقد أنه ليس بعيدًا عنهم أصلاً..

أما مسألة الكتب والأفكار والنظريات، فلا شك أن التطوير والتجديد والإبداع فيها هو أحد الأشياء الجديدة التي يحسن أن ندرب مجتمعنا عليها، سواءً في الجانب الاجتماعي، أو السياسي، أو الثقافي، وأن يتعود الناس أن هذا ليس نقصًا، نحن نقرأ عن علمائنا في قضية لا أعلم، وقضية الله أعلم، وقضية أن الإنسان قد يقول الشيء ثم يعود عنه، وأن هذا ليس عيبًا، العيب هو أن يصر الإنسان على الخطأ، أو أن يتشكك الإنسان في القيم، وأنا هنا أقول: إن أحد الأخطاء التي نقع فيها أننا أحيانًا يقع عندنا لبس في مسألة التدين، بمعنى أننا نأخذ الدين جملة دون أن نفكر أن هناك أصولاً وقيماً ثابتة راسخة لكل عصر ومصر وجيل ومذهب، وهناك أشياء فرعية اجتهادية قد يختلف الناس عليها، حتى أنك قد تجد من شبابنا من قد يكون معيار الولاء والبراء عنده والحب والبغض والتقييم هي في الفروع وليس في الأصول، فهو لا يحمد أحدًا على ثباته في الأصول، وعلى دعوته إليها وعلى حفاظه عليها، ولكنه قد يذمه على فرعيات أو جزئيات من شأن الناس أن يختلفوا عليها، وربما وجد هذا في الأجيال السابقة.

في مسألة طقوس القراءة ومتى أقرأ؛ ليس للقراءة وقت محدد ففي أي وقت تستطيع أن تقرأ، ولكن القراءة في الليل في الغالب تكون أفضل، والجو أهدأ، ولكنني أقرأ أحيانًا في وقت الصخب، فقد يكون حولي مجموعة من الأطفال يحدثون ضجيجًا كما يصوره الشاعر عمر بهاء الدين الأميري:

فيما سكبوا من الماء، وما خربوا   من الأثاث، وصياحهم وعبثهم بالأبواب!

فقد تعودت والحمد لله على أن أصنع لنفسي نوافذ وأقرأ حتى في الأجواء الصاخبة، هذا يمكن أن يعود عليه الإنسان، بحيث يركز على ما يقرأ ولا يلتفت إلى ما حوله، لأنه أصلاً إذا كان لديك وسواس أن هذه الأصوات تزعجني، تكبر القصة، ولكنك يمكنك أن تصغرها إلى أن تنساها، فكون الإنسان يقرأ في أي ظرف، وأنا أوصي أن يقرأ الإنسان حتى في أوقات الانتظار في السفر، والقراءة لا تتعارض إذا كان الإنسان يشغل وقته بذكر الله عز وجل، فإذا كنت بالطائرة فلديك نصف ساعة ما بين إقلاع الطائرة وتقديم بعض المشروبات أو شيء من هذا القبيل، فكون الإنسان يندمج وينهمك في التسبيح أو ذكر الله سبحانه وتعالى، وقراءة الورد، وقراءة آيات من القرآن الكريم يتحصن بها الإنسان، فالإنسان لو طار أو وصل القمر، أو المريخ، أو كبر، أو أصبح ملياردیرًا، أو شهيرًا، أو كبيرًا، أو أميرًا، فبعيدًا عن الله الحياة كلها بؤس، فعلى الإنسان أن يحافظ على هذا المعنى، وأن يدرك أن يظل عاميًا بسيطًا، بعيدًا عن المعرفة قريبًا من الله، أفضل من أن تتفتح له أبواب ويكون بعيدًا عن الله عز وجل، فالإنسان عليه أن يجعل هذا عادة، وأنا حقيقة هنا أبدي قلقي على الجيل الناشئ، وأقولها لأولادي، أقول نحن لما كنا صغارًا، آباؤنا علمونا المحافظة على الصلوات الخمس، والتبكير إلى المساجد، وقراءة القرآن، والنوم مبكرًا، والأكل مع الأسرة، وكان هناك انضباط عليها خلال سنوات طويلة جدًا، ولما كبرنا مع تغير الحياة، ربما الإنسان أصبح لا يستطيع أن ينضبط كما كان في أيام الطفولة في مثل هذه الأمور، فما بالك بالصغار الذين ضاعوا الآن ما بين التلفزيون والإنترنت، والإكسبكس(x -Box)، والسوني (Playstation)، والجيم بوي (Game Boy)، وألوان الألعاب الإلكترونية، والعلاقات والسهر، وغير ذلك، فإذا كبر هؤلاء وهم لم يتلقوا في صغرهم هذه القيم،

أخشى أن يكون هناك تأثر كبير لهذا الجيل، إذا لم يتفطن المربون والآباء لهذا المعنى!!

بالنسبة لتأثري بالشيخ صالح البليهي(١)، رحمه الله، فقد درّسنا في المرحلة المتوسطة، وكان شخصًا يتميز بدماثة الأخلاق وفهمه للشباب، وهو صاحب طرفة ونكتة، وأكثر من مرة أقول للشباب أنه كان يقول نكتب أنا لا أستطيع أن أقولها لكم أو لأولادي، فأتعجب كيف الشيخ كان يقولها، أو يضحك بعفوية، وكان قريبًا من الشباب، وكان صبورًا معهم، وحليم، وكذلك كان يقدم لهم المعلومات، فقد درس لنا الفقه، وأذكر، على سبيل المثال ونحن صغار، كيف كان يحفظنا بعض الأبيات الشعرية التي تجمع المعرفة، وأذكر عندما كان يشرح لنا موضوع المواقيت، نقل عن الفقهاء أنهم كانوا يقولون:

عرق العراق، لملم اليمن
من ذي الحليفة يحرم المدني

الشام جحفة إن مررت بها
ولأهل نجد ذي القرن تستبن

وكذلك مجال الصيام، فطور التمر سنة، كأنني أسمع صوته يتغنى به، يقول رحمه الله:

فطور التمر سنة
رسول الله سنه

ينال الأجر عبد
يحلي منه سنه

فكان يربطنا بالكتاب، الشيخ البليهي رحمه لله ألف كتاب السلسبيل في معرفة

---

(١) هو العالم الجليل، صالح بن إبراهيم البليهي. ولد رحمه الله سنة ١٣٣١هـ في "الشماسية"، ثم انتقل إلى بريدة مع أسرته وقرأ القرآن، واشتغل مع والده في التجارة ثم الزراعة. وتفرغ لطلب العلم. وعرض عليه القضاء لكنه اعتذر. وفي عام ١٣٧٣هـ عيّن مدرساً في المعهد العلمي ببريدة، وفي عام ١٣٨٤هـ عيّن إماماً في مسجد الوزان، وأخذ يدرس العلوم الشرعية لطلاب العلم، وكان له مكتبة كبيرة تضم أمهات الكتب، فيقضي فيها كثيراً من وقته في البحث والتأليف والمطالعة. وطلب إليه أن يكون محاضراً في كلية الشريعة بالقصيم فوافق على ذلك، واستفاد منه الطلاب؛ ثم أحيل للتقاعد فتفرغ للدعوة، ومن أجلّ أعماله إنشاء الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، وجمعية البر التي من أهم أهدافها رفع المستوى الاجتماعي والصحي والثقافي ببريدة وضواحيها. توفي رحمه الله عام ١٤١٠هـ.

الدليل في ثلاثة أجزاء، ذكر أدلة الفقه الحنبلي، وكان هذا أفضل كتابًا للشيخ، وكان له تأثير كبير على اطلاعنا، وعلى ثقافتنا، وعلى عنايتنا بالدليل، لأن كتاب "زاد المستقنع" والذي هو المقرر الأصلي في منهج الفقه، كتاب ألف في عصر الضعف اللغوي، لذلك فالكتاب لا يخلو من ركاكة في أسلوبه، مع تعقيد في عبارته، مع كثافة في المادة الفقهية، ولذلك الفقهاء يختارونه للحفظ لكثرة مسائله، ولكنهم يغفلون عن أنه قد يؤثر على نفسية الطالب، بينما كتاب العمدة في الفقه أفضل منه، وإن كان أقل مسائل وأقدم وأعرق، ويعتني بالدليل من القرآن والسنة، وأفضل للطالب، وأبعد عن التعقيد، فالشيخ البليهي رحمه الله في كتاب السلسبيل بحث المسائل وذكر أدلتها، وكثيرًا ما كان يرجح اختيارات ابن تيمية رحمه الله أو ابن القيم في عدد من المسائل.

قضية الرقابة على الكتاب وعدم السماح له بدخول المكتبات المدرسية ، فعلاً هذا شيء مؤلم، هذا يجعلنا نشك أننا فعلاً جادون، وكلامها صحيح، وأنا أعرف أن عددًا من المكتبات إذا أرسلت لهم إهداءات من الكتب يعتذرون عن قبولها، بحجة أن هذه الكتب يجب أن تأتي عن طريق رسمي، هذه كتب مطبوعة في المملكة، وكتب توزع في أماكن كثيرة، فلماذا تمنع هذه الكتب من المدارس؟ المدرسة التي هي محضن المعرفة والتعليم يمنع فيها الكتاب إلا أن يأخذ مجرى رسميًا، وعادة لا يوجد نشاط في هذا الخصوص، والمحصلة النهائية، أنه لا يوجد نشاط في المكتبات، فلن تجد أن المدرسة تعطي للطالبة كتابًا كهدية مقابل تفوقها في شيء، والمديرة تستطيع أن تسند عملية الموافقة على الكتاب إلى الوكيلة أو إلى إحدى المسؤولات المتخصصات، أي نضع آلية، وقد يقول بعضهم إن هذا قد يترتب عليه مجيء كتب غير مناسبة، ضعوا آلية وسيروا بها، أما إغلاق الباب نهائيًا فهذا شيء مؤلم، وأنا من هنا أناشد وزارة التربية والتعليم، ووزيرها الأمير الشاب الطموح، أن يبادروا بمعالجة مثل هذه الأمور.

مسألة إيجاد الحوافز، أنا أعتقد أن الحوافز مهمة جدًا في مسألة الكتاب، وقد اقتبست من مداخلة الدكتور مازن قضية سيارات الأجرة، هل أحدنا ركب مرة سيارة أجرة ووجد فيها كتابًا، فيمكنك أن تقرأ كتابًا أو أكثر، لا يوجد هذا إطلاقًا، مع إن هذه دعاية للكتاب، وقد يكون الكتاب به معلومات مفيدة، ويمكن الاستعانة بالكتابة

كتسلية وقضاء الوقت النافع، أيضًا قضية دع الناس يقرؤوا حتى ولو كان كتابًا هشًا، أنا لا أمانع في ذلك، ولكنني أردت في إجابتي السابقة أن أقول: إن هناك ممنوعات بأي مجتمع، مثلاً أكثر المجتمعات العربية حرية هو المجتمع اللبناني، ومع ذلك يوجد في السعودية كتاب اسمه "شفرة دافنشي" ممنوع من التداول في لبنان، وهذا لاعتبارات تشكيكه في بعض القيم المسيحية، فلا شك أن القراءة مفيدة، ولكن أن يوجه الإنسان إلى الأكثر فائدة، والفائدة هنا مراعى فيها مستواه وحتى رغبته واختياره، أعتقد أنه يمكن التوفيق بين هذا وذاك.

أما مسألة التأثير للقراءة أم للشيوخ؟ أقول إن الشيوخ هم أكثر تأثيرًا عليّ في الصغر، سواءً في المسجد قبل أن نذهب إلى المعهد العلمي، أم في المعهد العلمي، ثم أنا لا أخفي أنني تربيت على يد مجموعة من الإخوة والشباب الذين كان لديهم اهتمام بالثقافة الإسلامية، وكان هناك مكتبة للبيع فيها أحدث الكتب الإسلامية اشتريت منها كمًا هائلاً جدًا من الكتب، وكنت أشارك معها في نشاطها، وعلى يد هؤلاء الإخوة تعلمت الشعر، ومن الصدف الغريبة، ولا بأس أن أكررها، أنه كان لدي محاضرة في مدينة بريدة قبل ستة شهور عنوانها "رجال عرفتهم" ذكرت فيها قصيدة جرت بيني وبين أحد الأصدقاء الذين يكبرونني سنًا، وأنا وقتها كنت في الثانية المتوسط، وهو كان في كلية اللغة العربية في الرياض، أرسل لي قصيدة بعد أن أعطيته عددًا من محاولاتي الشعرية البسيطة، يقول لي:

يا بلبل الروض غرد في مسامعنا
وهات من لحنك الصافي نردده

على مسامع دنيانا فنعلمها
أن للحق أبطالاً تؤيده

نشدو مع الطير في شوق وفي أمل
ونرقب الفجر عبر الأفق موعده

فالليل مهما عتا في ربعنا زمنًا
النور من بعده يأتي فيطرده

والغي مهما علت في الأرض رايته
الحق يكسر طغواه ويخمده

هذه المشاعر أحكيها بلا وجل
وكيف يخشى الورى من ربي يسنده

فغني في الجيل واهتف في مسامعهم
وأودع الشعر للأيام تنشده

ولطالما هز منك الشعر أفئدة منا
فزدنا بشعر منك مورده

فلما قرأت هذه القصيدة شعرت أن الدموع تبلل عيني، وتفاعلت مع هذه القصيدة، وكتبت إليه، ولم يكن في ذلك الوقت بريد إلكتروني، ولا بريد عادي، متى يأتي شخص ترسل معه هذه الأبيات، قلت له:

البلبل النقد قد أوهته ما اجترحت
يد القضاء فلا الأعداء تحسده

فانهد مما يرود القلب من ألم
يشي به الجسم والأوصال تشهده

فلم يعد يعشق التغريد من كمد
كفاه هم الحنايا إذ يكابده

وكيف يعزف لحن الجيل مبتكرًا
معذب ذاك محض الوهم مورده

يا صاح أبكيت قلبي فاعتريت ضنا
لكن لحنك قد أضحى يهدهده

رددت لحنك صبا مدنفًا كنفا
لكن لحني نشاز من يردده

فوجدت من الصدف أنه كان موجوداً في المحاضرة وتفاعل معي، وكنت لم أره منذ فترة طويلة، وأرسل لي أبياتاً من الشعر، ولكن بالجوال هذه المرة.

هذا فيما يتعلق بتلك الفترة، وأنا قد كتبت عنها في مذكراتي بإيجابياتها وسلبياتها، فأنا أؤمن بالشفافية والوضوح، وأن نقدم تجاربنا بخيرها وشرها، وحلوها ومرها لمن بعدنا لكي يستفيدوا منها وينتقدوها أيضًا، أما بعد ذلك فالواقع أنني أصبحت أستفيد ليس من شيوخي، ولكن أستفيد من أعدائي، لدي كتاب قمت بتصحيحه هذا الأسبوع، عنوانه "شكرًا أيها الأعداء" وأنا أعني هذه الكلمة، وهم ليسوا أعدائي، وإن كان بعضهم يقدم نفسه كذلك، والحقيقة هم أصدقاء شاءوا أم أبوا، وما بيننا من الروابط والعلاقات والمشتركات، أكثر بكثير مما هو بيننا من ألوان التباعد والاختلاف، ولكن من طبع الإنسان أن يركز على جانب الاختلاف، قد تجد سيارتين متصادمتين، فيتجمهر الناس حولهما، ولكن آلاف السيارات التي تسير بطريقة صحيحة الناس لا يتوقفون عندها، هكذا المشترك بيننا ضخم وهائل جداً، وينبغي أن نعتني به، ولذلك أقول يعلم الله أنني صادق فيما أقول وأعنيه فعلاً، أنني استفدت من خصومي كثيراً، وتجرعت أشياء وجدت عاقبتها، استفدت منهم كيف أتقبل النقد، ولا أتضايق أو أنزعج منه، استفدت منهم التوازن؛ لأنه ربما ينتقدك إنسان، ويكون مفرطًا ويحتاج إلى تعديل، ولكن أنت أيضًا تحتاج إلى تعديل، فمن خلال ذلك ومع الوقت الإنسان يحاول أن يصل إلى نقطة التوازن، وهذه النقطة موجودة في "اهدنا الصراط المستقيم" فأنت حينما ترددها معنى ذلك أن المستوى الذي وصلت إليه هناك ما هو أعلى منه، وإلا ما كان الإنسان يدعو باستمرار حتى يموت، إذن هناك أفضل مما أنت عليه، هناك نقطة توازن، ونقطة انضباط، ونقطة هداية، أفضل مما أنت عليه، وقد تكون القصة غلوًا، والحمد لله نحن ليس لدينا غلو، ولم يكن لدينا غلو في يوم من الأيام، ولكن لا يمنع أن مسألة الموازنات أيًا كانت بحاجة إلى ضبط، ما يمنع أن مسألة الأولويات أيضًا كانت بحاجة إلى ضبط، ما يمنع أن يستفيد الإنسان من تجارب الآخرين، وأن يعطي كل ذي حق حقه، هذه أشياء قد لا تستفيدها من الناس الذين يصدقونك في كل ما تفعل وتقول، وإنما تستفيدها من أعدائك أو خصومك الذين يفترضون هكذا، أو يقدمون أنفسهم هكذا، ولكن

الحقيقة أنهم أصدقاء، وأصدقاء حقيقيون، حتى اليوم - سبحان الله - وأنا في الطريق إليكم، كتبت عنوان مقال "الموت لأعدائي" وقد قصدت به، وكما ذكرت لكم مسألة خداع العناوين، قصدت هذا المعنى، وجاء على خاطري هذا المثال، لأنه قد يقرأ قارئ عنوان "الموت لأعدائي" فيتخيل أن الإنسان يدعو بالموت، وأنا أردت أن أسوق، أنه بالعكس هذا خطأ ينم عن ضيق الإنسان، وإلا فالله سبحانه وتعالى جعل الدنيا تسع البشر كلهم جميعًا، ولما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر** ﴾، قال الله تعالى ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾(١)، وأيضًا أحد الخلفاء لما قيل له: "ما هي أشد الأشياء متعة عندك" قال: "أن تعيش حتى ترى مصارع أعدائك"!

أنا لا أؤمن بهذا المبدأ إطلاقًا، حتى أولئك الناس الذين قد تعتقد أنت أنهم يعوقون المسيرة، لله تعالى حكمه في وجودهم، وأن من الخطأ أن الإنسان يستعجل قدر الله، وإلا قد يستعجل قدر الله فيك من خلال آخرين، يعتقدون أنك تعوق، وقد يفرحون بالساعة التي يخبرون فيها بقدر الله فيك، وسبحان الله.

عندما كنا في "الحائر" صادف أن انتقل أحد الشيوخ الفضلاء الذين كان لهم اجتهاد مخالف، نرجو إلى رحمة الله وفضله، وقد اتصل بي أحد الشباب بطريقته الخاصة يبشرني بهذا، فقلت له: هذا لا يُسوَّغ ولا يليق، أتدري أن هناك قلبًا مؤمنًا بالله قد توقف، وأن جبهة ساجدة لله تعالى قد توقفت عن السجود! وهناك مجرى للخير قد انقطع، وليكن ما يكون، كون هذا الإنسان اختلف معي أو معك، مثل ما أخطأ مرة أبو القاسم الشابي، وقد ذكرت إيجابياته قبل قليل، ولكنه أيضًا أخطأ حينما يقول في قصيدة "النبي المجهول":

أيها الشعب ليتني كنت حطابًا فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت تهد القبور رمساً برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي كل ما يخنق الزهر بنحس

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٦ .

فهو يصفي كل ما لا يعجبه، من رحمة الله سبحانه وتعالى، أنه لم يجعل هذا لي ولا لك، وإلا صارت الأمور صعبة جدًا، أنا أقول الإنسان يستفيد من خصومه، ولا أقول: إنهم أعداء، يستفيد من البعيد، يستفيد من القراءة والاطلاع والتجارب أكثر مما قد يستفيد من التلقين من الشيوخ!

أما مسألة كتاب تمنيت أن أؤلفه، فأقول الحمد لله، لدي مجموعة كبيرة جدًا من الكتب تأخذ الدور عليها، وأصبحت خلال السنوات الأخيرة، أدقق فيما أريد أن أطرحه بالسوق، لا أعني أن الكتب التي سأطبعها ستكون كتبًا نوعية أو متميزة؟! لا! لكن على الأقل أن يكون الأسلوب مناسبًا، أن تكون المعلومات جيدة، ألا يكون هناك أخطاء مطبعية، أو أخطاء أسلوبية، أو ما أشبه ذلك؛ لأن في فترة من الفترات ربما كان يتم تفريغ بعض المواد الإلقائية وطباعتها، فالشيء المسموع يختلف عن الشيء المطبوع، ثقافة الكتابة، الكتاب مزيته ومحتواه، وتجد أن هناك كتبًا عبر التاريخ أثبتت خلودها، وهذا سر مقاومة الكتاب لمنافسته، طبعًا الله تعالى أنزل كتبًا على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وهذا له معنى، وحتى على صعيد الفعل البشري كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، "ورأس المال" أو "أصل الأنواع" كتب أحدثت دويًا هائلاً، بغض النظر عن خطئها أو صوابها، مما يدل على أن الكتاب فعلاً له رسوخ وله تأثير هائل، ولذلك ينبغي أن يعتنى بالكتاب، طبعًا عندي كتب، ومن الكتب التي في الجعبة "شكرًا أيها الأعداء"، وأنا قد عُنيت به، وكله مكتوب بخط يدي، أيضًا عندي كتاب في السيرة الذاتية، كتب حوالي (٦٠) حلقة، وكلها مكتوبة، ليس فقط بخط يدي، ولكنني أحيانًا أكتب الحلقة مرتين أو ثلاث مرات، فأكتبها اليوم وأنا غير راض عنها، ثم أعيد كتابتها بالقلم مرة أخرى، وقد وجدت أن بعض الناس لا يحب أن يكتب بالقلم، ولكن بالعكس إذا أمسكت بالقلم أشعر أن الأفكار تتداعى عندي أكثر، ولذلك أعيد الكتاب بالقلم، ولهذا تجد المقالة أصلين أو ثلاثة أصول أحيانًا، وبعد الطباعة أراجعها، لا أصحح، لكن لأضيف، ولذلك أنا أعد كتابًا أسميته "طفولة قلب" هو سيرة ذاتية، ولكن حاولت أن أضمّنه كثيرًا من

التجارب والأفكار، ولذلك كثير من الإخوة الذين يتابعون هذه الحلقات، قد يكون جلوسهم معنا الليلة تحصيل حاصل؛ لأنه لا جديد فيما قلته سوى مقتطفات يسيرة وغير مرتبة من هذه السيرة، أما الكتاب الذي أراه وأتمنى أن يكون لي، فهذا كثير، فعندما أرى كتابًا عميقًا وفيه جهد ضخم، وربما أمضى صاحبه عشرين سنة يؤلف فيه، وربما يكون نحو ٣٠٠ إلى ٤٠٠ صفحة، هذا جهد يستحق أن يقف الإنسان عنده ويكبره، أو يكون الكتاب عظيمًا بمحتواه.. !

من الكتب التي ينطبق عليها هذا الكلام، كتاب "التحرير والتنوير"(١) للطاهر بن عاشور، وهو تفسير للقرآن العظيم، وهذا الكتاب قد قرأته، وأقرأه باستمرار، وإذا كان عندي برامج في تفسير القرآن الكريم، لابد أن يكون هو أحد أهم المراجع التي أعتمد عليها، فوجدت أن هذا الإمام "الطاهر بن عاشور" وهو معاصر، ولكن لم ندركه، وهو من المؤلفين الذين أتمنى أن أكون لقيتهم، فهذا عالم في الحديث، عالم في التفسير، عالم بالفقه، عالم باللغة، عالم بالبلاغة، عالم بالأنساب، في الواقع أنه رجل موسوعي، ولذلك أنا أعد كتابه في التفسير والذي هو "التحرير والتنوير" يعد من أفضل كتب التفسير فائدة، جمع ما بين المعقول والمنقول، والاستفادة من منجزات ومعطيات العصر الحاضر، وكذلك ما يتعلق بالشيخ الألباني(٢)، وأنا متواصل معه، وقد قرأت معظم كتبه، وقد استفدت منه، وكان بيني وبينه تواصل بالاتصال الهاتفي، وبيني وبينه مراسلة طويلة، والرجل جزاه الله خيرًا، أثنى عليّ، لأن بعض الشباب الله يحفظهم، مرة من المرات سمعوا الشيخ يثني فلم يرقهم ذلك، فذهبوا إليه وقالوا له: هذا فيه كذا وكذا وكذا، وقد بلغني ذلك، كتبت للشيخ خطابًا

---

(١) اسمه: "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد" ويعد في الجملة تفسيرًا بلاغيًا بيانًا لغويًا عقلانيًا، لايغفل المأثور ويهتم بالقراءات. وطريقة مؤلفه فيه أن يذكر مقطعًا من السورة ثم يشرع في تفسيره مبتدئاً بذكر المناسبة ثم لغويات المقطع ثم التفسير الإجمالي ويتعرض فيه للقراءات والفقهيات وغيرها. وهو يقدم عرضاً تفصيلياً لما في السورة ويتحدث عن ارتباط آياتها.

(٢) العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أحد أبرز العلماء المسلمين في العصر الحديث، ويعد من علماء الحديث البارزين المتفردين في علم الجرح والتعديل، و الحُجة في مصطلح الحديث، قال عنه العلماء المحدثون: إنه أعاد عصر ابن حجر العسقلاني والحافظ ابن كثير وغيرهم من علماء الجرح والتعديل.

مازلت أذكره، وقلت له أنا مستفيد من كتبك، ومنتفع من مدرستك، ومع ذلك أنا أحب الاستفادة، وأحب الوصول إلى مستوى أفضل من الخير والصواب، وهذه كتبي أرسلت بها إليك لو تجد وقتًا لتقرأها أن تستدرك وأن تصحح، فأنا سأفرح بذلك، وسوف أذكره، وأنسب الفضل فيه لصاحبه، فسبحان الله جعل الله تعالى في هذه الرسالة البركة، بعد ذلك أصبح الشيخ كلما قال له أحد عني إن هذا كذا وكذا، قال له: أبدًا، هذا معنا على الخط! هذا قال لنا كذا، هذا راسلنا، وكنت أعني ما أقول حقيقة، فعلاً كنت أريد أن أنتفع به، وفعلاً صار له تعليقات على بعض المواضع، في كتاب سلسلة الأحاديث الصحيحة، يذكر تعليقات في كتبي، وقد يستدرك عليه إذا كان يتعلق بحديث، وفي ذلك الوقت مسألة أثيرت، لأنني كتبت كتاب مسألة الفرقة الناجية، والفرقة المنصورة، وكنت أقول في ذلك الوقت - وقد ألفت فيه كتابًا - أن هذه دوائر، دائرة لعامة المسلمين، ودائرة للفرقة الناجية تشمل كل من هم ناجون من المسلمين الذين هم على الاستقامة، ولو لم يكونوا معروفين بعلم أو دعوة أو غير ذلك، وهناك الطائفة المنصورة الذين هم أهل العلم، وأهل الدعوة، وأهل البلاغ، الذين لهم نوع من القيادة في هذه الأمور، فأحدث هذا نوعاً من الدوي، وردوداً من بعض الشيوخ، والشيخ علق على هذا، قال: " أنا أرى أن اجتهاده ليس ببعيد من الصواب بل هو الحق، وإن كنت لست متحمسًا لإثارة مثل هذه المسألة وطرحها " رحمة الله عليه وعلى أموات المسلمين جميعًا.

القراءة.. نزهة في عقل الكون!⁽¹⁾

أ. أميمة بنت عبدالله الخميس

روائية وكاتبة سعودية

قبل أن أبدأ أود أن أمرر باقة شكر لجميع القائمين على المشروع الثقافي الوطني لتجديد الصلة بالكتاب، فهو في الحقيقة مشروع ينهض بمسؤولية كبيرة تتعلق بصياغة وعي جمعي يهتم بالكتاب، كون الكتاب يظل الوعاء المعرفي الأهم عبر التاريخ ، وفي الوقت نفسه يواجه هذا المشروع الكثير من التحديات التي تتربص بالقراءة وتمنع ترسيخها كعادة وأسلوب حياة ومتعة ليس لها قاع، ومن أبرز هذه التحديات (ثقافة الصورة) حيث الشاشة الجذابة الأخاذة، التي تدير الرؤوس وتخطف الأبصار وتقطف المهج.

لنجد أنفسنا كمجتمع نأسى على مشهد أرفف من الكتب المهملة وحالة عزوف جمعي عن القراءة.

فشكراً لهم جميعًا على هذه الهمة الرائدة والساعية إلى النهوض بمسؤوليات جسام تتعلق بتكوين أجيال ذات صلة وطيدة بالكتاب، كما أود أن أشكرهم على ثقتهم بتجربتي القرائية، حينما أحسنوا الظن بها، وفي إمكانيتها على أن تضيف وعيًا للحضور والمستمعين؟!

الأسبوع الماضي كنت في مطار الملك خالد الدولي، وبجانب منفذ الطائرة رأيت مشهداً يغادر أرض الحلم ويتجلى واقعاً، أرفف عليها مجموعة من الكتب المدهشة، (ضمن المشروع الثقافي الوطني لتجديد الصلة بالكتاب)، تحت مسمى "سافر مع

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء الثلاثاء ٢٩ ذو القعدة ١٤٣٠هـ، الموافق ١٧ نوفمبر ٢٠٠٩م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

القـراءة" ابتهـجت به فعـلاً فهـو حلم دنا فتدلَّى، ورأينا الكتب بين الأيدي يتناقلها الجمع، كجزء للمشروع الأكبر من المكتبة.

في الحقيقة الليلة احترت كيف أتساقى معكم بعض مما تشربته وخالط وعيي ووجداني وعقلي عبر أعوام طويلة، هل نختصر الموضوع ونتبادل قوائم الكتب والفهارس؟ أم نمر على العناوين مروراً سريعًا؟ أم نغفل الأطراف والهوامش ونبقى على التيار و التوجه الرئيس لقراءتي وميولي؟

بعد هذه المداولات بيني وبين نفسي؛ قررت أن أقف وأستوقف، واستثمر مساحة المنبر التي منحتموني للوقوف عند بعض الكتب التي مثلت نقلة أو منعطفاً في قراءتي، أو ربما سلسلة أجد أنها عبثت بالبوصلة الداخلية وآشارت باتجاه أرض الدهشة والفضول، محاولة قدر المستطاع الالتزام بالتسلسل الزمني للتجربة، الأمر الذي من شأنه أن يضع التجربة داخل سياقها الزمني، ويبرز أثر كل كتاب على المراحل العمرية المختلفة، أرجو أن يكون فيما أقدمه الممتع وبعض من المفيد.

البيئة المستحثة:

- هل أعود عميقاً إلى البئر الأولى؟

- المنزل الذي نشأت فيه عندما كانت الكتب تشغل الحيز والفضاء حولي، وحينما كان الكتاب كائناً منزلياً أليفاً يشاركنا جميع ردهات المنزل، أما الصحف اليومية فكان يتأبطها الوالد وهو يلج المنزل من العمل بحنو وحرص، فأشعر من خلال هذا الحرص بأن داخل جنبات هذه الأوراق الكبيرة التي تطوى وتنشر بين يديه حقولاً وحدائق وبهجة لاتنتدثر. لربما كانت هذه هي البئر الأولى.

- أيضاً هناك حادثة ما برحت تومض في قاع الذاكرة، مازلت أذكر الرجل الذي فهرس مكتبة الوالد، ولجت إلى فوضى المكتبة طفلة في بواكير الوعي، وفي المنزل حالة جيشان واستنفار فوجدت مئات الكتب قد غادرت أرففها ليجول بينها رجل منهمك في عمله يلصق عليه رموز وأحرف غريبة مثل (ح ن ر أدب) (س ع سير) (د

ن وتاريخ)، كانت قبائل الكتب تموج حوله، وهو يصنفها ويفهرسها ويدرجها في شجرة للعائلة.

- تلك المكتبة سميتها "المكتبة الغابة"! حيث تخطف لبي عناوين من نوع (تاج العروس)(١)، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والعقد الفريد، وفجر الإسلام، وضحى الإسلام "أسد الغابة في معرفة الصحابة"(٢)؛ عناوين براقة ملونة بها عروس ذات تاج وأغاني وأسد يقطن غابة باذخة. عناوين براقة تستلب لب طفلة ذاك الوعي والمرحلة العمرية الباكرة حيث بداية علاقتي مع الأبجدية، لكن هذا الجيشان كان دوماً يخالطه نوع من الهيبة، نوع من التردد من كتب الأب الجليل الصارم، الذي كان يمضي كل وقته بينها. . ، الكتب الغامضة ذات اللغة الوقورة التي تتأبى على وعي فتاة السادسة، لعل الوالدة أشفقت على رأس الصغيرة التي يندس بين دفتي كتاب وقور ملتف على غموضه ولغته التراثية المثقلة بمفردات فخمة جزلة.

فأسعفتني بعدد من كتب الأطفال التي لم تكن منتشرة على نطاق واسع، وغالبيتها مترجمة وركيكة، ولكن أول محطة تستحق أن نقف عندها في تجربتي الباكرة مع سلسلة (المكتبة الخضراء)، طبعًا كان هذه بوابة ذهبية بالنسبة لي وللكثيرات، تلك السلسلة كانت تلقى رواجًا كبيرًا بين الأطفال لعدة أسباب قد يكون منها:

---

(١) يعد كتاب (تاج العروس من جواهر القاموس)، أضخم معجم لغوي وصل إلينا حتى الآن، ومؤلفه: الإمام محمد ابن محمد الزبيدى، علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. هذا الكتاب له عدة طبعات، أولها: طبعة منشورات دار الحياة ببيروت، وهي من القطع الكبير جداً، وتقع في عشرة مجلدات ضخمة، وقد نفدت من الأسواق. والطبعة الثانية: صدرت عن دار الفكر بتحقيق/ علي شيري. والطبعة الثالثة: الطبعة الكويتية وتقع في أربعين مجلداً من القطع الكبير، وهي محققة من قبل فريق عمل مكون من سبعة وثلاثين محققًا ومراجعًا ومصححًا. ومع هذا فقد استدرك عليهم علامة الجزيرة/ حمد الجاسر، رحمه الله، أشياءً في كتابه (نظرات في تاج العروس).

(٢) أسد الغابة: مصنَّف جليل، لعز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشهير بابن الأثير، صنّفه على حروف المعجم، جمع فيه المصنِّف كثيراً من أسماء الصحابة -رضي الله عنهم-؛ واستقصى فيه ما وصل إليه من أسمائهم، وأبان فيه الحق فيما اختلف العلماء فيه في النسب والصحبة والمشاهد التي شهدها الصاحبي؛ إلى غير ذلك من أحوال الشخص التي لا يعرف الحق فيها. وقد رتبه المصنف على حروف المعجم (أ، ب، ت، ث. . .) ولزم في الاسم الحرف الأول والثاني الثالث وكذلك إلى آخر الاسم، وكذلك أيضاً في اسم الأب والجد ومن بعدهما والقبائل أيضًا.

- عدم طغيان ثقافة الصورة المغوية آنذاك، ومحدودية وقت برامج الأطفال في التلفاز.

- موضوعاتها الشيقة المستمدة من نخبة من أجمل القصص الفلكلورية في ثقافات الشعوب العالمية.

- لغتها السهلة السلسة التي تساير وعي الأطفال، كما أنها في الوقت نفسه تصقل قدراتهم اللغوية (ولا أخفي هنا أنه حين بدأت أكتب للأطفال كانت المكتبة الخضراء نبراسي وطموحي في عدد من القصص).

- الرسومات الجميلة التي كانت ترافق القصص، كانت تؤسس لمشروع أدبي متكامل وراق فيما يتعلق بمجال كتاب الطفل، حيث تشرع البوابات لمخيلة الطفولة لتمارس نعمة التحليق والتفكر.

كنت شغوفة جداً بتلك السلسلة وأطلعت على معظم إصداراتها، وكانت محطة باكرة ألهبت شغفي بعالم القراءة.

أذكر في المرحلة الابتدائية في الصف الثاني الابتدائي، أني رأيت نسخة من سلسلة المكتبة الخضراء، تحت عنوان "الليمون العجيب" وصادف أنها قصة لم أطلع عليها في السلسلة، وكانت صاحبة الكتاب التي جلبته إلى المدرسة ترفض أن تعيرني إياه، ولشدة شغفي التهمته على عجل وبصورة قافزة في الفترة الصباحية، وهي الفترة بين قدومنا من المنازل إلى وقوفنا في الطوابير، كنت أقلبه بسرعة، واحتضن أسطره بعيني قبل أن يختفي عن نظري، يخالط جميع هذا بعض الحسرة لأن هذا الكتاب لم يمكث بين يدي إلا للحظات خاطفة، يعكس هذا الموقف مقدار المتعة التي كانت تحققها لي تلك الكتب.

تسرب لي أيضاً من خلال أختي الكبرى (خولة)، وبعض رفيقات المدرسة مجلات القصص المصورة، أو كتب ال comic، دور نشر لبنانية كانت تقوم بترجمتها للعربية كمجلة سوبرمان، والوطواط، ولولو الصغيرة، بينما حصلت دور النشر المصرية على حقوق تعريب ونشر منتجات ديزني في مجلة ميكي.

تلك المجلات كانت تحتشد بأخبار الأبطال الخارقين، وصراع دائم بين الشر والخير، وآفاق واسعة عن العالم حولنا، والحياة في المدن الكبيرة، الفضاء ومركباته ومخلوقاته، كانت جميعها تمنحني كماً وافراً من المتعة والفضول والدهشة التي تستجيب لأسئلة تلك المرحلة، إضافة إلى جانب من الفكاهة كنت أجده في قصص لولو الصغيرة، وميكي وبطوط.

في تلك المرحلة رشح لي الوالد - أطال الله في عمره -(*) وهو يلمح شغفي المتنامي بالمطالعة سلسلة أساطيرنا الشعبية، للأستاذ / عبد الكريم الجهيمان، فكانت بهجة عثوري على عروق الذهب في المنجم، المنجم الذي لا ينضب كلما مررت به إلى اليوم.

إضافة إلى كتاب الوالد من (أحاديث السمر) الذي يسير في السياق نفسه.

وجدت فيها متعة القص والحكايات المحتشدة بتضاريس المكان، وثقافته الشعبية. الثراء الفني في الأدب الشفوي الذي كان من الممكن أن يندثر لولا مجهود أبينا الجهيمان، أمد الله في عمره.

الأسلوب السلس الرشيق للأستاذ الجهيمان الذي يخاطب جميع الأذواق والأعمار، لا يستعصي على فهم أحد، وهي حكايات في الغالب كان إطارها فصحى، ولكنها مشربة بالعامية، المقدمة العامية اللطيفة (هنا هاك الواحد والواحد الله في سماه العالي)، النص المشغول ببعض القصائد العامية، الأمثلة وبعض المقولات التي تنقل روح تلك المرحلة التاريخية الشفوية ونبضها ونتاجها الإبداعي وتوثق علاقتها بمحيطها الشعبي.

أيضًا في تلك المرحلة - وما زلنا نتحدث عن المرحلة الابتدائية تقريبًا-، وقعت بين يدي موسوعة معرفية موجهة للناشئة، صادرة عن إحدى دور النشر اللبنانية، كانت تحوي كماً وافراً من المعلومات المدهشة الجذابة، المرفقة بالصور، والإخراج الأنيق، وهي على الغالب موسوعة مترجمة، ولكن كانت من الكتب المنعطف في حياتي تلك المرحلة، أذكر دهشتي عندما اطلعت داخلها على سبيل المثال على أثر البيئة على

(*) والد الأستاذة أميمة الخميس، هو الأستاذ الأديب عبدالله بن خميس، وقد توفي يوم الأربعاء ١٥/ ٦/ ١٤٣٢هـ - رحمه الله رحمة واسعة.

التكوين الجسدي والثقافي والنفسي للشعوب في أفريقيا والأسكيمو وأوربا والجزيرة العربية، جميعها وضعت في إطار علمي شيق ومبسط، تلك الموسوعة أعتقد أنها وسعت آفاق الرؤيا كثيراً بالنسبة لي آنذاك.

وجدت صدفة في مكتبة الوالد جزءاً مهلهلاً أو نصف كتاب من مغامرات سيف بن ذي يزن(١)، ومـا زال ينبض في ثنايا الذاكـرة، كم وافـر من الصـور اللغـوية والأخيلة المذهلة، حول شجاعة الملك سيف وهو يتجاوز الجزر المرصودة، يحارب الأشجار التي تتحول إلى أفاعي وغيلان، وكل ما اجتاز مرحلة اشتدت الصعوبات في المرحلة التي تليها وهذه القصة فتقت في أعماقي معانى متعددة للرحلة؟

فعندما قـرأت لاحقـاً مغامرات (السندباد) ورحلاته، ورحلة (أوليس) بطل أوديسة هوميرس، تفطنت أن الآداب العالمية محتشدة بحبكة الرحلة، وصعوباتها وأهوالها، وكأنها هنا ترمز لرحلة الحياة، فكلما اتسعت الآمال وكبرت ازدادت أهوال الطريق.

وقد كتبت قصة للناشئة تحت هذا الإطار بعنوان (الرحلة) وهي الآن تحت الطبع في نهاية المرحلة الابتدائية ومطالع المرحلة المتوسطة فزت قامتي وابتدأت تصل الأرفف العليا في مكتبة أمي -رحمها الله- حيث كانت تحتشد بمترجمات كلاسيكيات الأدب الروائي العالمي، ومن هناك بدأت الإبحار في محيط لم أصل لطرفه إلى اليوم.

لعل الذاكرة تسعفني بالمرور على بعضها:

* "ذهب مع الريح"(٢)، للمؤلفة الأمريكية مرغريت ميتشل.

---

(١) سيف بن ذي يزن ملك يمني حميري عاش في الفترة بين ٥١٦ - ٥٧٤م، اشتهر بطرد الأحباش من اليمن، وتولى الملك فيها. دخل سيف بن ذي يزن القصص الشعبية، فسيرته مشهورة، وهي من أضخم السير العربية، وفيها اختلط الخيال بالوقائع التاريخية، وجمح، فأصبح سيف بن ذي يزن ابنًا لأم من الجن، وصاحب سيادة فيهم. وغير ذلك من أفانين الخيال. وتُحلق السيرة بعيدًا في الأسطورة، فتلبس الملك سيف بن ذي يزن لباساً غير بشري. وتحكي السيرة عن زوجة سيف منية النفوس، وكيف اختطفها الأحباش واستعادها سيف منهم، كما تحكي عن ولده معد يكرب. وتجعل السيرة من سيف موحداً مسلمًا على دين إبراهيم الخليل، ومن الأحباش وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم، على الرغم من أن دين الأحباش كان النصرانية!

(٢) أصدرتها مارغريت ميتشل، عام ١٩٣٦م. تروي قصة فتاة بسيطة، أثناء الحرب الأهلية بين ولايات الشمال والجنوب الأمريكية، وتحمل الرواية تفاصيل مهمة، وأحداث مؤثرة ومثيرة تحكيها هذه الرواية التي تحمل في طياتها صوراً من المجتمع الأمريكي عامةً، ومجتمع ولاية جورجيا خاصةً.

قصة الحرب الأهلية الأمريكية، والصراع بين الشمال والجنوب لتحرير العبيد، في آطار دراما تحتشد بتفاصيل الحب والحرب والموت.

* قصة مدينتين لتشارلز ديكنز، (قصة مدينتي لندن وباريس)(١) دراما تعكس خوف المؤلف الانجليزي من انجراف لندن لعنف وبؤس مشابه لما حدث في باريس اثناء الثورة الفرنسية.

* جين أير، للمؤلفة شارلوت برونتي إحدى الأخوات برونتي، وهي تحكي قصة فتاة يتيمة نشأت وتلقت تعليمها في جو قاسٍ لدار أيتام، ومن ثم تنتقل لتعليم فتاة صغيرة في قصر إحدى الإقطاعيين، حيث تصادف كثيراً من الأحداث والمفارقات العجيبة.

أيضًا قرأت كتاب "الأم"(٢) لجوركي، كان ثقيلاً عليَّ في تلك المرحلة، وأصارحكم أنني لم أحب ذلك الكتاب بما يحتشد من تفاصيل البؤس والشقاء وجيشان ما قبل الثورة الروسية من خلال موقف بطولي لسيدة روسية، ما قبل الثورة البلشفية، أيضًا من الكتب المميزة هو كتاب "الأرض الطيبة" للمؤلفة (بيرل باك)(٣)، هي كانت من الإنجليزيات اللواتي سكنّ في الصين وصورت تفاصيل حياة أسرة صينية بصورة إنسانية عميقة في مجتمع الريف، وأيضًا في مجتمع المدينة،

---

(١) قصة مدينتين (١٨٥٩) هي رواية لتشارلز ديكنز، ووقعت أحداثها في لندن وباريس قبل الثورة الفرنسية وأثناءها. مع بيع ٢٠٠ مليون نسخة، يكون أكثر كتاب أصلي بالإنجليزية تم طبعه، وليس فقط الأكثر طباعة ومن بين أشهر الأعمال الأدبية الخيالية.

(٢) "الأم" قصة "امرأة"، قصة "أم" من أفراد الطبقة العاملة، قضت جل سني عمرها حتى الأربعين، أو يزيد، في حياة لا معنى لها ولا هدف، قضتها في الظلمة القاتمة كما عبرت هي نفسها عن ذلك، لا تكاد تدرك حتى حقيقة إيمانها بالله الذي تعبد حتى يكون لها عقيدة سياسية تدافع عنها، ومع ذلك فإن الفعالية الثورة الخائض غمارها فتاها ورفاقه المتكتلون حوله قد اجتذبتها إليها شيئاً فشيئاً، وجعلت منها بالتدريج مناضلة إنسانية فذة، وإحدى بطلات العالم الجديد الذي ما برح في دور المخاض.

(٣) بيرل باك: أديبة أمريكية (١٨٩٢-١٩٧٣م) بدأت بنشر كتاباتها حيث حازت بعض الجوائز عند بلوغها الثانية والعشرين عملت بالتدريس ثم ما لبثت أن تلقت خبراً بمرض والدتها في الصين وفي الصين استمرت بممارسة مهنة التدريس. عانت من شظف العيش وصعوبة الحياة حيث وصفت الكاتبة حياتها في تلك البلدة في كتابها الأرض الطيبة. انكبت على قراءة القصص منذ نعومة أظفارها، حيث كتبت أنها تأثرت بقصة علاء الدين والفانوس السحري. إنتاج متعدد وغزير، ونظراً لأن معظم كتاباتها مستوحاة من الحياة في الصين لقبت بالكاتبة الصينية. حصلت على جائزة نوبل في الأدب لسنة ١٩٣٨م.

قدمت لنا نموذجًا مكافحًا عبر كل المستويات الاجتماعية في الصين، ولاحقًا عندما قرأت "البجعات البرية" لـ (يونج تشانج) وهو أيضًا يتناول قصة ثلاثة أجيال نسائية صينية، وجدت الكثير المشترك بين "الأرض الطيبة" و "البجعات البرية"، أيضًا من الكتب التي وجدتها مذهلة كتاب "الدكتور زيفاجو" للكاتب الروسي باسترناك، وهي رواية تحولت إلى فيلم شهير تحكي قصة طبيب روسي كان في صراع بين امرأتين في إطار من الثورة الروسية، طبعًا الكتاب حصل مؤلفه باسترناك على جائزة نوبل، ولم يستطع تسلمها لقضايا الشيوعية والجدار الحديدي. . . إلخ.

الهيام:

وأن كانت العرب قد رتبت للعشق منازل أولها الهوى، ومن ثم العلاقة، وهي: الحب اللازم للقلب. . . . انتهاء بالهيام، فلعلي قد شارفت في تلك المرحلة العمرية على الهيام بالكتب.

فحينما كنت ألتقط الكتاب تصيبني رعدة البهجة، وعندما أقترب من نهايته تداخلني مشاعر الفقد و الوحشة، لاسيما إذا لم يكن هناك كتاب جديد ينتظرني على الرف، وعندما أحمل الكتاب بين يدي وأشرع في القراءة أبدأ في عد الصفحات المتبقية من الكتاب خشية أن يكون قد شارف على النهاية.

كان دخولي عالم الروايات العربية متأخراً نوعا ما عن المترجمات العالمية، فكانت (أيام) طه حسين ولغته المتدفقة الجميلة، ويوميات نائب في الأرياف وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، وإن كانتا تتخذان طابع السيرة الذاتية إلا أنهما كانتا مدخلاً جذاباً لعالم الرواية العربية.

المعلم:

في حضرة نجيب محفوظ كنا لابد أن نقف جميعًا إجلالاً ونتأمل كيف ولدت الرواية العربية الحديثة على يدي هذه القامة الشاهقة التي تدعى نجيب محفوظ، المتانة. . القوة. . البهاء، في حضرة نجيب محفوظ، تتأمل كيف تتبلور الرواية العربية بجميع، تلك المتانة والقوة والبهاء:

- الثلاثية .
- زقاق المدق .
- أولاد حارتنا .

أيضًا الدخول لعالم القصص القصيرة عبر قصص يوسف إدريس، ويحيى حقي، وزكريا تامر، وأتأمل القصة العربية وهي تتشكل على أيدي الرواد .

ومن أبرز القصص التي شدتني "قنديل أم هاشم" لـ "يحيى حقي"(١) .

هناك كاتب فلسطيني هو (جبرا إبراهيم جبرا) أحمل له كثيراً من الامتنان والفضل لم يكتف هذا المبدع الشاهق، أن يقدم للمكتبة العربية، ترجمات مسرحيات شكسبير بصياغة فنية راقية، بل أيضاً قدم مجموعة من الروايات، التي تحتل مراكز متقدمة في المشهد الروائي العربي مثل رواية .

- البحث عن وليد مسعود.
- السفينة .
- (عالم بلا خرائط)، وهي رواية كتبها بالاشتراك مع عبدالرحمن منيف .

أيضا أعمال (عبد الرحمن منيف) أبهرتني جميعها، وتحديداً خماسيته مدن الملح .

- التيه .
- الأخدود .
- المنبت .

---

(١) يحيى حقي (٧ يناير ١٩٠٥ - ٩ ديسمبر ١٩٩٢م) كاتب روائي مصري، صاحب رواية "قنديل أم هاشم" . عمل يحيى حقي بعد تخرجه، في مدرسة الحقوق العليا عام ١٩٢٥م، محاميًا ثم معاونًا للإدارة بصعيد مصر، الذي قضى فيه عامين قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي . وفي عام ١٩٦٢م، تولى يحيى حقي رئاسة تحرير مجلة (المجلة) الشهرية لثماني سنوات، نجح خلالها في تحويل تلك الدورية إلى منبر ثقافي مؤثر، قدم من خلاله كثيراً من المواهب الجديدة في ميادين القصة القصيرة والرواية والشعر والنقد . خلال دراسته للحقوق، كتب يحيى حقي القصة القصيرة متأثرًا بالأدب الروسي . وإلى جوار القصة والرواية، أسهم يحيى حقي في كتابة المقال الأدبي، والنقد الأدبي والفني، والدراسات الأدبية، والسيرة الذاتية . وله ثمانية وعشرون كتابًا، غير القصص والمسرحيات والكتب التي ترجمها .

- بادية الظلمات .
- تقاسيم الليل والنهار .

الصنعة الفنية الراقية المتمكنة ، أعتقد أنه من أنجح الأعمال التي حاولت مقاربة هذا المكان روائياً لولا ارتفاع النبرة الأيدولوجية في بعض مقاطعها .

– أيضًا إحسان عبدالقدوس(١) لابد أن نتوقف عنده ، على الرغم من أن كثيراً من النقاد والقراء لديهم مآخذ فنية عليه ، لكن أنا ممتنة لهذا الأديب الروائي الذي علمني كيف من الممكن أن نختلس حكاية مجلس يومي بسيطة فنحذف ونضيف ونشذب ونضخ بها روح فلسفية ، لنحولها لعمل فني متماسك وممتع ومشوق في الوقت نفسه .

كان بارعًا في هذا للغاية ، كرواية زوجة أحمد ، في بيتنا رجل ، لا أنام ، الوسادة الخالية ، أغلب قصصه تحولت إلى أفلام ، من خلاله عرفت الإمتاع كشرط من الشروط الفنية ، فالكاتب لا يقدم للقارئ عقلاً فقط .

محطتي الحزينة :

وهنا لابد إلى الإشارة إلى أن جميع تلك الكتب لم تكن موجودة في مكتباتنا العامة أو التجارية ، فكنت إما احضرها برفقتي إذا سافرت ، أو أنني أوصي من يسافر لعواصم الثقافة العربية ليجلبها لي ، والمفارقة هنا لو لم يكن لدي طوق نجاة عبر مكتبة منزلية عامرة فإنني لم أكن أحظى بهذه الرحلة الماتعة في مطالع حياتي ، لاسيما أن المؤسسة التعليمية لم تقدم لي أي كتاب مثير أو ممتع أو مدهش ، سواء عبر المنهج أو المكتبة المدرسية الهزيلة .

– أعتقد أنه شيء مهم جدًا أن يكون الفضاء حول الناشئة والأطفال مؤسسًا ومحتشداً بأوعية المعرفة وعلى رأسها الكتب ، رفيقة صفي الأستاذة فاطمة

---

(١) إحسان عبد القدوس : (١٩١٩–١٩٩٠م) ، كان صحفيًا وروائيًا مصريًا ، فهو ابن السيدة روز اليوسف اللبنانية المولد ، وهي مُؤَسسَة مجلة روز اليوسف ومجلة صباح الخير . أما والده محمد عبد القدوس فقد كان ممثلاً ومؤلفا . ويعد منَ أوائل الروائيين العرب الذين تناولوا في قصصهم الحب البعيد عن العذرية ، وتحولت أغلب قصصه إلى أفلام سينمائية . ويمثل أدب إحسان عبد القدوس نقلة نوعية متميزة في الرواية العربية ؛ إذ نجح في الخروج من المحلية إلى حيز العالمية ، وترجمت معظم رواياته إلى لغات أجنبية متعددة .

الحسين(١)، كانت تقول: إن المكتبة المدرسية كان بها كم جميل من الكتب، لكنها لربما كانت تذهب وتغافلني من وراء ظهري ولا تدعوني لهذه المكتبة، وقبل أن أسرف بلوم المؤسسة التعليمية، لابد هنا أن أتوقف عند العبقريات التي درستها في المرحلة الثانوية، وكنت أطالعها باحترام وتبجيل أولاً لأنني سمعت الوالد يتحدث عن العقاد كرمز أدبي وقامة أدبية شاهقة.

وثانياً لأنني اكتشفت لدى مطالعتي (عبقرية الصديق وعبقرية عمر) أن لدى العقاد طريقة مختلفة، في معالجة الأفكار والرؤى، كانت ثقافة العقاد الفلسفية قد انعكست على كتاباته، فأصبحت كتبه مثقلة بالنفس الفلسفي الذي يتطلب التأمل والتفكر والمراجعة، وليس فقط الاستمتاع.

- وهذه مرحلة انتقالية في تجربتي مع القراءة فقد انتهت النزهة، فقد كنت حتى ذلك الحين أقرأ للمتعة الفائقة، وأن كان الريحاني يجعل من المتعة شرطاً للقراءة، ولكنني في هذه المرحلة بالتحديد مع انخراطي في تحدي تفكيك أسلوب العقاد، وبداية نشري في الصحف عرفت بأن القراءة ليست مجرد نزهة، في حديقة منزلية نقطف من زهورها ما يروقنا، بل لابد أن تتحول القراءة إلى مشروع سنوي، شهري، مع ساعات يومية، فالمطروح كثير وإغراء المعارف واسع، والالتزام بكتابة دورية في الصحف تتطلب أرضية معرفية واسعة شمولية.

في الغالب الكتاب يمثل لي مغامرة تحدٍّ، مغامرة لاقتناء المجهول وكشفه، أجد بداخلي ميلاً كبيراً لقراءة الرواية، الرواية في الغالب تختزل جميع الفنون، برأيي الخاص، تختزن التاريخ، تختزل الجغرافيا، تعكس طيفاً من علم النفس، تشتبك مع الفلسفة، فأجد في نفسي ميلاً كبيراً لقراءة الرواية، وحتى أدعم نفسي ووعي وخلفيتي الثقافية، وأصبح مؤهلة لمقاربة الرواية سواء كقارئة أو روائية، لابد أن أطالع الجغرافيا، وأقرأ التاريخ، وأفكك الفلسفة، كي أصبح بأدوات متينة تؤهلني للولوج في غابة الرواية.

---

(١) مديرة فرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بمركز الملك عبدالعزيز التاريخي- المربع.

أيضا قضية التزامي بعامود صحفي دوري تحتم على أن أقف على دائرة معارف واسعة، تؤهلني لخوض هذا المجال الصعب والمتحدي والذي يخاطب أذواق وأذهان شتى من قراء الصحف.

- وقتها بدأت في تأسيس (مشروعي للقراءة) أو فلنقل بأنني عسكرته بالانضباط والالتزام، وضعت لي قوائم (جورنلا) لرصد جميع الكتب التي قرأتها، مع كتابة انطباعاتي عنها، وأن ضاق بي الوقت لتقييمها وضعت معيارا من خمس نجوم ليحدد قيمة الكتاب بالنسبة لي وآثره علي.

وبدأت أمد مجسات فضولي خارج المكتبة المنزلية، وكان كشافي في هذه المسيرة الملاحق الأدبية في الصحف المحلية، وأعداد بعض المجلات اللبنانية مثل الحوادث، والوطن العربي واليوم السابع التي كان يشرف على تحريرها آنذاك الشاعر محمود درويش.

وقد ظلت تصدر لفترة بسيطة ثم اندثرت أو توقفت.

- في تلك المرحلة وصلت مراكبي إلى شواطيء امرأة المحبرة، غادة السمان(١)، تشبه غادة السمان نفسها بالمرأة التي غرقت في محبرة، تلك المحبرة التي أسرتني وأدهشتني وجعلت غالبية منشورات غادة السمان تتجاور فوق أرفف مكتبتي.

كان كل شيء في كتابات غادة السمان ندياً نضراً جديداً، الأسلوب، الفكرة، التقاطع مع المنمط والمألوف التعبير عن التفاصيل والدقائق المغيبة في تجربة المرأة ومعاناة النساء، البومة التي اختارت أن تغرد بعيداً على الضفاف النائية، كابدت بعدها طويلاً للفرار من نكهتها في كتاباتي.

---

(١) ولدت في دمشق عام ١٩٤٢م. تلقت علومها في دمشق، وتخرجت في جامعتها - قسم اللغة الإنكليزية حاملة الإجازة، وفي الجامعة الأمريكية ببيروت حاملة الماجستير. عملت محاضرة في كلية الآداب بجامعة دمشق، وصحفية، ومعدة برامج في الإذاعة. عضو جمعية القصة والرواية. مؤلفاتها كلها صادرة عن منشورات غادة السمان، منها: عيناك قدري؛ لا بحر في بيروت؛ ليل الغرباء؛ رحيل المرافئ القديمة؛ حب؛ بيروت؛ أعلنت عليك الحب؛ كوابيس بيروت، . . . وغيرها.

وكان هناك أيضًا أدونيس، أسمّيه الفارس الذي لا يترجل عن روايته، وجدت بالصدفة كتاب (الثابت والمتحول) لأدونيس بأجزائه الثلاث لدى مكتبة دار العلوم بالملز، ولأنه كان هناك كثير من اللغط والأصوات حول تجربة أدونيس على صفحات الملاحق الأدبية والمجلات الفنية، فإنني تأبطت الكتب وغادرت المكتبة، ولكن محتوى الكتب لم يغادرني، كانت أدواته النقدية التي قارب بها الظواهر الفنية في الأدب العربي تحفز الأسئلة، وتثير الفضول، وتحيلنا إلى مبدع يظل ناحراً أفق القلق والمغامرة بشكل مستمر.

المارقون:

ويبدو أنها المرحلة نفسها التي اطلعت فيها على بعض كتب عبدالله القصيمي، وسيد القمني، لكن كمية الصراخ والهيجان اللغوي لدى الأول جعلني انسحب ويبادرني الملل، بينما غرابة المعلومة، وطزاجتها وتقاطعها مع المألوف والمتداول واتساع الإطار المرجعي لدى سيد القمني (بعيداً عن إن كنا نتفق معها أو نختلف) جعلتني أتابع كثيراً من المؤلفات لهذا الباحث - وما زلت - الذي نال جائزة الدولة التقديرية في مصر العام الماضي.

- من كتب المنعطف في حياتي كتاب فراس سواح (مغامرة العقل الأولى) الذي اكتشفته في مكتبة الوالد، وهو الكتاب الذي قادني إلى كتابه الأهم بالنسبة لي (لغز عشتار)، وبقية مؤلفاته. . . . التي كانت إحدى البوابات الذهبية التي قادتني لعالم الأساطير، وكتبه عبارة عن تفكيك أركولوجي ARCHAEOLOGY ماهر لبنية الأساطير في منطقة الشرق الأوسط بجميع حمولتها الفكرية والثقافية، انطلاقاً من فكرة عالم النفس الشهير (يونغ) الذي يربط الخيال الجمعي المشترك بين الشعوب، وكون الأسطورة لا تندثر لكن تبدل أرديتها.

البوابة الذهبية التي شرعها لي فراس سواح حطت بي الرحال على ضفاف:

- جوزيف كامبل (قوة الأسطورة).
- وكلارسيا بينكولا (الهرب مع الذئاب).

كتابان بقيمة علمية وأدبية أيضاً عالية، حيث يعودان بنا إلى المادة الخام للأساطير ونشأتها، عندما تعكس الصراع الوجودي للبشر، وانعكاسات هذا الصراع على آدابهم وفنونهم وثقافتهم.

فكتاب كلارسيا بنكولا وجدته صدفة في مطار تورنتو الكندية عام ١٩٩٦م، اقتنيته ولم أكن أعلم أنه سيشكل أحد الكتب المنعطف في مكتبتي، الكتاب رغم صيته التجاري ظل على قائمة الـ BEST SELLER لمدة عامين، (والكتاب الذي يحظى بذلك يتحفظ الإنسان أمامه للخوف من أن يكون ذا طابع تجاري) لكن هذا الكتاب له لغة شعرية فائقة الروعة، وقيمة علمية ثقيلة، الكتاب عمومًا تتقصى فيه الكاتبة الرمز الأنثوي الخلاق داخل التراث الفلكلوري لعدد من الشعوب، الرمز الأنثوي والطاقات الخصبة التي تعكسها النساء، وللمصادفة ما زلت أرجع لكتاب كلارسيا للمتعة والاستفادة، وبعض من روح هذا الكتاب وجدته في بعض رواياتي ولاسيما (رواية الوارفة) عندما تصف (كلارسيا) مقاطع من طفولتها والمنطقة التي نشأت فيها حيث اليوم الواحد يحتوي عدة فصول، وجدت أن إحدى شخصياتي، أو الشخصية البطلة في رواية الوارفة كانت لا تعترف بالتقويم أوالفصول لكن لها تقويمها الخاص يتضمن أحساسها الشخصي بتقلبات السنة. وأحب أن أشير إلى أن كتاب كلارسيا قد ترجم إلى العربية... لم أطالعه، ولكن طالعت مراجعة له من قبل برنامج تلفازي في قناة أوربت تقدمه الأديبة المصرية سحر الموجي.

أيضًا طالعت في تلك المرحلة كتاب "قوة الأسطورة" THE BOWER OF MYTH، لجوزيف كامبل الذي يعد من الأباء الروحيين لعلم النفس الحديث في الولايات المتحدة، وهو من الكتب التي تقارب الرموز الأسطورية في ثقافات الشعوب، والكتاب عبارة عن حوار بين (جوزيف كامبل)، وبين أحد تلاميذته أو مريديه، والحوار في معظمه يحاول أن يتقصى رؤية كامبل حول الخيال الجمعي وبعض الأساطير التي تتخذ طابعاً جمعياً بين الشعوب.

مكتبة الجامعة:

- دراستي للأدب العربي، جعلتني أستعيد ما فتر من علاقتي مع الكتب التراثية الوقورة في مكتبة الوالد، جئتها كرة أخرى لطبيعة المتطلب البحثي في الجامعة بعد أن نضجت أدواتي وتماسكت أصابعي، أحاول أن أستزيد من مناجمها وكنوزها أيقظن بي الشوق القديم.

كما يقول الشاعر(١):

عُيونُ المَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجسر جَلَبنَ الهَوى من حَيثُ أَدري وَلا أَدري
أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن سَلَوتُ وَلَكِن زِدنَ جَمراً عَلى جَمرِ

- طبقات فحول الشعراء.
- الأغاني.
- فقه اللغة.
- الدواوين الشعرية.
- الأصمعيات.

بما أننا ما برحنا في الجامعة لابد أن أعرج على كتابين مهمين في تلك الفترة.

- سلسلة تاريخ الأدب العربي على يد الأديب والمفكر - يرحمه الله - والحاصل على جائزة الملك فيصل (شوقي ضيف)(٢)، التي بدأها بالعصر الجاهلي، وتأتي أهمية هذه السلسلة بالنسبة لي لأن منهج شوقي ضيف في النظر إلى تاريخ الأدب يجمع بين

---

(١) الشاعر هو: علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب: (١٨٨- ٢٤٩هـ) شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد كان معاصراً لأبي تمام، وخص بالمتوكل العباسي، ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة، وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فاعترضه فرسان بني كلب، فقاتلهم وجرح ومات.

(٢) عميد النقد الأدبي، أديب وعالم لغوي مصري والرئيس السابق لمجمع اللغة العربية المصري: (١٩١٠- ٢٠٠٥م). من مواليد دمياط. يعد علامة من علامات الثقافة العربية. ألف عدداً من الكتب في مجالات الأدب العربي، وناقش قضاياها بشكل موضوعي.

اتجاهين: الأول النظر إلى تاريخ الأدب بوصفه علماً، كما نظر إليه طه حسين، والثاني تقسيم الأدب إلى عصور كما قسمه القدماء، وقد أخذت على يديه مادة الأدب الجاهلي في الجامعة حيث كان يرى أن هدف تاريخ الأدب هو هدف بحثي نقدي كما يرى طه حسين، وفي الوقت نفسه هدف تعليمي كما يرى أنصار المنهج القديم.

- أيضًا في مرحلة الجامعة جاور الأدب الاجتماع، في تلك المرحلة أخذت مادة حققت لي كمًا كبيراً من المتعة على يد المبدعة والأديبة الدكتورة فوزية أبوخالد، وهي مادة علم اجتماع الأدب، كان من الكتب المقررة علينا في المنهج كتاب حليم بركات(١) "المجتمع العربي المعاصر"، هذا الكتاب فتح لي نوافذ كبيرة على المجتمع العربي المعاصر، في مقدمة الكتاب يقول المؤلف: "إن الاعتراف بوجود مختلف النزاعات والتوجهات التي تتجاذب العرب بين الوحدة والانكفاء الذاتي بين التقليد والحداثة بين المطلق المقدس والنسبي العلماني بين الغرب والشرق، وبين المستقبل والماضي وبين الخاص والعام وبين الانتماء الى الجماعة والانتماء الى الأمة".

ويتناول المؤلف هذه القضايا في سياقها الاجتماعي والتاريخي مقدماً تفسيراً بنيوياً لها، حيث يركز على دراسة البنية الطبقية والاختلاف في أنماط المعيشة وما يترتب على ذلك من تنوع في التنظيم الاجتماعي وفي الثقافة وعلى المؤسسات الاجتماعية بما فيها العائلة والدين والسياسية. وتأتي أهمية هذا الكتاب بالنسبة لي كونه فتح لي أفقاً واسعاً من الكتب والمقالات والبحوث التي تدور في الأفلاك نفسها، هذه الرؤية أعتقد أنها تخدم الطابع التحليلي الذي يتطلبه الالتزام بمقال دوري في جريدة.

في هذه المرحلة أعتقد أنني سأتوقف عن التسلسل الزمني، ابتدأت هنا تخونني ذاكرتي وتتفتت المواقف، فالتسلسل الزمني أصبح متقطعًا واهيًا وتكاثرت الظباء عليه، لا أدري أيها سأصطفي وأيها سيقع بين شباكي، ويمثل بين أيديكم الليلة، يقول

---

(١) عالم اجتماع وأستاذ جامعي وروائي سوري (١٩٣٣م) حصل على شهادتي البكالوريوس والماجستير في علم الاجتماع من الجامعة الأمريكية في بيروت ثم دكتوراة في علم النفس الاجتماعي من جامعة متشيجان في الولايات المتحدة ١٩٦٦م. له عدد من المؤلفات والمقالات المنشورة.

المفكر الفرنسي "أندريه جيد"⁽¹⁾، قبل أن ألتقط الكتاب من رف المكتبة؛ أعلم أنني بعد قراءته وإعادته لمكانه سأكون شخصًا مختلفًا.

حتى لا أطيل عليكم سأكتفي بالمرور على بعض الكتب التي أسهمت في صنع بعض الاختلاف في وعيي.

"**الدهشة هي أعظم أفراح البشرية**":

- أنها مقولة نيكوس كازنتازاكي⁽²⁾، في روايته زوربا، ولم تكن هي مدخلي الأول لعالم كازنتازاكي الخصب، بل كان سيرته الذاتية المعنونة بـ(تقرير إلى غريكو) التي ترجمها المبدع السوري ممدوح عدوان، حيث جربت جميع صنوف الدهشة مع كازنتازاكي، النظرة العميقة لكاتب كأنه يختزل حكمة العالم في قلمه، وكأن روحه التأملية عمرها ألف عام، تأصلت بيني وبين مؤلفاته علاقة عميقة الحديقة الصخرية، المسيح يصلب من جديد، وعدد من المؤلفات الرائعة، ولاحقاً عندما كثفت قراءاتي الفلسفية عرفت مدى تأثير الفيلسوف نتيشه في أعماله الأدبية.

الواقعية السحرية:

لابد أن نمر بها، أو كيف سنفر منها الواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية.

أنا أنتمي إلى جيل عاصر الدهشة العارمة بالأدب اللاتيني، عندما فاز "جابريل

---

(١) أندريه جيد: (١٨٦٩-١٩٥١م) كاتب فرنسي. في العام ١٨٩١م نشر دفاتر أندريه فالتر التي يحكي فيها في الوقت نفسه شعوره بالكآبة وطموحاته المستقبلية. أغرته الشيوعية مدّة إلا أن رحلته إلى ما كان يسمّى بـ(الاتحاد السوفيتي) سنة ١٩٣٦م أقنعته بلا إنسانية النظام الستاليني. التزم بعد ذلك ضد الاستعمار. حصل على جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٤٧م.

(٢) نيكوس كازنتازاكي، الروائي اليوناني المعروف، أحد أكبر كتاب الرواية في القرن العشرين، وربما في عصور قادمة، وصاحب الرائعة الروائية التي دخلت في الذاكرة البشرية(زوربا) والإخوة الأعداء، وكتاب الزهد، وبستان الصخور، والطريق إلى كريكو(سيرة ذاتية) والأوديسة، والإغواء الأخير للمسيح، [التي جلبت له الويلات مع الكنيسة والرهبان والمؤسسة المسيحية والسلطة والناس حتى قرار حرمانه من القداس بعد الموت]، ورواية: المسيح يصلب من جديد، التي عمقت الهوة بينه وبين المجتمع الكنسي والبابوي والناس، وروايات ومؤلفات أخرى في الأدب والفلسفة والشعر.

ماركيز "(١) بجائزة نوبل عام ١٩٨٢م، كانت المباركة العارمة لهذا الأدب من المركزية الغربية، طبعًا نحن دائمًا في العالم العربي ردود فعل، وليس بوصلة أو مصدراً للثقافة، فنهضت موجة لاتينية عارمة ووصلت إلى شواطئنا، فأخذنا بتلك المدن الغرائبية التي يتصل فيها المطر عاماً كاملاً، ويخاطب أبطالها الملائكة المنفيين، بينما نساؤها تغلفهن شعور طويلة كالمعاطف، كنت أحس أن الواقعية السحرية هي الترياق الذي انتشل الرواية في العصر الحديث من المغامرات المتصلة للتجريد والتجريب من هيمنة وشراسة طغيان ثقافة الصورة.

التي بدأت تطغى على ثقافة القراءة، كان الجمع مأخوذًا بأعمال ماركيز، وبأعمال جورجي أمادو(٢)، أو كما يسمونه بالإسبانية خورخي، أنا أخذت بدوري بـ" إيزابيل أليندي"، كانت كاتبتي المفضلة، وروايتها "بيت الأرواح" أيضًا من الروايات المنعطف بالنسبة لي، قرأتها عدة مرات، ونادراً ما أقرأ رواية عدة مرات، وكانت حرفية وفنية وأسلوب إيزابيل أليندي، هي الكشاف الذي حملته في يدي وأنا أجوس أول مرة عالم الرواية، طبعًا حرصت لاحقًا على اقتناء جميع رواياتها.

- أيضًا من الكتب المتميزة التي لابد أن نشير إليها تجربة المغترب، أمين

---

(١) خوسيه غارسيا ماركيز (١٩٢٧) روائي وصحفي وناشر وناشط سياسي كولمبي. عاش معظم حياته في المكسيك وأوروبا ويقضي حالياً معظم وقته في مدينة مكسيكو. نال جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢ م وذلك تقديراً للقصص القصيرة والرويات التي كتبها. كثيراً ما يعد ماركيز من أشهر كتاب الواقعية العجائبية، وكثير من كتاباته تحوي عناصر شديدة الترابط بذلك الأسلوب، ولكن كتاباته متنوعة جدًا بحيث يصعب تصنيفها كلها بأنها من ذلك الأسلوب. وتصنف كثير من أعماله على أنها أدب خيالي أو غير خيالي وخصوصا عمله المسمى حكاية موت معلن ١٩٨١ م التي تحكي قصة ثأر مسجلة في الصحف وعمله المسمى "الحب في زمن الكوليرا" ١٩٨٥ م الذي يحكي قصة الحب بين والديه. عرف عن ماركيز صداقته مع القائد الكوبي فيدل كاسترو وكذلك صداقته للقائد الفلسطيني ياسر عرفات وأبدى قبل ذلك توافقه مع الجماعات الثورية في أمريكا اللاتينية، وخصوصًا في الستينيات والسبعينيات.

(٢) جورجي أمادو دي فاريا: (١٩١٢- ٢٠٠١م)، روائي، صحافي وسياسي برازيلي، واحد من أهم كتّاب البرازيل ومن أوسعهم شهرة. منذ أيام المدرسة بدأ الكتابة، وألف مع عدد من أصدقائه في مسقط رأسه «جماعة الحداثة». وقد صار جورجي آمادو بعد انتشار أعماله الكاتب المفضل لدى شعبه. والسر في هذا النجاح هو تمسكه ببعض الأشكال التقليدية، ممزوجة بالصعلكة وطعم التقاليد العريقة في مسقط رأسه، ولاية باهيا، التي كانت بحواضرها وريفها مسرح كل رواياته، وأناسها أبطاله الدائمين.

معلوف⁽¹⁾، أمين معلوف الفائز بجائزة (جونكور الفرنكفونية) على روايته ليون الأفريقي، أحدث نقلة في الرواية العربية التي كنت قد اعتقلت في منجز نجيب محفوظ وعجزت عن تجاوزه، النبرة الإنسانية العالمية ذات الأريج الشرقي، جعلت لرواياته مكانة متميزة لدي سواء روايته ليون الأفريقي، حدائق النور، صخرة طانيوس، سمرقند، أو غيرها من أعمال معلوف.

– من المؤلفات التي أحمل لها كمًا كبيراً من الامتنان كتاب "قصة الفلسفة" لـ"ديورانت"، و ديورانت هو أبرع من سوّق الفلسفة كبراعة الأمريكيين دائمًا في التسويق، فقد ابتعد عن اللغة النخبوية الغامضة المستعصية للفلاسفة، فبعد أن كانت الفلسفة لغة نخبوية غامضة ومستعصية، استطاع في كتابه قصة الفلسفة، أن يرصدها منذ مطالع نشأتها اليونانية إلى العصر الحديث، بأسلوب علمي غير مخل، بل استطاع أن يقدم لنا الفلسفة وعصورها ورموزها ومدارسها بجرعات مستساغة، كان وما زال كتابه قصة الفلسفة من أبرز المراجع التي لابد أن أعرج عليها دوما.

– قصة الفلسفة ساقت خطواتي إلى قصة الحضارة، وهو السفر الضخم للمؤلف نفسه، والمكون من مجلدات تربو على العشرين تتبع فيها قصة الحضارة منذ نشأتها إلى عصرنا الحالي، وعلى الرغم من أن المؤلف يتخذ طابعاً مرجعياً ثقيلاً، إلى أنني شعرت بأهمية قراءته، لعدة أسباب:

١ – التسلسل التاريخي والدقة في عرضه لنمو الحضارات البشرية.

٢ – كثافة المعلومة.

٣– منظور الرؤيا الذي يختلف عن المصادر التاريخية التي اعتدت أن أستقي المعلومة منها.

---

(١) أمين معلوف: أديب وصحافي لبناني ولد في بيروت عام ١٩٤٩م، امتهن الصحافة بعد تخرجه فعمل في الملحق الاقتصادي لجريدة النهار البيروتية. انتقل إلى فرنسا حيث عمل في مجلة إيكونوميا الاقتصادية، واستمر في عمله الصحفي فرأس تحرير مجلة "إفريقيا الفتاة" أو "جين أفريك"، وكذلك استمر في العمل مع جريدة النهار اللبنانية وفي ربيبتها المسماة النهار العربي والدولي.

- ولكبر الكتاب وضخامته جعلت لنفسي برنامجاً بأن أقرأ عشرين صفحة يومياً إلى أن أتيت عليه، وربما أتى هو على نظري، هذا الكتاب للمناسبة للواتي يردن أن يطلعن عليه عبر الشبكة العنكبوتية، هناك موقع يسمى "الوراق" قد أتاح هذا الكتاب، أعتقد بصورة مجانية.

هناك مؤلف فاضل الربيعي(١) لديه تجربة متميزة، الحقل الذي يعمل فيه فاضل الربيعي غريب وغير مطروق عمومًا على الأقل في العالم العربي فهو يخرج المرويات التاريخية والتراثية من إطارها الأسطوري ويحاول أن ينقب عن جذور تاريخية لها، قرأت له.

- شقيقات قريش.

- ويوسف والبئر.

- وفلسطين المتخيلة.

- مؤرخ مختلف، وتحتوي كتبه علر كثير من المفاجآت التي تستوقفنا بعيداً عن مسائل الاختلاف والاتفاق.

- أيضًا من الكتب المتميزة والتي استمتعت بها حقيقة كتاب إدوارد سعيد "خارج المكان" out of place كتاب لابد أن نتوقف عنده لعدة أسباب.

* يغطي مرحلة مهمة من مراحل الشتات الفلسطيني ويرصد معاناة مرحلة مغيبة عن وعي الأجيال الجديدة.

* المواقع التي ينطلق منها إدوارد سعيد كمستوعب وهاضم لحضارتين.

* مساحات البوح والكشف الواسعة في الكتاب، التي تتجاوز نمطية السير الذاتية في العالم العربي التي تتخذ طابعاً بطولياً على الغالب، مفرطاً في تمجيد الذات.

---

(١) ولد فاضل الربيعي في بغداد عام ١٩٥٢م، ونشط في الميادين الأدبية والفكرية والسياسية منذ مطلع شبابه، وامتاز هذا النشاط بالتنوع والجدية ولفت اليه اهتمام وأنظار أبناء جيله. وذلك بفضل الطابع الخاص لكثير من مؤلفاته التي زاوج فيها بين الأدب والتاريخ والأسطورة والسياسة.

المستحثات:

هناك رف أسميه رف المستحثات، أو المخصبات، هذا الرف مجموعة من الكتب التي حينما أتصفحها تتقافز كلماتها أمامي، تستمطر ما جف وشحب بأعماقي، كغيمة تطلق أهزوجة فتتحفز البذار بالأسفل، فدائمًا ما يطرأ على الكاتب مرحلة كمون، مرحلة ملل، مرحلة عدم رغبة في الكتابة، فعندما أقرأ مثلاً ديوان الشافعي، أو مجموعات الشوارد، التي جمعها الوالد - أطال الله في عمره- أو ديوان المتنبي، أو كتاب "الكتاب" لأدونيس، أو أي ديوان لمحمود درويش، تنقلب الحالة المزاجية، وأدخل في أجواء الكتابة.

بيت العنكبوت:

لابد أن نعرج على بيت العنكبوت، من ينجو منه هذه الأيام من الإنترنت؟ أصبح يختلس كثيراً من وقتي اليومي المخصص للقراءة، لابد أن نعترف أن الإنترنت أصبح يختلس كثيراً من أوقاتنا، في البداية عندما أدخله لابد أن أتصفح بريدي اليومي، مع أن بريدي ممتع، وتزدوج فيه متعة القراءة والمشاهدة.

أيضًا أحاول أن أعرج على بعض المواقع مثل موقع "الوراق"، وموقع جميل آخر اسمه جهة الشعر، يشرف عليه الشاعر البحريني المبدع قاسم الحداد(١)، وصحيفة إيلاف أمر عليها مروراً سريعًا.

- فإذا خرجنا من شبكة العنكبوت اخترت خمساً من الصحف لابد أن أطلع عليها، ويبدو أن الدربة وطول العلاقة جعلتني أستطيع أن اتزحلق فوق صفحتها، وأتقافز بين زواياها بشكل لايأخذ كثيراً من الوقت، ولكنه تحول إلى طقس يومي لابد من القيام به، دونه أشعر بأنني أفتقد شيئاً، أو أنني بعيدة مقصية عن كوكب الأرض.

---

(١) ولد في البحرين عام ١٩٤٨ . تلقى تعليمه بمدارس البحرين. التحق بالعمل في المكتبة العامة ثم عمل في إدارة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام. شارك في تأسيس (أسرة الأدباء والكتاب في البحرين). شغل عددًا من المراكز القيادية في إدارتها. تولى رئاسة تحرير مجلة كلمات التي صدرت عام ١٩٨٧م، يكتب مقالاً أسبوعياً منذ بداية الثمانينات بعنوان (وقت للكتابة) ينشر في عدد من الصحافة العربية. كتبت عن تجربته الشعرية عدد من الأطروحات في الجامعات العربية والأجنبية، والدراسات النقدية بالصحف والدوريات العربية والأجنبية. ترجمت أشعاره إلى بعض اللغات الأجنبية.

المحصلة:

شارفنا على النهاية وهنا تحدق بي مجموعة من الأسئلة :

* هل أسهمت هذه الكتب في إحداث نقلة في حياتي؟

* هل استطعت أن أنجو من تأثيرها وسحرها وأستقل برؤيتي الخاصة؟

* هل طورت معجون المادة الأولية وسقته إلى مرحلة الإبداع؟

* هل استطعت أن أنشر ثقافة الاطلاع على الأقل في محيطي؟

أعتقد بأن الإجابة على هذه الأسئلة هو الذي سيحدد نجاح أو فشل تجربتي مع القراءة .

....

الأسئلة التي أعقبت العرض:

– كيف تجمعين المعلومات وتوثقينها عند كتابتك الرواية؟

أحاول دائمًا رصد الحالة الشعورية قبل أن أفقدها بما في ذلك الصور والأخيلة ، بالنسبة للمعلومات التي تتطلبها الرواية كالتواريخ والأحداث ، وتوثيق معلومات طبية احتجت لها في روايتي (الوارفة) فأنني أتقصاها من مصادرها ، ومن ثم أنسقها في ملف ، وقد لايتوقف الأمر قبل الشروع في الكتابة بل أثناء الكتابة أجد نفسي أحتاج إلى معلومة توثيقية معينة مثلاً تفاصيل وخلفية وضع تاريخي أو سياسي ، قبل أو بعد ، أرجع له من خلال مراجع مختلفة للتأكد منه وتوثيقه .

فهناك عملية تهيئة سابقة ، لا تقتصر على التوثيق المعلوماتي ، بل إنه توثيق الفكرة والمزاج .

المفارقة في أثناء عملية الكتابة أني أصنف هذه الرموز والايحاءات عبر شيفرة سرية بيني وبين الأوراق ، قد لا يعرفها القارئ الخارجي! الشيء الوحيد الذي أرشقه على الأوراق ربما التاريخ ؛ لأن التاريخ يفيدني في استرجاع المناخ والحالة والفضاء الذي قطفت منه المعلومة .

- ما الطقوس التي تمارسينها عند الكتابة؟

لابد أن أعترف أن الرواية لابد لها من طقوسية عند كتابتها، أعتقد أنها إشاعة جو من القدسية والهيبة الجليلة، قد لا يتسنى لي الانعزال في جزيرة نائية أو دير على قمة جبل كما يصنع بعض الكتاب.

لكني أطوع بيئتي لتقوم بهذا الأمر ولو إلى حد يسير، على سبيل المثال، عند كتابة روايتي (البحريات) كان لابد أن يتواجد البحر بكثافة في المحيط الصحراوي ليبوح بأسراره وتضاريسه، عندها وضعت في غرفة المكتب نافورة ماء، وكنت وأنا أكتب أستمع إلى صوت النافورة، أردت أن تكون كل مفردة مشبعة بالماء، أردت أن أستدعي روح الماء إلى الغرفة، هذا من تجربة شخصية، لابد من طقوسية عند الكتابة، لابد من مغادرة الجو العقلاني الملتزم، لابد من نوع من الانعزال وممارسة نوع من الطقوسية المرفقة بعطور وموسيقي تستجلب روح الأدب والفن وجنيات الكتابة والشعر، اللواتي لا يحضرن إلا إذا هيأنا لهن متكأ يتلائم مع طبيعتهن الحذرة الخجولة.

- ما الحل في العزوف عن القراءة؟

أصل إلى قضية العزوف عن القراءة، وأعتقد أن هذه القضية يتجاذبها أمران: الأمر الأول إذا أسرفنا في التشاؤم فنجد أنه بالفعل في حالة عزوف عن القراءة نلمحها في أبنائنا وكأن القراءة قيد أو واجب ثقيل، ويصبح المشهد مستفزاً لا نعرف له مخرجاً، على حين أن هناك جانبًا آخرًا متفائلاً للمشهد فالجيل الجديد لعل لهم أدواتهم الخاصة في المعرفة. في الاكتشاف، لعل لهم الأدوات الديجيتال، أدوات تفكيك رموز المعرفة بشكل مختلف، التي تشترك فيها الصورة، يشترك فيها الصوت، يشترك فيها الرقم، في مقاربة المعلومة بشكل مختلف، يتجاذبني هذان الأمران، لكن لا يمنع هذا أن قضية العزوف عن القراءة هذا مأزق قومي، تتعرض له الأمة، حتى أنه يعد مأزقًا على مستوى العالم، ولكن ليس بالأرقام التي تبعث على البؤس في العالم العربي، فمن يقرأ الجريدة يطلق عليه مثقف هذا في العالم العربي.

- كيف تستحثين أطفالك؟

بالنسبة لعلاقتي مع أطفالي الذين غدوا الآن رجالاً، حاولت استحثاثهم في البداية عبر النموذج عندما يروا والديهم يقرؤون حولهم، والقراءة المشتركة قبل النوم، تأسيس مكتبة منزلية خاصة بهم، طبعًا الذكور تمردوا على هذا المشروع الدؤوب ودخلوا في عوالم شاشاتهم المستقلة الخاصة.

أما ابنتي فلديها شغف كبير للقراءة نتشارك الكتب والقراءات والحديث عن القصص، أقرأ لها قبل النوم.. نجح المشروع مع الإناث وفشل مع الذكور!! أقولها بصراحة إن هناك عزوفًا لدى أبنائي الذكور عن القراءة لصالح عالمهم، عالم الديجيتال!

شكرًا لوقتكم، شكرًا لحضوركم الذي زين المشهد أمامي، باقة شكراً للمنظمات والمنظمين، كل أمنيتي الآن أن يرافقكم جزء ولو يسير مما قيل في هذه المحاضرة إلى منازلكم، وكل عام وأنتم بخير.

القراءة دون طقوس..![1]

أ. حمد بن عبدالله القاضي

عضو مجلس الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم، دعوني أحيي مكتبة الملك عبدالعزيز العامة على هذا المشروع الوطني في إحياء عادة القراءة، والجذب إليها عن طريق عرض تجارب الوراقين الذين لا يزالون يعشقون الكلمة المطبوعة والكتاب الورقي، فأنا أحيي المكتبة على هذا المشروع، وأرجو أن يستمر؛ لأن الحديث عن التجربة أبلغ من أي محاضر يتحدث بشكل تنظيري عن فائدة القراءة، وفائدة الكتاب، فالمكتبة وفقت كثيراً في مثل هذا المشروع الثقافي الوطني.

بدايةً لا أتخيل الدنيا بدون الكتاب، أو بالأحرى دون ثقافة مطبوعة، ولا أتصور العالم بدون حبر المطابع، وعطر الحبر، وليست هذه نظرة حالمة، أو لأن الحب للحبيب الأول بصفة الكتاب أول عشقي الثقافي، ولكن لأنني أؤمن حتى اليقين أن ثقافة الكتاب أبقى وأمتع وأيسر، أليس الكتاب كما قال الجاحظ في مقولة جميلة أخّاذة: "يفيدك ولا يستفيد منك، إن جد فعبرة، وإن مزح فنزهة"، فضلاً عن أن الكتاب من نافذة أخرى مطواع بين يديك، تقرأه وتفيد منه، وتستمتع به وأنت جالس على الأرض، أو مسافر في طائرة ودون أي وسيلة أو وسيط أو واسطة، إنك لا تحتاج إلى تيار كهرباء، ولا إلى طقوس وطريقة جلوس معينة للإفادة منه، بخلاف كل الوسائل المعلوماتية الحديثة التي تحتاج إلى شاشات حاسوبية، وجلسة خاصة، وأماكن محددة، وطاقة كهربائية، وغيرها.

---

[1] ألقيت هذه المحاضرة، مساء الثلاثاء ٤ صفر ١٤٣١هـ، الموافق ١٩ يناير ٢٠١٠م. بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع..

بدأت رحلتي الشخصية والمعرفية مع الكتاب، منذ عرفت نفسي، لقد نشأت وفي يدي الكتاب، إنني منذ عهد الصبا في مدينة الوادي عنيزة، وأنا أسعد بمرافقة الكتاب وصحبته، لقد بدأت رحلتي في عشق الكتاب من أول نظرة، لقد كنت محظوظًا؛ إذ نشأت وعلى مقربة مني مكتبة وكتاب وصحف ومجلات، وأساتذة ورفاق يحفزونني على القراءة ويجذبونني إليها.

لقد كان أول كتاب قرأته كما كان يقرأه أندادي في ذلك الوقت كتاب المنفلوطي "النظرات"، ولهذا الكتاب، وكتب المنفلوطي تحديدًا، أثر كبير على حرفي في ميدان الكتابة ذات الصبغة الرومانسية، ثم بدأت بقراءة الكتب الأدبية وخاصة كتب طه حسين، والعقاد، ومارون عبود(١)، وقد كان مارون عبود يشدني بأسلوبه، وقد كان له فضل في توجهي للكتابات النقدية، والأدبية في بداية دخول عالم الكتاب والصحافة.

ثم بعد انتقالي إلى مدينة الرياض للدراسة الجامعية، اتجهت إلى قراءة الشعر، وكان للشاعر السعودي المعروف الأستاذ أحمد الصالح (مسافر)(٢) أثر في هذا الانحياز للشعر، هواية بادئ الرأي، وقرضًا ونشرًا، ثم عشقًا وقراءة.

لقد كنت من قبيلة الشعراء، وأصبحت الآن من الغاوين التابعين لهم، لقد بلغ من حبي للشعر وتذوقي للجيد منه، أن لدي ملفًا أخضر اخترت فيه قصائد من أجمل الشعر الذي قرأته، وأصبحت أصطحبه معي في أسفاري عندما تكون السفرة طويلة،

---

(١) مارون عبود: (١٨٨٩ - ١٩٦٢م)، كاتب وأديب لبناني كبير.. ولد في عين كفاع (من قرى جبيل). أديب وناقد وصحفي، وقاص وروائي وشاعر، وكاتب مسرحي، ومؤرخ للأدب، ومرب ومترجم، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وشيخ أدباء لبنان وعميدهم، وزعيم من زعماء الفكر والأدب والفن،..

(٢) من مواليد مدينة عنيزة بمنطقة القصيم في المملكة العربية السعودية عام ١٣٦١هـ، حصل على بكالوريوس تاريخ من جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٣٨٤هـ. عمل في عدة وظائف حكومية إلى أن وصل به المقام في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية حيث عمل مديراً عاماً للشؤون الإدارية. عام ١٩٨٩م. صدر له: عندما يسقط العراف ١٣٩٨هـ؛ وقصائد في زمن السفر (ديوان شعر) ١٤٠٠هـ؛ وانتفضي أيتها المليحة (ديوان شعر) ١٤٠٣هـ.. شارك في كثير من الصحف والمجلات المحلية بقصائده ومقالاته، كذلك شارك في عدد من المهرجانات والندوات والأمسيات الشعرية داخل المملكة وخارجها.

وقد أرشدني الأستاذ أحمد الصالح في بداية تعلقي بالشعر إلى بعض الدواوين الشعرية لشعراء المهجر، وإلى عدد من الشعراء، إبراهيم ناجي(١)، عمر أبوريشة(٢)، غازي القصيبي(٣)، محمد حسن فقي(٤)، وبدوي الجبل(٥)، وإبراهيم الدامغ(٦)، وغيرهم.

في الفترة الأخيرة أضحى لدي اهتمام ومتابعة الكتب ذات الطابع الاجتماعي

---

(١)إبراهيم ناجي : (١٨٩٨– ١٩٥٣م) تخرج الشاعر من مدرسة الطب، ثم عين طبيبًا . نهل من الثقافة العربية القديمة فدرس العروض والقوافي، وقرأ دواوين المتنبي وابن الرومي وأبي نواس وغيرهم من فحول الشعر العربي، كما نهل من الثقافة الغربية فقرأ قصائد شيلي وبيرون وآخرين من رومانسيي الشعر الغربي. بدأ حياته الشعرية حوالي عام ١٩٢٦ عندما بدأ يترجم بعض أشعار الفريد دي موسييه وتوماس مور شعراً وينشرها في السياسة الأسبوعية ، وانضم إلى جماعة أبولو عام ١٩٣٢م . من دواوينه الشعرية : وراء الغمام (١٩٣٤م) ، ليالي القاهرة (١٩٤٤م)، في معبد الليل (١٩٤٨م) ، الطائر الجريح (١٩٥٣م) ، وغيرها . كما صدرت أعماله الشعرية الكاملة في عام ١٩٦٦م بعد وفاته عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

(٢) عمر أبو ريشة : (١٩١٠ – ١٩٩٠م)عمل سفيراً لبلاده سوريا في عدة دول (الأرجنتين والبرازيل وتشيلي والسعودية). كانت كارثة فلسطين بعيدة الأثر في نفسه فله شعر في نكبة فلسطين كثير وله ديوان باسم (بيت وبيتان) وديوان باسم (نساء) وله مسرحية باسم (علي) ولأخرى باسم (الحسين) ومسرحية باسم (تاج محل)وله ديوان باسم (كاجوراو)ومجموعة قصائد باسم (حب) ومجموعة شعرية باسم (غنيت في مأتمي)، وله مسرحية شعرية سمها (رايات ذي قار) أنشأها قبيل عشرين سنة وجعلها في أربعة فصول وله مسرحية باسم (الطوفان) وله ملحمة (ملاحم البطولة في التاريخ الإسلامي) وهي اثني عشر ألف بيت وله ديوان شعر باللغة الإنجليزية٠ وقد جمعت قصائده في مجموعة كاملة تحمل اسمه .

(٣) غازي القصيبي : (١٩٤٠– ٢٠١٠م)، من رواد الشعر العربي والسعودي، من دواوينه الشعرية ورود على ضفائر سناء؛ للشهداء؛ الأشج؛ سلمى؛ قراءة في وجه لندن؛ يا فدى ناظريك؛ واللون عن الأوراد؛ سحيم؛ الإلمام بغزل الفقهاء الأعلام : مختارات شعرية؛ بيت : مختارات شعرية –في خيمة شاعر(١+٢) : مختارات من الشعر العربي، ثم حديقة الغروب. له عدد من الروايات المشهورة، مثل : العصفورية؛ شقة الحرية؛ رجل جاء وذهب؛ سلمى؛ حكاية حب؛ سبعة؛ سعادة السفير : العودة سائحًا إلى كاليفورونيا؛ هما : حكاية الرجل والمرأة.

(٤) محمد حسن فقي : (١٩١٤ – ٢٠٠٤م) شاعر الرومانسية في الحجاز، ومن الرعيل الثاني في نهضته الأدبية. من مواليد مكة ومن طلائع الصحفيين بالحجاز. تلقى علومه بمدرستي الفلاح بمكة المكرمة، وجدة، وتخرج من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة. عمل أستاذًا للأدب العربي فترة قصيرة بمدرسة الفلاح، ثم عين رئيسًا لتحرير جريدة (صوت الحجاز)، ثم انتقل للعمل بوزارة المالية والاقتصاد الوطني فقضى شطرًا كبيرًا من حياته متنقلاً في وظائفها، إلى أن عين مديرًا عامًا بها، وبعد ذلك عين سفيرًا للمملكة في أندونيسيا أيام مؤتمر (باندونج)، فنائبًا لرئيس ديوان المراقبة العامة بالرياض، ثم طلب الإحالة للتقاعد للتفرغ لأعماله الخاصة. له مؤلفات منها (نظرات وأفكار في المجتمع والحياة "في جزئين")، و(وهذه هي مصر)، و(فيلسوف)، و(مذكرات وأفكار حول الحياة والأجيال)، و (مجموعة قصصية)، و (بحوث إسلامية). .

(٥) بدوي الجبل : هو محمد سليمان الأحمد (١٩٠٥–١٩٨١م)، من أعلام الشعر المعاصر في سوريا. تولى عدة وزارات منها الصحة ١٩٥٤ والدعاية والأنباء. غادر سوريا ١٩٥٦ متنقلاً بين لبنان وتركيا وتونس قبل أن يستقر في سويسرا. عاد إلى سوريا ,١٩٦٢ معظم شعره وطني وقومي، ولكنه نظم أيضًا الكثير في الغزل.

(٦) إبراهيم الدامغ : من مواليد عنيزة عام ١٩٣٨م، من دواوينه الشعرية : شرارة الثأر؛ ظلال البيادر؛ ملحمة خالد بن الوليد (ديوان شعر).

والثقافي والتاريخي، وخاصة الكتب التي تجسد سماحة الإسلام بطرح مضيء، وبأقلام مفكرين ذوي رؤية مستنيرة، مثل الشيخ محمد الغزالي، والأستاذ خالد محمد خالد، رحمهما الله، وتحديداً كتاب الأستاذ خالد محمد خالد "رجال حول الرسول" هذا الذي تحس وأنت تقرأه أنه يكتب شعراً منثوراً لا تاريخًا ومعلومات.

من الكتب التي قرأتها في الآونة الأخيرة وتأثرت بها في هذا السياق، كتاب "رفع الحرج في الشريعة الإسلامية" لمؤلفة الشيخ صالح بن حميد، الذي جسد مؤلفه سماحة الإسلام بمنهج علمي، وبأسلوب مقنع، ومن الكتب التي قرأتها وتأثرت بها كتاب الدكتور غازي القصيبي المعروف "حياة في الإدارة" فهو من أفضل الكتب التي كشف فيها عن أن الإدارة فن، وأن النجاح فيها إرادة وإبداع وتجاوز للعقبات، أما آخر كتاب قرأته فهو بعنوان "أفول شمس: أربعون عامًا في صحبة والدتي" للدكتور عبدالله الطيار، لقد تأثرت بهذا الكتاب، وكانت بعض الدمعات الحارة تسقط من عيني وأنا أقرأه، أقرأ فيه حنان هذه الأم ورقتها، وقصصًا تتعلق بارتباط ووفاء وبر هذا الرجل بوالدته، حتى إنه تخلى عن منصب وكيل وزارة بالرياض وذهب إلى الزلفي ليكون بجانب والدته، رحمها الله.

إنني أنهزم أمام أي شأن يرتبط بالأم والوفاء لها، لقد أضحيت أقرأ أي شيء يكتب عن الأم شعراً ونثرًا، بعد رحيل والدتي رحمها الله ورحم أمهاتكم أمي التي فضلت بقائي على بقائها وهي على سرير المرض، جعل الله الفردوس الأعلى في الجنة مثواها، وقد أهديت لها أغلى كتبي الذي سيصدر قريبًا إن شاء الله.

أصل إلى علاقتي بكتب التراث، لم أنفصل عنها بحكم دراستي أولاً ثم اهتمامي وعشقي للتراث، ومن الكتب العجيبة في تراثنا، ذلك الكتاب الذي قرأته، والذي أدركت بعد قراءته، كم هو تراثنا غني وعظيم وثري، أعني كتابًا يسمى "الشرح الوافي" هذا الكتاب، لا تتجاوز صفحاته (٢٤٠) صفحة، ولكنه يحتوي على خمسة علوم هي الفقه، والعروض، والتاريخ، والنحو، والقوافي، قدمه مؤلفه إسماعيل

المقري، رحمه الله، على شكل جداول منسقة وجميلة، وأدعو هنا إلى تقديم تراثنا بطريقة عصرية، وربطة بإيقاع عصرنا وهمومه، لشد الناس والجيل الجديد خاصة إليه، وهنا لابد من تقديم الامتنان لمعالي الأديب الدكتور عبدالعزيز الخويطر، الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في تقديم تراثنا بطريقة عصرية مغرية عبر كتاب جميل " بني" في خمسة أجزاء، وعبر موسوعات "إطلالة على التراث" خمسة عشر جزءًا.

أتوقف عند عنوان أسميته القراءة وأثرها في حياتي، هنا أتحدث عن مردود القراءة في حياتي وعملي من خلال تجربة حية عشتها، وكان للقراءة العامل الأبلغ في أحد مسارات حياتي المفصلية، أنا أقول هذه القصة باختصار؛ لأنه في تقديري تعطي أثر القراءة، ليست القراءة مجرد ثقافة، أو توسيع ثقافة الإنسان، أو زيادة معلوماته؛ لكن لها أثر على الإنسان من خلال قراءة تجارب الآخرين، كنت في بداية حياتي العملية أعمل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وكنت مع زميل نعمل في قسم واحد، ثم جاءنا عرض أن ننتقل من وزارة العمل إلى تلك الجهة التي طلبتنا، كان صديقي وزميلي في العمل وفي الغرفة نفسها متحمسًا لهذا النقل، أنا طلبت إليه أن يتريث في الأمر؛ لسبب أنني كنت مرتاحًا في هذا العمل، نعم كان هناك إغراء مادي أن نذهب لتلك الجهة وهي في القطاع الخاص، ولكنني قلت سأنتظر، وخلال ثلاثة أيام وأنا في حيرة، كنت أقرأ في سيرة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقف عند مقولة له: "من بورك له في أمر فليلزمه"، وجلست أنظر هل أنقل، وأنا الآن مرتاح في العمل، ربما لا أجد البيئة الجيدة، ربما . . ربما، بعد أن قرأت هذه المقولة لسيدي عمر بن الخطاب؛ قررت ألا أنتقل؛ لأنني كنت فعلاً مرتاحًا، وأزعم أنه مبارك لي في هذا العمل، رغم الإغراء الآخر، ولم أنتقل، وانتقل زميلي، ولم يرتح في أمر انتقاله، وظل ينتقل من جهة إلى جهة، رغم أنني حاولت أن أقنعه برأيي، وكنت أقول له طالما أننا مرتاحون في العمل لماذا ننتقل، ولا ندري عن الجو الآخر الذي سوف ننتقل إليه، لكنه رأى أن ينتقل، ولم يوفق، وقد حاول أن يعود إلى عمله

الأول معي، وعاد لكن بعد أن فاتته فرص كثيرة ، وقد أوردت هذه القصة لكي أقول : إن القراءة ليست فقط وسيلة لتوسيع مدارك الإنسان الثقافية بأن تضيف إليه معلومات، بل تفيده في حياته .

أزعم أن كثيراً منكم ربما قرأ قصة أو حكمة أو بيت من الشعر ، وكان لها تأثير على مسار حياته، وهذا الذي أعتقد أنه يقنع الجيل الجديد بالقراءة .

أرأيتم أن القراءة ليست تزجية وقت أو مزاج ترف، أو أنها مجرد ظفر بمجرد معرفة علمية أو معلومة نظرية فقط، ولكن كما سمعتم تجارب حياة، بل أستطيع القول : إن المعرفة التي تتولّد عن القراءة، قد تكون طوق نجاة من سلوك طريق قد يؤدي إلى الفشل في الحياة، بل قد تكون بطاقة حجز في نادي النجاح .

إن الكتب خزائن تجارب لمفكرين وحكماء أبلوا في الحياة ونقلوا تجاربهم لنا فنفيد منها في حياتنا وسلوكنا .

كيف أقرأ؟ أسمع عن بعض الناس أن لهم أجواءً وطقوسًا عند القراءة والكتابة، فبعضهم يكتب أو يقرأ وهو داخل حديقة مزهرة، وبعضهم وهو يستمع إلى طيور مغرّدة، وبعضهم يقرأ ويكتب في جو صاخب كالحراج، وآخرون وهم يصغون إلى صوت تلك الفنانة أو ذلك الفنان، وفي زعمي أن القراءة أو الكتابة عندما نضع لها مثل هذه الشروط تفقد أريحيتها وبساطتها، بل ربما عمقها؛ لأن الإنسان ينشغل بالشكل عن جوهر القراءة، أنا شخصيًا لم أحظ بشرف تلك الاشتراطات، سواء عندما أقرأ أم أكتب، ولهذا فليس عندي طقوس أو أجواء معينة عندما أكتب أو أقرأ، المهم ألا يكون هناك أصوات مزعجة تشغلني وتشاغلني من أناس أو تلفزيون أو غيرهما .

وبالنسبة للكتابة؛ فالأهم أن تكون الفكرة حاضرة في ذهني حتى أستطيع نقلها على الورق، سواء كنت أسمع تغريد عصفور، أم نحيب بوم. . . ، سواء كنت في حديقة مورقة، أم صحراء موحشة. . . ، سواء كان أمامي فتاة حسناء أم عجوز شمطاء. إن الكتابة تحديداً تكون عصية أحيانًا، سواء أكنت على عرش من حرير، أم

على كرسي من جريد؛ ألم يقل الدكتور غازي القصيبي عن أحوال الكتابة في أبيات جميلة، أقرأ هذه القصة، قصة أبيات الدكتور غازي القصيبي، الأديب . . أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل(١) كان يكتب زاوية في المجلة العربية، عنوانها "تباريح"، وبدأ الشيخ أبو عبدالرحمن يتأخر في إرسال هذه الزاوية، وكنت أنا والزملاء في المجلة نلاحقه في كل مكان، مرة في المسجد، ومرة نائم، ومرة في جلسته، ومرة مشغولاً في سماع صوت أم الوليد، وكان لابد أن تصدر المجلة العربية في موعدها، وكنت حريصاً على زاوية الشيخ أبي عبدالرحمن "تباريح"، وظللنا نتابع ولكنه لم يرسلها، وكان لدينا عقد مع المطابع، يجب أن نسلم الملازم في مواعيد محددة، فتأخر، وأحيانًا نضطر أن ننشر أشياء قديمة له، فعندما صعب الأمر معه، كتبنا وريقة: يا شيخ أباعبدالرحمن نعتذر عن زاويتك واستمرارها بحكم ظروفك! فغضب الشيخ أبو عبدالرحمن غضبًا جميلاً، وكتب مقالاً لعله من أجمل ما كتب، وتفاعل معه الدكتور غازي القصيبي وعدد من الأدباء، فكان عنوانه وقد نشر في جريدة الجزيرة: "تباريح والفصل والقاضي".

وذكر ظروفه، وهو مقال مؤثر جدًا. قرأه علي النجعي(٢) في الإذاعة، وكما قال أبو عبدالرحمن في تعليقه إنه تهدج صوته، وكتب اللواء عبدالقادر كمال قصيدة،

---

(١) أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري: هو محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عقيل، من مواليد مدينة شقراء عام ١٣٥٧ هـ. عالم بالقرآن وتفسيره وعالم بالأحاديث النبوية الشريفة: صحيحها وضعيفها، وفقيه وأصولي وأديب ومتقن لعلم الكلام والفلسفة. اشتهر الشيخ ابن عقيل باهتمامه بكتب الإمام علي بن حزم الأندلسي تحقيقًا وترجمةً. يسمى بالظاهري لانتسابه للمدرسة الظاهرية والتي يتمسك أتباعها بالكتاب والسنة وفق رؤيتهم، وينبذون الرأي كله من قياس واستحسان. تتلمذ ابن عقيل الظاهري على مجموعة من العلماء، من أشهرهم: فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؛ وفضيلة الشيخ عبد الله بن حميد.

من مؤلفات ابن عقيل الظاهري: من أحكام الديانة؛ وتخريج بعض المسائل على مذهب الأصحاب؛ وشيء من التباريح؛ وتباريح التباريح؛ وتخريج حديث "لا صلاة للفذ خلف الصف"؛ وتحقيق بعض المشكل من حديث "الصيام جُنة"؛ وكيف يموت العشاق؛ ونظرية المعرفة؛ والمرأة وذئاب تخنق ولا تأكل؛ والإمتاع بنَسْق الذخائر عن بَشْق المسافر وأي أيام الأسبوع هو الآخِر؟؛ ويا ساهر البرق لأبي علاء المعري (تحليل وتفسير)؛ وعبقرَية ابن حزم؛ و ابنَ حزم خلال ألف عام.

(٢) علي النجعي: إعلامي سعودي، وكيل وزارة الإعلام لشؤون التلفزيون السابق.

وقد جمع هذه السجالات في كتاب أسماه "تباريح"، وأتوقف عند قصيدة الدكتور غازي، وقد أوردتها لأنه فيها يعتذر عن أبي عبدالرحمن بن عقيل ويلومني، ويدافع عنه، ومن ضمنها بيت جميل يعاتب فيه ويقول :

تبغي الكتابة في ميعادها عجلاً   إن الكتابة أنثى ذات تبريح

وسوف أقرأ هذه الأبيات التي يعتذر فيها الدكتور غازي القصيبي لأبي عبدالرحمن، ويعاتبني، وعلى كل عادت الزاوية بعد هذا السجال، يقول الدكتور غازي :

تبغي الكتابة في ميعادها عجلاً
إن الكتابة أنثى ذات تبريح

لها مزاج غريب في تقلبها
فهل رأيت مزاج النار والريح

جميلة تتأبى حين تطلبها
فؤادها القفل مسلوب المفاتيح

إن التباريح للقراء فاكهة
تجلو عناء كتابات "السناكيح"

فيا لها شذراً استودعت عبراً
مملوءة صوراً توحي بما توحي

ويا لها نتفاً ريانة ترفاً
مضيئة شرفاً مثل المصابيح

يا ابن القضاة رجاءً من أخي مقَة
يزَجي إلَيك ومن أولى بتنجيح

أعد إلينا تباريحاً نسر بها
فربما سر صَبٌّ بالتباريح

فكما قلت عادت هذه الزاوية، وعاد أبو عبد الرحمن إلى زاويته وإلى كتاباته بالمجلة .

أتوقف هنا عند الكلمة المطبوعة، أو الكتاب الورقي في منافسة الوسائط الأخرى، أنا أطمئن نفسي وربما غيري من عشاق الكلمة المطبوعة، أنه علر الرغم من تفجر المعلومات عبر قنوات المعرفة الحديثة؛ فقد ظل وسيظل الكتاب مطلوبًا، وستبقى الكلمة المطبوعة معشوقة، وأنه لا تقاطع إطلاقًا بين الكتاب الورقي والصحيفة المقروءة، والكتاب الرقمي، وبين وسائط المعرفة الأخرى، من فضائيات ومواقع إلكترونية، ومنتديات ومدونات، وكتب وصحف رقمية، بل إن ما بينهما هو تكامل.

إن هذه الوسائط قد تغري بالكتاب، وتشكل تحفيز الإقبال عليه، أقول هذا من خلال ما أعيشه بوصفي وراقًا، وأشاهد الإقبال عليه يتنامى رغم الصوارف المعرفية، فضلاً عن سهولة مطالعة الكتاب أو الصحيفة المقروءة دون مواصفات معينة، كما ذكرت سابقًا، سواءً في طريقة الجلوس، أم توفر أجهزة، وتبقى الناحية التوثيقية في الكتاب محفوظة، يمكن أن يعاد إليه مهما طال الزمن، بخلاف المعلومة التي قد تطير في الفضاء، أو يسلبها أو يمسحها ما أسميهم قطَّاع الطرق في عوالم الحواسيب ودهاليز الإنترنت، ولنرى ما تقدمه المطابع، وما تمتلئ به المكتبات التجارية، ولم يكن هناك قارئ لما طبعت صحيفة أو مجلة، ولما نشر أو وزع كتاب.

المهم أن يتوافر الكتاب الجيد؛ ليوجد القارئ، المتابع، وليس هناك في هذه الحياة شيء ينفي شيئًا؛ فالإذاعة لم تنف الكتاب، والتلفزيون لم يطرد الإذاعة، وكذا الحاسب الآلي والإنترنت، فلكل عشاقه، بل إن هناك تكاملاً بين هذه الأدوات الثقافية، لا إقصاء لأحد منها، وكل يحصل على المعلومة عن طريق الأداة التي يميل إليها، (وكل ينام على الجنب الذي يريحه!)، كما يقول المثل الشعبي.

كل إنسان يأخذ ثقافته أو المعلومة التي يردها من الوسيط أو الوسيلة التي يرتاح إليها، أو يجد أنه يفيد منها، ومن جانب آخر المنتديات والمواقع في الإنترنت تحفّز على القراءة، بل هي نوع من القراءة، فتعطي تعريفًا بالكتب والصحف والمجلات، فأنا لا أنظر لها نظرة سلبية، القضية، كما قلت: هي تكامل، وليس هناك تقاطع بين

أي وسيلة ثقافية سواء الإنترنت أو الكتاب المطبوع، أو الفضائيات، المهم أن نغرس الثقافة ونعيش مع الكلمة.

أتحدث عن فضل الكتابة في عشقي للقراءة، وأجدني مدينًا في مصادقة الكتاب لممارسة الكتابة ومرافقة القلم؛ فالكاتب لابد أن يقرأ ويقرأ، وقد كانت بدايتي في عالم الكتابة، كتابات وخواطر ذاتية، ثم اتجهت إلى الكتابة الأدبية، وبعدها توجهت إلى الكتابة في الشأن الاجتماعي والوطني، وودعت الكتابة في الفضاء الأدبي إلا نادراً، ومع الأسف فالأدب الذي أدخلني إلى عالم الصحافة جاءت هذه ناكرة الجميل فأخرجتني من نعيم الكتابة الأدبية إلى دهاليز الكتابة العامة، بكل شؤونها وشجونها وتجاذباتها!

وسأروي قصة لمعالي الدكتور غازي القصيبي عندما كان وزيراً للصناعة والكهرباء، سافرت معه في رحلة إلى مصر وكان هو مهمة رسمية، وقد سافرت معه كصديق، كان لديهم مؤتمر عن الصناعة، وكنا عندما نأتي من المؤتمر إلى الفندق كان الدكتور غازي يجلس معنا نحو نصف ساعة في صالة الفندق ثم يصعد إلى غرفته، وكنا نسأله، فكان يجيب أنه لشح الوقت في الرياض فقد أتيت معي بكتب من الرياض وكتب اشتريتها من القاهرة، ومتعتي أن أقرأ، وكنت أنا ومعنا الدكتور عبدالرحمن الزامل، كان نائب محافظ الكهرباء، كنا جميعًا نستغرب هذا الطرح، وكنا نعتقد أن الذي يسافر يجلس في الفندق يشاهد الناس يستمتع بوقته بشكل أو بآخر دون القراءة، لكن في السنوات الأخيرة اقتنعت برؤية الدكتور غازي القصيبي، ففعلاً القراءة متعة لا أقول لا يعادلها متعة، ولكنها من أمتع ما يمر على الإنسان، ففي الرياض أحاول أن أوجد الوقت للقراءة قدر ما أستطيع، ولكن عندما أسافر أقرأ أكثر!

أتحدث عن إشكالية أعتقد أنها تواجه كلَّ مَنْ يعشق القراءة، تلك هي قضية شح الوقت، الآن على الرغم من وسائل التقنية من السيارات والطائرات .. وغيرها، إلا أن الوقت صعب في المدن الكبرى مثل مدينة الرياض، الإنسان يتألم عندما يمضي يوم

لا يقرأ فيه، وخاصة بعد وجود الوسائط الأخرى، فهذه الوسائط لها مكانة، الفضائيات. . الإنترنت. . وتأتي أيضًا المناسبات الاجتماعية؛ فأمنيتي، حقيقة، أن أفرغ لكي أقرأ! عندما أشتري كتبًا، أو تهدى إليّ كتب؛ ألقي عليها نظرة كأنها جثامين، ثم كأني أضعها في المقبرة؛ لأنتظر الوقت الذي قد يأتي وقد لا يأتي، فكل عاشق للقراءة أعتقد مشكلته مع الوقت، ومن جرَّب القراءة وكلكم عشاق للقراءة ليس لها بديل في الحقيقة، الشاعر محمد بن عثيمين(١) رحمه الله له بيت جميل يقول:

جعلت سميري حين عزَّ مسامري   دفاتر أملتها العقول النوابغ!

كون الإنسان يتفرغ للقراءة، هذه أمنية لكل إنسان منَّا؛ فدعونا نعيش على الأمل، كما قال الشاعر:

منىً إن تكن حقًا تكن أسعد المنى   وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدا

وبعدما تركت "المجلة العربية" - بقناعة مني- تصورت أن الوقت أزف لأتفرغ للقراءة - التي رأيت أنني قدمت ما أستطيع من جهد حيالها، وبحمد الله تعالى، صار لها وضع جيد، والفضل الأول لله، ثم لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ،(٢) رحمه الله، مؤسسها، والذي كان كأنه رئيس تحرير لها، كان هناك بعض الزوايا في المجلة، مثل صور نادرة، اقترحها الشيخ حسن، استكتاب كبار الشعراء، من أمثال محمد حسن فقي، وغيره، كان الشيخ حسن هو الذي يكتب لهم، أنا ربما استثمرت بعض علاقاتي مع بعض الكتاب مثل معالي الدكتور الخويطر، والدكتور

---

(١) محمد بن عبد الله بن عثيمين: (١٨٥٤ - ١٩٤٤م). شاعر نجدي، من أهل (حوطة تميم)، اشتهر في العصر الأخير بشاعر نجد، ومولده في بلدة السلمية (من أعمال الخرج، جنوبي الرياض)، له (ديوان جمعه سعد بن رويشد، وسماه (العقد الثمين).

(٢) معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ: (١٣٥٢هـ - ١٤٠٧هـ)، وزير المعارف الأسبق. ولد في المدينة المنورة. تولى عددًا من الحقائب الوزارية: المعارف والصحة والتعليم العالي. أنشأ المجلة العربية وكان المشرف العام لها، وكان يخصها بمقالاته وبحوثه وأفكاره تحت عنوان(خطوة على الطريق الطويل). أثرى الصحف والمجلات بالكلمات الهادفة التي يكتبها تحت عنوان (كفاحنا)؛ له عدد من المؤلفات، منها: كرامة الفرد في الإسلام؛ ودورنا في الكفاح؛ معاملة الإسلام للمرأة؛ والتنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية؛ وخواطر جريئة؛ وخواطر على الطريق الطويل.

غازي القصيبي، شيخنا أبوعبدالرحمن بن عقيل، الأستاذ عبدالله الجفري، (١) رحمه الله، والأستاذ عبدالله خياط(٢)، وغيرهم، فالفضل لله أولاً ثم للشيخ حسن آل الشيخ، الذي كان حينما تتأخر المجلة العربية في المطبعة، كان يقول لي أرسلها لي حتى ولو في وقت متأخر من الليل!

وكنت بالفعل أرسلها له، وكان هناك رجل فاضل له علاقة بالشيخ حسن، كان يقول إن الشيخ حسن ينتظر المجلة حتى تأتيه، ثم يأتي بملحوظات وآراء ويدعمها دعمًا كبيرًا، رحمه الله، وقد سرت على هذا النهج على حسب جهدي، والحمد لله صار للمجلة العربية انتشار في الداخل والخارج، وصار لها كتاب، وعنيت بأدب المرأة، كان لدينا زاوية أو باب "دراسات في أدب المرأة السعودية" ولا أقول إنها غير موجودة في ذلك الوقت قبل عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة، لكن كانت الدراسات قليلة عن أدب المرأة، وكنا نحاول أن نقدم صورة عن أدب المرأة السعودية وثقافتها، وكما تعرفون أن هناك صورة مشوهة عن الثقافة السعودية وعن المرأة المثقفة السعودية تحديدًا، وقد طبع ذلك في كتاب، أصدره الأستاذ راشد عيسى وهو كاتب، وكنت أعطيه بعض الكتب، وفي بعض الأحيان كنت أجمع له بعض القصص وبعض الروايات ليكتب عنها، فأنا رأيت أنني قدمت ما أستطيع في المجلة العربية، فضلاً أن مشاغلي الأخرى كثيرة، من مجلس الشورى، ومؤسسة الشيخ حمد الجاسر، كأمين عام مجلس الأمناء، كتاباتي، التزاماتي الاجتماعية، أيضًا لدي كتب أردت أن أنجزها، لكن الغريب أني توقعت أن يتوافر الوقت، لكنه لم يتوافر!

فلدي كتبي تحتاج كثيرًا من الوقت ومنذ أن تركت المجلة لم أستطع إنجازها؛ فمشاغل الإنسان كثيرة، أما الآن فالمجلة العربية تسير في مسار جيد، وطبعًا لكل

---

(١) عبد الله عبد الرحمن الجفري: (١٩٣٩-٢٠٠٨م) من رموز الصحافة السعودية، أديب له كثير من المؤلفات التي استحقت تقدير القراء خلال مشواره الحافل بين العطائين الصحفي والإبداعي، واتجه الجفري في الخمسة عشر سنة الأخيرة من عمره لكاتبة المقالات اليومية وابتعد عن الركض في ديوان صاحبة الجلالة، وقد كتب الراحل في صحيفة الحياة وعكاظ والبلاد، زواية يومية، إضافة لعدد من الزوايا الأسبوعية في مجلات عربية تصدر في لندن.

(٢) عبد الله خياط، ولد عام (١٩٤٠م) كاتب وأديب سعودي معروف. ترأس تحرير عدة صحف محلية، منها: جريدة البلاد وجريدة عكاظ. يشغل عدة مناصب مهمة منها عضو مجلس إدارة مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر له.

شيخ طريقته، أنا وزملائي عندما كنت في المجلة كنا كل سنة نعمل شيئًا من التطوير، فمن الطبيعي أن يكون هناك تطوير، ولكن المشكلة التي تعانيها المجلة العربية سواء في وقتي أم الآن هو الموضوع الذي أتحدث عنه هو قضية القراءة، قراءة المجلة المطبوعة أو الكتاب الورقي، هذه قضية، كيف نجعل الناس يعودون إلى الكلمة المقروءة، هذه قضية شائكة، ولعل مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بمثل هذه التجارب تغري الناس بالقراءة بدلاً من انصرافهم عنها.

وقد أخذت إجازة في فترة من الفترات لمدة شهر عن الكتابة، وفعلاً ظللت أقرأ، لكن إذا كنت ملتزمًا مع صحيفة، وملتزماً مع القارئ، ربما عندما تترك الكتابة من الصعب أن تعود إليها، مثل اللاعب حينما يترك اللعب حينما يعود يحتاج إلى تسخين، الكتابة كما أشرت تحفزك إلى القراءة، لكن استمرار الكتابة والمداومة عليها تؤثر على جودة المنتج الثقافي، لكن الكتابة تحفزك على القراءة، أنت تكتب لكي تستفيد منه، لكن الاستمرار في الكتابة يؤثر بشكل أو بآخر على عطاء الكاتب.

بقيت النقطة الأخيرة، كيف نجعل الناشئة يقبلون على الكتاب؟ أنا أعتقد أن قضية أن ننصح بالقراءة ونوعية ما يقرأ، هذا أمر لا يجدي، أنا أريد من أي ناشئ يقرأ في أي مجال، يقرأ صحيفة، يقرأ في الثقافة، يقرأ في الاقتصاد، يقرأ في الرياضة، المهم أن يقرأ، عندما يقرأ سيجد نفسه في يوم من الأيام مشدودًا إليها، أيضًا لا نقول له: لا تقرأ إلا كتاباً أو جريدة مطبوعة! يمكن أن يقرأ عبر الإنترنت، لكن كما تعرفون عندما تجلس لتقرأ عبر الشاشة تشعر بالتعب، ولا تغريك أن تستمر في القراءة، ولكن الكتاب كما أشرت أسهل ويختصر وقت الإنسان، لكن كما حدثني صديق يقول: إن ابنين من أبنائي صارا مولعين بالقراءة، يقول: كنت آتي بالكتب ولا أقول أغريهم، ولكن أضعها في غرفهم، أو في مكان جلوسهم، ثم بدؤوا شيئًا فشيئًا، حتى إن أحدهم وهو في الصف الثاني الثانوي أصبح يطلب إليَّ بعض الكتب عندما أسافر، ويقول هذا الصديق لم أقدم له النصيحة مباشرة بضرورة القراءة، ومن أن القراءة مفيدة، وهي بالفعل مفيدة، ولكن كيف تقنع الناشئ أن يقرأ؟

ولا تناقض أن يقرأ عبر الحاسب، أو يقرأ عبر الكتاب، أو الصحيفة، ولكن الناحية التوثيقية أكبر عندما تقرأ في كتاب؛ فأنت حينما تكتب مقالاً، أو تؤلّف كتابًا، من الصعب أن تقول: إنك رجعت إلى الموقع الفلاني عبر الإنترنت، هذا ربما يمسح، أو يلغى الموقع، لكن المعلومة تكون موثقة حينما تقول في الكتاب الفلاني في الصفحة رقم كذا.

وبالنسبة لمن يفترض أن القراءة، تعزل القارئ عن مجتمعه، فالمشكلة ليست في الكتاب المطبوع، الآن الوسائط الحديثة مثل البلاك بيري، البلاي ستيشن، الإنترنت، هي التي تعزل أكثر، على الأقل أنت تنعزل عن الناس عندما تقرأ في كتاب، لكن العزلة تأتي للشباب وهم مع الناس، تجدهم في جلساتهم كل منهم يضع عينيه على البلاك بيري، أو الإنترنت، كل منهم في عالم آخر، المشكلة أن هذه طبيعة الحياة، كأن عصر العولمة والتقنية يريد من الإنسان رجلاً أو امرأة أن يكون كل في جزيرة، أما الكتاب فلا يؤدي إلى عزلة، قد تكون في عزلة وأنت تقرأ، وهذه ليست مشكلة، ولكن المشكلة أن تنعزل وأنت معهم، لكن لعلها مرحلة مؤقتة!

وأرى أن المثقف عندما يتأثر بما يقرأ كثيراً تجد لديه مصادمة مع المجتمع، يريد تطبيق ما يقرؤه من نظريات في المجتمع، يريد الجدية في كل شيء وعدم العبث، والمجتمع لا يقبل ذلك، والقضية أن يحاول المثقف لكي يكون فاعلاً أن يتوازن مع مجتمعه وأن يؤثر فيه، ويجب ألا تعزله الثقافة، فعندما تعزله تكون الفائدة لذات الشخص، لكن عندما يجعل المثقف ثقافته وقراءاته جسراً للتواصل مع المجتمع، فالقراءة في تقديري ليست جمع معلومات لكي تزيد نسخة في البلد، كما يقول أسلافنا، ولكن الثقافة هي تفاعل مع المجتمع، فيجب أن تستفيد مما تقرأه في خدمة وطنك، والتواصل مع مجتمعك، هناك أناس عندما يقرؤون لا ينسجمون مع المجتمع وينعزلون، هذه قضية صعبة، وأتفق معك أنها قد توجد مثل هذه الحالات، ولكن أرجو ألا تكون بكثرة أو ظاهرة.

في هذا الزمن بتقنياته المتسارعة، ومعارفه المتفجّرة، من الصعب أن نقدم نصائح للآخرين سواء كان الشباب أم غيرهم، ومن الصعب ترك الشاشات أو الإنترنت؛

لأن هذا شيء مغرٍ جدًا، أقول: ربما بطريقة أخرى تجمع بين هذه وتلك، نحاول أن نضع أمام الابن الذي له اهتمامات تاريخية الكتب التاريخية، أو من يهوى العلوم يقدم له الكتب العلمية، ربما هذه تكون مغرية، لكن كما تعرفون النصح والتوجيه لن يجدي، لكن نحاول أن نتأمل اهتماماته، وما ميوله؟ ثم نقدم بعض الكتب أو حتى الصحف والمجلات؛ لأن بداية عشق القراءة أن يبدأ الفرد بصحيفة أو مجلة.

أروي لكم قصة طريفة في هذا الشأن، تتعلق بحرصي على الكلمة، وعلى ما أكتبه أو أقرأه، أذكر مرة أنني كتبت منذ سنوات طويلة مقالاً بخط اليد، وهذه الورقة وضعتها في إحدى الغرف بالبيت ثم خرجت، عندما عدت لم أجد هذه الورقة، وجلست أبحث عنها دون جدوى، فأنا عندما أكتب موضوعًا لا أستطيع أن أعيده مرة أخرى، مثل الحب الأول، لكن لا أستطيع أن أكتبه مرة أخرى، أحرج جدًا عندما لا أكتب الموضوع في هذه اللحظة أو يضيع مني، ولكن عندما ضاعت الورقة جلست أبحث في البيت يمينًا ويسارًا، ولم أجدها، كانت أختي الكبرى (رحمها الله) في زيارة لنا في الرياض، وعندما لحظت من حرصي وغضبي من ضياع هذه الورقة، ظلت عندما تجد أي ورقة تحفظها لي أيًا كان نوع هذه الورقة، فهي تتوقع أني أريد أي ورقة، لأنها رأت حرصي الشديد وكانت (رحمها الله) أمية، فقد تعلقنا بالورق، ولا نستطيع أن نقول لكل الناشئة الآن ليس عليكم إلا أن تتعلقوا بالورق لا. فالثقافة نوافذها عديدة، ويجب أن نحترم خيار أي إنسان يقرأ ويتثقف، بحيث يقرأ ما يفيد.

بقي موضوع المكتبات، وقد طرح هذا الموضوع، كيف نجعل الشباب يقبلون على المكتبات، كيف ندعمها؟ من ضمن المقترحات أن يقتصر على المكتبات الكبرى فقط، وأن يكون هناك فروع في الساحات الشعبية، إنه عندما تكون هناك ساحات شعبية تكون هناك مكتبات صغيرة، نجعل المكتبات تذهب إلى الناس ولا يأتون إليها، ففي مثل مدينة الرياض من الصعب أن ينتقل الناس إلى المكتبات الكبرى، وخاصة أن وسائط المعرفة متوفرة لديهم، فأنا أقول لو وضعت مكتبات صغيرة في كل خمسة

أحياء أو ستة أحياء، هذا أمر جيد، وتعرفون في مصر رغم ظروفهم الاقتصادية، هناك مكتبات متنقلة تذهب إليهم مثل ما تذهب سيارات الطعام، فتذهب المكتبات إلى الناس في قراهم، وفي محافظاتهم، أرجو أن تتبنى مكتبة الملك عبدالعزيز وهي رائدة شيئًا من ذلك، من أجل هذا الكتاب اليتيم، لا أقول يعود إلى مجده، ولكن يجد التقدير من الكبار والصغار.

المكتبات المدرسية، أيضًا مهمة ، أنا وجيلي نذكر أنه كان لدينا مكتبات في المدارس، فكنا نقرأ ونُشجع على ذلك بأخذ الجوائز، أرجو أن يشجع هذا الجانب وهو وجود مكتبات صغيرة في المدارس.

وبالنسبة لنوعية الكتب المقرءة؛ أعتقد أن الكتب مثل موائد الطعام، كل واحد يتناول ما يريده، وهذا سؤال يوجه إليّ وإلى غيري من الوراقين بشكل دائم، ماذا أقرأ؟ لمن أقرأ؟ القضية اهتمام "حمد" غير اهتمام "عبدالله" غير اهتمام "عبدالرحمن" ، القراءة حسب اهتمام الإنسان ، إنسان يميل للشعر، فليقرأ في الشعر، يميل إلى الرواية، يقرأ في الرواية، لكن الأفضل أن يوسع الإنسان في قراءاته؛ لكي يوسع مداركه، وليستفيد من تجارب الآخرين، مثلما تدخل حديقة، تمر على هذه الزهرة، وتشم تلك الوردة ، وتنظر إلى تلك الشجرة، وهكذا، هذا هو الأفضل ، ولكن تظل ميول الإنسان هي الأهم ؛ في بيت شعبي لخالد الفيصل يقول: "الهواية تمتلك رجّالها " ، القضية قضية ميل الإنسان لا تستطيع أن تقول للشخص اقرأ في التاريخ وهو لا يحب التاريخ، لكن الجميل أن تنوع .

وحول كم الوقت الذي أقرأ فيه، هذا أمر لا يمكن تحديده، كل يوم حسب ظروفي، ففي اليوم الذي أكون فيه مرتبطًا مساءً، يكون في حدود ساعة تقريبًا، وإذا أدخلت الصحف في الحساب يكون الوقت أطول، فالصحف تأخذ وقتًا طويلاً من الإنسان، ولابد أن أقرأها بوصفي كاتبًا، وبوصفي أعيش في المجتمع، وبوصفي أعمل في جهة تتطلب أن أطلع على ما يجري من أمور في الوطن والمجتمع، ويتراوح

وقت القراءة من ساعتين إلى ساعتين ونصف ، ولكن عندما أسافر أجد فرصة أكبر ، وأذكر طرفة يعرفها الأستاذ الصديق منصور الخضيري ، كنا مسافرين في رحلة إلى اليونان وأنا لا أسافر في الأغلب إلا معه ، لأنني أسعد برفقته ، وكان معنا صديق ليس لديه هواية القراءة ، فأفطرنا نحو الساعة التاسعة صباحًا ، وطلبنا من صديقنا هذا أن يذهب إلى السوق ويتمشى وقلنا له عندما تعود سوف نذهب معك في المرة القادمة ، ثم عاد صديقنا نحو الساعة الثانية عشرة وأنا والأستاذ منصور غارقان في القراءة !

أرجو أن أكون نقلت لكم شيئًا من تجربتي المتواضعة في عالم القراءة ، أكرر شكري لحضوركم ، أرجو أن أستفيد منكم إن شاء الله من خلال الحوار ، كما أكرر شكري لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، أحد الجسور الثقافية التي نفخر بها في مدينة الرياض ، والتي كان من أعمالها المباركة مثل هذا البرنامج ، والذي أرجو أن يجمع في كتاب لا يكفي أن نراه في الموقع ليقدم إلى عشاق الحرف المقروء للآخرين . .

مصادر الوعي بالقراءة..!(١)

د. عثمان بن محمود الصيني

رئيس تحرير المجلة العربية

بسم الله . . والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بادي ذي بدء أحيي مكتبة الملك عبدالعزيز العامة؛ لأنها في نظري هي المكتبة الوحيدة في منطقتنا التي استطاعت أن تقوم بحيوية وفعالية بدورها بوصفها مكتبة عامةً، وليست مجرد مخزن للكتب العتيقة، وأحيي بعد ذلك المشروع الوطني لتجديد الصلة بالكتاب التابع للمكتبة؛ لأننا نحن في عصر كثر فيه القول: عن أن الناس انصرفوا عن القراءة والكتاب فكان هذا المشروع الذي أراه ينحت في الصخر . . ؛ وأعرف المعوقات الكثيرة التي تعرّض لها، والتي يواجهها. عندما صدر الأمر السامي بالموافقة على هذا المشروع، كان من المفترض أن تكون هناك جهات كثيرة، ووزارات كثيرة تشارك في هذا العمل، لكن أرى أن المكتبة هي الوحيدة التي نهضت بهذا العبء في برامجها المختلفة، ولعلنا رأينا أخيرًا موضوعاً عن القراءة في المطارات، وأنا بحكم أنني أسافر كثيرًا، أرى أن الناس يقفون طويلاً، ويقرؤون، وأحيانًا يأخذون الكتب معهم، وأحيانًا بعضهم يخرج من حقيبته كتاباً ويضعه على الرف . .

هذا كله من البرامج التي نراها جيدة، بالإضافة إلى نادي الكتاب وموضوع تجارب القراءة.

عندما أتحدث عن تجربتي مع القراءة يدور هناك تساؤل: ما القراءة؟ طبعاً أنا

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة، مساء الاثنين ١٢ جمادى الثاني ١٤٣١هـ، الموافق ٢٦ إبريل ٢٠١٠م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

أتحدث عن القراءة الحرة، والقراءة الحرة حسب تعريف الناس: هي كل قراءة ليست مطلوبة في الدراسة أو العمل، ومن ثَمَ ارتبطت القراءة لدينا بالكتاب.

لكننا نرى أن مصادر القراءة هي ليست المصادر الورقية فقط، وهي الكتاب التي شاعت في العقود الماضية، وأصبحت هي أكثر المصادر المعرفية للقراءة. الآن بدؤوا يتحدثون عن المصادر الشفوية، وأن التاريخ بدأ يعود مرة أخرى إلى الثقافة الشفوية التي كانت موجودة منذ العصر الجاهلي.

عندما أعود إلى مصادر القراءة أو مصادر الثقافة لديَّ، أجد من ضمنها الثقافة الشفوية والثقافة المكتوبة. سأعرج قليلاً على مصادر الثقافة الشفوية كما واجهتها، أو كما بدأت فيها في الطائف وهي المدينة التي كانت توصف بأنها بوابة الحجاز على نجد وبوابة نجد على الحجاز.

الطائف كان ملتقى الثقافات الصحراوية بالجبلية والثقافة القروية والثقافة الحضرية، هذه المصادر استطاعت أن تكون خليطاً ربما لم يتكرر بالصورة نفسها في مدن أخرى بهذا الشكل؛ لذلك سوف أتحدث قليلاً عن المصادر الشفوية للثقافة التي نهلت منها في تلك الفترة، وعندما أتكلم عن الثقافة، إنما أتكلم عن الثقافة بالمفهوم الشامل لها، التي يعد الكتاب أحد هذه المصادر، بالإضافة إلى الفنون المختلفة، والشعر بنوعيه: الفصيح والشعبي، والسينما.

كنا نجد في الطائف التراث الشعبي منتشراً بشكل مكثف سواء من ناحية الملاعب التي كانت بشكل شبه يومي في الطائف، ودائمًا تكون إما في مناسبات الأفراح وإما في بعض المناسبات الأخرى. كنا في الطائف سمعنا كل شعر القبائل.. هذا الشعر، الذي اتصل جزء منه بالشعر العربي الفصيح. عندما كنا نسمع شعر بديوي الوقداني(١):

---

(١) بديوي بن جبران بن جبر بن هنيدي الوقداني السعدي العتيبي، ولد سنة ١٢٤٤هـ بوادي نخب بالطائف من بادية الحجاز ولقب بشاعر الحجاز، شاعر نبطي، نظم شعراً في الحكمة والغزل والمدح توفي سنة ١٢٩٦هـ عن عمر يناهز ٥٢ عامًا، وله مجموعة شعرية كبيرة. اعترفت له مجالس الشعر ودواوينه في داخل الجزيرة وخارجها بأنه فارس الكلمة ومبدع الحكمة، كتب أشعاره في العامية والفصحى ووصلنا منها الكثير وسقط منها الكثير. اطلع (طه حسين) على أشعاره وهو يبحث عن الموروث الأدبي في العصر الحديث في منطقة الحجاز وعندما قرأ بعض قصائده قال: «لو أن هذا الشاعر البدوي الأصيل كتب أشعاره بالفصحى لنسي الناس المتنبي»..

أيامنا والليالي كم نعاتبها شبنا وشابت وعضنا بعض الأحوال

كنا نجد في بيت شعر له يقول :

والمال يحمي نفوساً لا حياة بها كالسيل يحيي الهشيم الدمدم البالي

ثم نجد هذا البيت في ديوان حسان بن ثابت :

والمال يحيي نفوسًا لا حياة بها كالسيل يحيي الهشيم الديدن البالي

ومن ثَمَّ كان هذا الربط بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح و كان على علاقة كبيرة أدت إلى أن يؤلف أستاذنا عبدالله بن خميس(١) كتابه (قصائد شعبية أصلها الفصيح) أو التشابه بين الفصيح والشعبي بهذا الشعر، هذا كان جانباً نجده أيضًا عندما كنا نلتقي بمحمد سعيد كمال صاحب مكتبة المعارف الذي جمع في كتابه : (الأزهار النادية من أشعار البادية)، معظم الشعر النبطي وطبعه في حوالي عشرين جزءاً.

كنا نجد في الطائف أيضاً مجالس الأدباء، وخصوصاً أدباء الحجاز الذين كانوا يأتون في الصيف إلى الطائف. كان والدي له محل في السوق المركزي، وكنا نجد فيه أحمد السباعي(٢)، حيث يجلس عند صديق له صراف اسمه العسلي، وكنا نجلس أحيانًا ونسمع بعض النقاشات. أحمد عبدالغفورعطار(٣) كان يأتي، وكان هنالك الأشموني الذي يتحدث في دكانه عن النحو وعن المؤلفات النحوية.

---

(١) عبدالله بن خميس : (١٣٣٩ - ١٤٣٢هـ) شاعر الفصحى والنبط السعودي المعروف، وأحد أدباء الجزيرة البارزين، وأحد باحثيها المعنيين بآدابها ومعالمها. أثرى المكتبة العربية بعشرات الكتب في الأدب والشعر والنقد والتراث والرحلات، وصال وجال في الصحافة والمنتديات والمؤتمرات داخل المملكة وخارجها.

(٢) أحمد السباعي : (١٣٢٣-١٤٠٤هـ) شيخ المؤرخين السعوديين، والأديب القاص والصحافي المؤسس، والتربوي الرائد في وضع المناهج الدراسية. قام بإصدار عدد من الصحف والمجلات ورأس تحريرها أيضًا، منح جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٤ هـ واستلم جائزتها من يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - يرحمه الله - في حفل أقيم تكريما له ولزميليه الشيخ حمد الجاسر والشيخ عبد الله بن خميس. أثرى المكتبة العربية بعدد من الكتب، منها ما هو قصص قصيرة، ومنها ما هو ترجمة ذاتية، ومنها ما هو تاريخي، ومنها ما هو في التربية والتوجيه الاجتماعي وتحليل الجرائم ودوافعها، ومنها ما هو في مناسك الحج والأماكن المقدسة، وكذلك له كتاب في الأمثال الشعبية.

(٣) أحمد عبدالغفور عطار : (١٣٧٩- ١٤١١هـ)، المستشار بالديوان الملكي سابقًا، أديب وشاعر سعودي ومحقق ومؤسس صحيفة عكاظ السعودية ورئيس تحريرها. من الأدباء الذين تحدثوا عن الإسلام وأسرار الشريعة في قضايا العبادات والمعاملات.

هذه المجالس كنا نشاهدها ونحن صغار، والاحتفالات والفنون الشعبية، كانت في الأعياد؛ ولاسيما في عيد الفطر، أيام العيد الثلاثة، كان وادي وج وعلى ساحاته نجد القبائل كانت كل قبيلة تقدم رقصتها الشعبية بحكم أن الطائف ملتقى القبائل دون أي تنظيم أي أن تكون هناك جهات منظمة، كانت القبائل تجتمع، وكل قبيلة تقدم مثل هذه الفنون الشعبية، كنا نشاهد رزف بني سعد، ونشاهد الحيومة ويلي بني سفيان وثقيف، كنا نشاهد المسحباني لغامد، وخطوة عسير والمجرور لثقيف. وكل هذه الفنون الشعبية كانت جزءاً من المكون الثقافي الذي نشاهد.

في تلك الفترة كنت أسافر مع والدي في أيام من شهري ذي القعدة وذي الحجة للعمل في مكة المكرمة، وكان له دكان جهة باب السلام، بين مكتبات باب السلام التي هدمت لتوسعة المسعى، ونقلت برحة الفل إلى محلات كانت تسمى دكاكين المشروع بالصفا الذي وضعت فيها مكتبة الحرم في ذلك الوقت، وكانت هناك مكتبات مكة العريقة مثل مكتبة الفدا والثقافة والباز. في المرحلة الابتدائية والمتوسطة كنا نهتم بالقصص المصورة، وكان يأتي منها من مصر: قصص: (سمير)، و (ميكي) و(سندباد)، ومن لبنان كانت تأتي أربع مجلات هي: (سوبرمان) و(الوطواط) و(وبونانزا) و(لولو الصغيرة)، كانت تباع بريال ولم نكن نستطيع أن نشتريها. كنا نشتري مثل هذه بعد أن تنتهي الدورة التوزيعية الأسبوعية لها، حيث تقوم المكتبة الموزعة بنزع جزء من الغلاف الذي فيه العدد واسم المجلة، ثم تباع بأربعة قروش، ونقرأ المجلة بقرش ثم نعيدها، قرأنا معظم المجلات، و كنا نجد أيضاً في الطائف في السوق ثلاث مكتبات رئيسة على تواصل مع الناس. المكتبة الأولى هي مكتبة السيد اليمني، كان رجلاً يمنيًا غير مثقف. ولكنه كان ورّاقًا، يبيع الكتب القديمة، وجدنا عند هؤلاء معظم الأدباء والمثقفين من جيل سابق لنا، كانوا يترددون إلى هذه المكتبة يبيعون ويشترون.

أما الجيل السابق لنا، مثل: سعد الحميدين⁽¹⁾، وطالع الحارثي، وسعد الثوعي؛

---

(١) سعد الحميدين: ولد عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، في مدينة الطائف. مدير تحرير للشؤون الثقافية بجريدة الرياض. له عدد من الدواوين الشعرية، مثل: رسوم على الحائط؛ وخيمة أنت والخيوط أنا؛ ضحاها؛ وتنتحر النقوش أحيانًا؛ وللرماد.. نهاراته. تُرجم ديوانه الثاني إلى الإنجليزية وكتب مقدمة له حسن ظاظا، كما ترجمت بعض قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية.

وفهد الخليوي(١) ؛ وعبدالله باخشوين . . . ، فقد كنا نجدهم عند مكتبة السيد يشترون الكتاب، ويقرؤونه، ثم يبيعونه، وهو أصبح أشبه ببورصة للكتب، و بقية الكتب التي كنا نقرؤها نوعيات عجيبة، كنا نجدها منفتحة على كل التوجهات وعلى كل المذاهب، على سبيل المثال :

في تلك الفترة كانت مشكلة الإخوان المسلمين في مصر مع السلطة، وكنا نجد كتب الإخوان كلها وكنا نشتري كتاب : (لماذا أعدم سيِّد قطب؟) بنصف ريال وكتيباً : اسمه : (وثيقة خطيرة للكشف عن المخططات الناصرية ضد الإخوان المسلمين)، وكنا نشتريه بنصف ريال، وأيضًا هناك الكتب التي تروج للاشتراكية والشيوعية، قرأنا فيها كتاب (اعرف مذهبك) لمارتن دودج، كان يتكلم عن كل المذاهب الاشتراكية، والشيوعية، والفوضوية، والاشتراكية، والرأسمالية. قرأنا فيها كتاب الحبيب بورقيبة (الاشتراكية الدستورية)، قرأنا فيها كتاب (أبوذر الغفاري، أول اشتراكي في الإسلام) مقابل هذا كانت هناك كتب كثيرة ضد الاشتراكية، أو كانت تنقض الاشتراكية، مثل : كتاب(اشتراكيتهم وإسلامنا)، وكتاب آخر لصلاح الدين المنجد .

هؤلاء الذين كانوا ضمن حملة الملك فيصل، رحمه الله، لموضوع التضامن الإسلامي، فنهضوا ضد الاشتراكية والشيوعية .

بالنسبة إلى المذاهب كنا نجد كل كتب المذاهب في مكة في باب السلام، كانت كتب المذاهب الأربعة طبعًا موجودة، بالإضافة إلى كتب المذاهب الأربعة، كانت هناك كتب أخرى، في تلك الأيام اشتريت كتاباً، طبعاً لَمّا وصلت إلى المرحلة الثانوية كان هناك كتاب اسمه (الجفر) المنسوب إلى الإمام جعفر الصادق، ومثل : كتاب(الهفت والأظلة) وهو من الكتب الباطنية أو المذهب الباطني كان من ضمن مرجعياتهم أيضًا هذه الكتب كلها قرأناها في تلك الفترة، وهناك مصدر آخر، غير هذا هو حلقات الحرم، كان جدي يحضر في بعضها .

---

(١) فهد الخليوي : أحد الأسماء التي برزت في القصة السعودية في نهاية سبعينيات القرن الماضي، التي أنتجت الكثير من الأسماء القصصية المتميزة التي رافقته .

كنا نحضر شيئًا من حلقات الشيخ عبدالله بن حميد(١) والد الشيخ صالح بن حميد، كان هناك حلقة لشخص اسمه محمد لعصومي الخجندي كانت تناقش فيه كل القضايا طبعًا، وقتها كان هناك هجوم كبير على الوهابية، وكان يأتي كثير من العلماء من دول مختلفة، ويناقشهم في الوهابية وغيرها، وحتى كانوا يناقشون الكتب التي ألفت في تكفير الوهابية. و كان هنالك أحد المشايخ السودانيين اسمه (أظنه حراز أو ابن حراز) ألف كتابًا عن كفر الوهابية؛ لأنهم يقولون بخمسة أشياء هي كذا وكذا، وكان ابن معصوم يأخذ هذه الشبهات، وينقضها شبهةً شبهةً. لدينا أيضاً عندما بدأت الدراسة في المرحلة المتوسطة في دار التوحيد. دار التوحيد بالنسبة إلينا أول ما جئنا كنا نراها تاريخًا، دخلنا إلى دار التوحيد ونحن نعرف أو يحدثنا أساتذتنا عن الطلاب السابقين لنا عن أجيال مرت على دار التوحيد.

دار التوحيد أسسها الملك عبدالعزيز عام ١٣٦٤هـ، وجلب إليها بالقوة بعض الطلاب من مختلف مناطق المملكة، كان من الدفعة الأولى التي درست في دار التوحيد: الشيخ عبدالله بن خميس، والشيخ عبدالرحمن بن جبير، والشيخ عبدالعزيز المسند(٢)، وغيرهم، هؤلاء هم الجيل الأول. وتتابعت بعد ذلك أجيال أخرى فكانوا يحدثوننا عن كل هؤلاء. كنا إذا دخلنا مكتبة دار التوحيد نجد كتبًا أو توقيعات بالمكتبة في الكتب بأسماء بعضهم، وكنا نجد التاريخ كله، تاريخ دار التوحيد في الكتب.

---

(١) عبدالله بن حميد: هو العالم الجليل الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد، من بني خالد: (١٣٢٩-١٤٠٢هـ) ولد بمدينة الرياض. قرأ على كثير من المشايخ الرواد في نجد. عينه الملك عبد العزيز - رحمه الله - قاضياً في الرياض. ثم بريدة وما يتبعها، وظل في قضائها وإمامة جامعها والمرجع في الإفتاء والتدريس مدة وجوده فيها. وفي عام ١٣٧٧هـ طلب الإعفاء من منصب القضاء، وتفرغ للعبادة وتعليم الناس. ثم أنشئت الرئاسة العامة للإشراف الديني على المسجد الحرام فاختاره الملك فيصل - رحمه الله - رئيسًا ومدرسًا فيه، ومفتيًا، فنفع الله بعلمه الأمة. وفي عام ١٣٩٥هـ عينه الملك خالد - رحمه الله - رئيسًا للمجلس الأعلى للقضاء، وعضواً في هيئة كبار العلماء، ورئيسًا للمجمع الفقهي وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. ، له مؤلفات كثيرة من أبرزها: التوحيد وبيان العقيدة السلفية النقية؛ الدعوة إلى الله: وجوبها وفضلها وأخلاق الدعاة؛ والدعوة إلى الجهاد في القرآن والسنة. من محاسن الإسلام. توجيهات إسلامية. الرسائل الحسان والرد على يسر الإسلام.

(٢) الشيخ عبد العزيز المسند (١٩٣٢ - ٢٠٠٧م) تخرج من كلية الشريعة بمكة، وبدأ عمله مديراً للمعهد العلمي بشقراء، ثم مديراً لكليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض، ثم مديرًا عاماً للكليات والمعاهد العلمية، ومستشارًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومستشار أبوزارة التعليم العالي، ومشرفاً على الإدارة العامة لتطوير التعليم العالي، وتولى رئاسة تعليم البنات آنذاك، وأمينا لجمعية البر (متبرعاً) لمدة (٤٥) عامًا. كان له بعض البرامج التلفزيونية الدعوية.

وكان هنالك ناد لدار التوحيد تلقى فيه الخطب والقصائد والمحاورات الشعرية، بالإضافة إلى الكتبِ التي كنا نجدها في مكتبة دار التوحيد، ونستعير منها و من ضمن مصادر القراءة التي كانت مكتبة عبدالله بن عباس و هي مكتبة أسسها والي الحجاز رشدي الشرواني عام ١١٩٠هـ في حدود هذا التاريخ، وصار يوقف فيها كثيراً من الكتب، طبعاً الذي أدى إلى أن تكون هناك مكتبة كبيرة في مسجد عبدالله بن عباس، أن هذا المسجد كان فيه ضريح لعبدالله بن عباس، وكان يزور هذا الضريح كثير من الحجاج من أنحاء العالم العربي والإسلامي عندما كانوا يأتون إلى مكة كانوا يعرجون إلى الطائف.

ومن أشهر الذين جاؤوا إلى الطائف: الفيروزآبادي(١)، صاحب القاموس المحيط. وكانت له رسالة اسمها (فصل الدرة عن الخرزة في تفضيل قرية السلامة عن الخبزة) طبعًا القريتان كانتا خارج الطائف؛ والآن أصبحتا من أحياء الطائف.

مكتبة عبدالله بن عباس هذه كان يأتي إليها كثير من العلماء، ويجلسون فيها، ويوقفون كتبهم في هذه المكتبة، وهكذا كبرت المكتبة. وقد بدأت صلتي بمكتبة عبدالله ابن عباس عندما هدم المسجد لإعادة بنائه من جديد، حيث نقلت الكتب إلى مسجد السيد الهادي الذي كان في وسط السوق، وفي الدور العلوي منه وضعوا كل الكتب. .

ومن ثمَ كنت أذهب إلى هناك، وأشاهد بعض الكتب. قصة هذه المكتبة هي عبارة عن مراحل تاريخية من أشهر الكتب التي يعرفها المكتبيون، كتاب (هدية العارفين إلى أسماء المؤلفين) لإسماعيل باشا البغدادي. هذا الكتاب كتاب قديم طبع في مجلدين في القرن الثامن عشر. كان إسماعيل باشا يتحدث عن بعض الكتب وقال: هي موجودة

---

(١) الفيروز آبادي: هو أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي، صاحب المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب، والقاموس المحيط والقابوس الوسيط، لما ذهب من كلام العرب شماميط، والعباب، وقد بلغ تمامه ستين مجلداً، والقاموس معظم البحر، يحكى عنه أنه كان يقول: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر، ومصنفاته كثيرة، وقد عُدَّ منها بضع وأربعون مصنفاً من اللغة والتفسير والحديث. ومن مؤلفاته: كتاب سفر السعادة، بالعربية وبالفارسية.

في مكتبة عبدالحفيظ القارئ في الطائف ووجدنا هذه الكتب بعد ذلك في مكتبة عبدالله بن عباس، حيث كانت فيها كمية كبيرة من المخطوطات بعضها مما أشار إليه إسماعيل باشا البغدادي، وبعضها مما شاهدته أنا في صغري عندما نقلت إلى المسجد الهادي، ثم انقطعت صلتي بالمكتبة، و سافرت إلى مكة للدراسة، والمكتبة عادت إلى مكانها، ولم أزرها إلا عندما نلت الماجستير، وبدأت العمل في الكلية المتوسطة.

كان أحد الزملاء في الكلية من الإخوة المصريين يحدثني أن له زميلاً يحضر رسالة في الأزهر ليحقق مخطوطة، و يوجد نسخة منها في مكتبة عبدالله بن عباس، ولا يستطيع الوصول إليها أو تصويرها فطلب إليَّ أن أذهب معه لكي نصوّرها، ولأن عهدي بها بعيد قلت: دعني أذهب وأرى!

عندما ذهبت وجدت المكتبة غير المكتبة التي كنت أعرفها. وطلبت إلى أمين المكتبة أن أتصفح المخطوطات ووجدت أنها كانت عبارة عن خزانة مخطوطات، كثير من المخطوطات التي كانت موجودة في مكتبة عبدالله بن عباس، إما أنها مختلفة وإما أنها سرقت وإما عدت عليها عوادي الدهر. فطلبت إليه أن أتبرع بفهرستها مجانًا، قالوا: لا ! هذا لابد من أن تأخذ فيها موافقة وزير الحج والأوقاف في ذلك الوقت؛ لأن المكتبة تتبع له، واستغرق طلب الإذن تسعة أشهر.

عندما بدأت أفهرس وجدت أن كراتين من المخطوطات جاء عليها سيل، والمخطوطات والأوراق القديمة التي يكتب عليها يظهر أن عليها طبقة من الغراء الخفيف، وعندما جاء السيل أزال كل الحبر الذي كان عليها، ولصقت الأوراق بعضها في بعض، حاولنا بشتى الوسائل إصلاحها، وكلمت أستاذنا الدكتور زيد الحسين(١) الذي كان وقتها

---

(١) هو معالي الدكتور زيد بن عبد المحسن الحسين، نائب رئيس هيئة حقوق الإنسان، عمل أمينًا عامًا لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ومديرًا عامًا لدار الفيصل الثقافية ورئيسًا لتحرير مجلة "الفيصل"، ثم أستاذًا مساعدًا لكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومديرًا لمركز البحوث التربوية والنفسية في جامعة أم القرى، عضواً بمجلس الشورى. ألف وأعد عدداً من الكتب والبحوث في هذا المضمار، منها كتاب حقوق الإنسان في الإسلام ترجمة للإنجليزية، كتاب التنمية بين الإعلام والتربية، بحث دور مجلس الآباء في تحسين العملية التربوية، كتاب المعلم وأثره في المجتمع، رئيس فريق العمل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس.

في مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية. ومن بعدها وجدنا أنه ليس لها علاج. حدثني أحد الإخوان أن الخراب كان من قبل هذا عندما كانوا يرممون المسجد قديماً جمعوا كل الكتب والمخطوطات ووضعوها في منارة المسجد، وخزنوها هناك.

كان القَيِّم على المسجد إذا أراد أحد كتابًا، أعطاه المفتاح، وقال له: اذهب وابحث عما تريد؛ ما أدّى إلى أن كثيراً من الذين ذهبوا إلى هناك وجدوا الكتب مخزّنة في أكياس خيش، وأخذوها ولم يرجعوها، كما أن جزءًا كبيرًا منها أصابه التلف، ووجدت كثيراً من المخطوطات قد نزعت منها الصفحات الأولى والأخيرة؛ وقد اهتديت إلى نحو ١٥ أو ١٦ منها، ووضعت لها عناوين بالمقارنة. وكثير منها صار مجهولاً لا يعرف له عنوان هذا نموذج من المكتبات التي كنت أ تردد إليها. هناك كانت مكتبة من نوع آخر هي مكتبة محمد سعيد كمال؛ وهو من بيت علم في الطائف، كان من الناس الأذكياء جداً في اختيار الكتب وبيعها، وهو وراق طبعاً جمع (الأزهار النادية لأشعار البادية) في عشرين جزءاً، وله مجموعة من الرسائل الكمالية في العقيدة والفقه والحديث.. إلخ.

وكان له أخوان هما: عبدالحي كمال، أظن أن له كتاباً عن (الأحاجي والألغاز النحوية)، والأخ الثاني هو حسين كمال له كتاب(الفكاهة والمجون بالشعر العربي) في جزءين صغيرين كان لهما مجلس في المكتبة يأتيهم الناس من جميع المناطق بحكم العلاقات ويجلسون فكنا أحياناً نأتي إلى المكتبة نتصفح الكتب ونسترق الحديث والنقاش، ونسمع بعض الكلام الذي كانوا يتحدثون فيه.

كان الشيخ حمد الجاسر⁽¹⁾، والأستاذ عاتق البلادي رحمهما الله، أول من

---

(١) العلامةحمد الجاسر (١٩١٠ - ٢٠٠٠م). عالم وباحث سعودي، وعضو سابق في أكاديميات بغداد ودمشق والقاهرة. عمل في قطاع التعليم، والقضاء، والصحافة والنشر، وأنشأ مؤسسة اليمامة الصحفية، أول صحيفة في الرياض، في عام ١٩٥٢، وتبعتها جريدة الرياض في عام ١٩٧٦م وأخيراً العرب، وهي فصلية متخصصة في تاريخ وآداب شبه الجزيرة العربية. أنشأ حمد الجاسر أول دار للطباعة في نجد في عام ١٩٥٥م، وفي عام ١٩٦٦م أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. أسهم الجاسر في ثقافة وطنه كعلاّمة ومؤرخ وجغرافي، وخلف كثيراً من الكتب التي تحمل اسمه والتي تغطي حقولاً متنوعة من المعرفة: من المصورات الجغرافية والتاريخية إلى أدب الرحلات وكتب السيرة وطبعات نقدية للنصوص التراثية المهمة. كما أسهم بعمق في تحديد استراتيجيات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي لصاحبها أحمد زكي يماني، والتي كان عضواً مؤسساً للمجلس الاستشاري الدولي للمؤسسة.

شاهدناهما في مكتبة محمد سعيد كمال، ومن المكتبات المختلفة أيضًا في الطائف مكتبة السيد المؤيد الحسني، و هو أحد أفراد أسرة حميد الدين التي كانت تحكم اليمن لكن بعد قيام الثورة، ثورة عبدالله السلال هاجرت هذه الأسرة إلى السعودية، حيث استقر معظم أفرادها في الطائف، ولأن السيد المؤيد من بيت علم وهو نفسه عالم، فقد أسس مكتبة كبيرة في الطائف كان اسمها مكتبة المؤيد. كنت يوميًا إذا رجعت من السوق بعد صلاة العشاء أذهب إلى المكتبة، طبعًا المكتبة تعد مكتبة تراثية من الدرجة الأولى، إلا أن الشيء الأهم من المكتبة كان الجلسة التي كان يعقدها السيد المؤيد مع مجموعة من العلماء مثل الشيخ إبراهيم الحضراني وأحمد محمد الشامي وهم من علماء اليمن ومؤرخيه. وكان هناك ناس لا نعرفهم، إما أن يكونوا من مشايخ اليمن وإما من السعودية، كنا نسمعهم ونسمع نقاشهم، بعض النقاش كان علميًا وفقهيًا، وبعضه كان نقاشاً تاريخيًا حول الأحداث التي كانت تدور في اليمن أو ما استجد بعد ذلك من أمور في اليمن.

المكتبة الأخيرة التي كنا نشاهدها هي مكتبة الثقافة في الطائف وهي جزء من مكتبة الثقافة في مكة، وكانت تهتم بالكتب الحديثة، وتستورد الصحف والمجلات المصرية واللبنانية، ومن ثمَّ كانت تستورد الكتب الحديثة، وكنا نجد هناك كثيراً من الكتب الحديثة التي نقرؤها.

هذه المصادر المختلفة هي التي شكّلت قراءات جيلنا كله سواء كان الجيل السابق لنا أم الجيل الذي أتى بعدنا، واستطعنا من خلاله أن نقرأ آخر ما تنتجه المطابع العربية. عندما ذهبنا إلى مكة للدراسة في كلية الشريعة كنا نجد مجموعة من المناسبات والفعاليات الثقافية خارج الجامعة وداخلها. عندما كنا طلاباً في الجامعة عقد المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، حيث التقينا في هذا المؤتمر معظم الأدباء السعوديين الرواد في ذلك الوقت.

رابطة العالم الإسلامي كان لها نشاط كبير جداً في الجانب الثقافي، يتزامن دائماً مع فترة الحج عندما تأتي بعثات الحج كانت تعقد هناك محاضرات لأبي الأعلى

المودودي(١) وأبي الحسن الندوي(٢) وغيرهم. كنا نجدهم في ذلك الوقت. كانت الرابطة تهدينا مجموعة كبيرة من الكتب بالإضافة إلى محاضرات الرابطة (أضواء البيان لإيضاح القرآن بالقرآن) معظم أجزائها كنا حصلنا عليها في ذلك الوقت من الرابطة وقرأناها (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) و(الإسلام بين عجز علمائه وجهل أبنائه)، كل هذه الكتب كنا قرأناها، نادي الوحدة الرياضي الثقافي كان له نشاط ثقافي كان وقتها أحمد محمد جمال وزملاؤه يعطوننا المحاضرة، حيث كانت تطبع وتوزع علينا.

بعد ذلك عندما بدأنا مرحلة الدراسات العليا هذه شكلت أيضاً جانباً آخر مختلفاً في قراءتنا وثقافتنا، كان المشرف على هذه المرحلة الدكتور خليل عساكر ثم الدكتور محمود الطناحي محقق كتاب (طبقات الشافعية)، وكانوا يجلسون في مجلس بالكلية، وكان منهم الشيخ سيد سابق صاحب فقه السنة ومحمد الغزالي ومحمد متولي الشعراوي، رحمهم الله، عندما يأتون أو يجلسون مع الشيخ محمد قطب كنت أنا طالب دراسات عليا، وكنت أجلس مع الدكتور محمود الطناحي، مستمعًا إلى نقاشاتهم، وأحياناً بعض الطرائف التي يتبادلونها، كل ذلك شكَّل جانباً آخر. من الذين درسونا في تلك الفترة عندما ذهبنا إلى الجامعة في المرحلة الأولى مجموعة من الأساتذة الذين احتواهم الملك فيصل – رحمة الله عليه – بعد ثورة البعث.

---

(١) أبو الأعلى المودودي: (١٩٠٣–١٩٧٩م)، ولد بمدينة أورنج آباد التابعة لولاية حيدر آباد بالهند من أسرة محافظة اشتهرت بالتدين و الثقافة. أسس الجماعة الإسلامية في لاهور، كان ظاهر هذه الجماعة هو الإصلاح الشامل لحياة المسلمين. بلغ عدد مؤلفات المودودي (٧٠) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، ومن أبرز تلك المؤلفات: الجهاد في الإسلام؛ تجديد الدين وإحيائه، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم؛ المسألة القاديانية، وكشف فيه بإيجاز عن عقائد هذه الفرقة ومخططاتها؛ دين الحق؛ الأسس الأخلاقية الإسلامية؛ ومصدر قوة المسلم. . .

(٢) أبو الحسن الندوي: (١٩١٣– ١٩٩٩م)، المفكر، والداعية الإسلامي المعروف ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي الهندية. عيَّن مُدَرِّساً في دارالعلوم لندوة العلماء عام ١٩٣٤م، ودرَّس فيها التفسير والحديث، والأدب العربي وتاريخه' والمنطق. أسَّسَ حركة رسالة الإنسانية عام ١٩٥١م. أسَّسَ المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ عام ١٩٥٩م شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (U.P) عام ١٩٦٠م، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م. دعا إلى أوَّل ندوة عالمية عن الأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٨١م.

كان الشيخ محمد علي الصابوني، والشيخ محمد القاسمي، والدكتور عمر الحكيم، والدكتور محمد المبارك هؤلاء هم الذين كانوا يدرسوننا في تلك الفترة، فشكلت نوعاً آخر أو رافداً آخر في الثقافة غير الناحية الأخرى التي درسناها، رافداً آخر كان مهماً بالنسبة لي رافد المخطوطات الذي وجدته في جهات مختلفة عندما بدأت الماجستير في المخطوطات.

يعد الدكتور محمود الطناحي من أشهر من عمل بالمخطوطات. كان من ضمن معهد المخطوطات العربية الذي أسسته جامعة الدول العربية، وكان من ضمن البعثات الأولى التي سافرت إلى اليمن والمغرب وغيرها والجزيرة العربية لتصوير المخطوطات وفتح الباب لنا لكي نذهب إلى دار الكتب المصرية وإلى الخزانة الملكية والخزانة العامة في الرباط وفي تطوان، وكنا نذهب إلى مكتبة أحمد الثالث في استانبول وإلى المكتبة السليمانية التي جمعت فيها كل المخطوطات التركية، وما نقل إلى تركيا من المخطوطات، وصورنا جزءاً كبيراً منها وهي التي أعطتنا مرجعية لفهرسة مخطوطات مكتبة عبدالله بن عباس.

عندما نجحت في الصف السادس الابتدائي، اشترى والدي- رحمه الله، لي مجموعة كتب للشيخ محمد أحمد باشميل، كانت له سلسلة اسمها(معارك الإسلام الفاصلة) غزوة بدر، وغزوة أحد. . . ، وكل كتاب كان في حدود ثلاثمائة أو أربعمائة صفحة من القطع المتوسط، وكان يتحدث بالتفصيل عن هذه المعارك، قرأتها أكثر من مرة في ذلك الوقت، وهي التي حببتني بعد ذلك في السيرة النبوية، ومنها قرأت - إن لم أقل كل - معظم كتب السيرة النبوية، ابتداءً من سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية، ونور اليقين وغيرها، كلها بدأنا فيها من كتب محمد أحمد باشميل.

ومن الكتب التي أثرت فينا، كان عندنا أستاذ يدرسنا في دار التوحيد اسمه محمد عبد المنعم البري، الدكتور الآن و كان رئيس جبهة علماء الأزهر قبل فترة، وأهداني كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) لمحمد محمد حسين، وكنا نجتمع نحن

وبعض الزملاء من طلاب دار التوحيد، واحد يقرأ، والمجموعة يستمعون، إذا تعب الآخر يقرأ على أساس نكسب الوقت؛ لأن الكتاب كبير نحو خمسمائة أو ستمائة صفحة، بدلاً من أن يأخذ كل واحد الكتاب ويغيب عنده، ونجتمع كلنا ونقرأ كتاب(حصوننا مهددة من الداخل) أو في (أوكار الهوامين)، وكتاب القاضي أبي بكر بن عربي (العواصم من القواصم)، هذه أيضاً من الكتب التي أهديت لنا في تلك الفترة.

وكان هناك واحد من الفضلاء في الطائف، رجل متقاعد الآن، كان موظفاً في إدارة تعليم البنات، وكان صديقاً للوالد، عنده عشق للكتب، وكان كل فترة يأتي فيها إلينا ويهدينا مجموعة من الكتب، ومن الكتب التي أهداني إياها وقرأتها كتب مصطفى السباعي عن الاستشراق، وقرأت كذلك كتاب كامل الشريف عن جهود الإخوان المسلمين في حرب فلسطين، وأيضًا من الأشياء التي دفعتني إلى القراءة في التاريخ الإسلامي، (روايات تاريخ الإسلام) لجرجي زيدان، يمكن قرأنا له من مكتبة السيد، كنا نشتري الكتاب بريالين، ونقرأه. قرأت له نحو ثلاثين كتاباً، طبعًا عندما كبرنا قليلاً، عرفنا أن جورجي زيدان نصراني وليس مسلماً، وقيل فيه كثير من المغالطات وكثير من الأشياء، لكن كان يأخذ جزءاً من التاريخ ويكتبها بشكل روايات، وكنا نقرؤها وهي التي حببتنا في قراءة التاريخ والسير. عندما كنا صغاراً قرأنا سيرة عنترة بن شداد، وألف ليلة وليلة.

عنترة بن شداد كانت هنالك طبعة، إن لم تخني الذاكرة ثمانية مجلدات. كنت أشتري المجلد بريالين ونصف الريال، أقرؤه ثم أعيده إلى المكتبة بريالين.

لقد قرأنا كل السلسلة، هذه السير، هي التي عرفتنا أوهي من الأسباب التي دفعتنا إلى الاهتمام كثيراً بموضوع الأماكن في الجزيرة العربية، وتاريخ القبائل على الرغم من أنها سير تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة التاريخية، ولا تعد من المصادر الموثوقة بالتاريخ، لكن على الأقل هي التي حببتنا بارتياد هذا الجانب. عندما كنا في الجامعة بدأنا نقرأ الكتب المختلفة، قرأنا الفلسفة وكتب مصطفى محمود ورواياته، مثل:

رواية(العنكبوت) و(رجل تحت الصفر) وهذه هي التي دفعتني إلى أن أذهب إلى الكتب والمراجع الكبيرة، حيث قرأت عن تناسخ الأرواح؛ لأنها كانت رواية تتحدث عن التناسخ، وهي بدورها دفعتني إلى أن أقرأ عن الثقافات، والثقافة الهندية عمومًا، وهي التي دفعتني إلى أن أقرأ في كتاب (قصة الحضارة) لول ديورانت، في اثنين وثلاثين مجلداً، طبعًا قرأت الأجزاء التي تهمني منها؛ لذا أرى أنه يجب أن نفتح المجال للقراءة عموماً مهما كانت.

النقد الذي وجه إلى جورجي زيدان ورواياته هو الذي دفعني إلى القراءة في التاريخ والسير والروايات التي كان يعدها مصطفى محمود مرحلة الشك قبل أن يأتي الإيمان، هي التي دفعتني إلى أن أقرأ في الثقافات الأخرى.

أما بالنسبة إلى المكتبات فهي جاءت في فترة التعددية قبل غلبة الصوت الواحد، يعني هل تعرف أن من المكتبة السعودية بجدة عندما قامت الثورة الخمينية قرأت كتاب (كشف الأسرار) للخميني. طبعًا مزيتهم أنهم طرحوا أفكارهم وطرحوا الرد على هذه الأفكار فاستطعنا أن نأخذ الأشياء من معينها الأصلي، عندما كانت الكتب موجودة كان الإنسان يقرأ الشيء وغيره وبعد ذلك يفكر ويستمع، جاءت بعد ذلك فترة غلب فيها الصوت الواحد ومنع ما عداه من الكتب، وكان إدخال كتاب إلى السعودية من أهم القضايا المصيرية التي تواجهنا في السفر، أحد زملائنا أحضر معه بعض الكتب أو بعض الدواوين عندما سافر إلى بيروت عام ١٩٧٤م وعندما عاد إلى المملكة خاف من منعها (فدسها في البنطلون من الداخل)، فقد كنا نحتار في كيفية إدخال بعض الكتب حتى إننا كنا نضطر إلى تغيير غلاف الكتاب ونضع غلافًا آخر جديدًا؛ لأن الرقيب لا يمنعه!!

الآن بدأت الأمور تنفتح مرة ثانية، والوعي الآن أفضل من تلك الفترة، حيث إن الكتب كانت كلها موجودة ومع ذلك كان الناس يقرؤون، ولكنهم لم يتأثروا.

أتصور أن من ضمن المشكلات التي يواجهها أبناؤنا في القراءة. . أننا نفرض اختياراتنا وأذواقنا عليهم، نحن قرأنا واخترنا وأحببنا كتبًا وعلومًا وموضوعات ثم نريد أن يحب أطفالنا ما أحببنا، ويقرؤون ما قرأنا مع أن الزمان غير الزمان والوقت غير الوقت، مثلاً عندما نتكلم عن قصص الأطفال، كنا نقرأ قصص أطفال كثيرة، إما أنها مؤلفة وإما أنها مستقاة من التراث، وإما مترجمة. سلسلة المكتبة الخضراء التي يذكرها معظم جيلنا، وأتصور حتى الجيل الذي بعدنا.

الآن أنا أجد كثيراً من قصص الأطفال فيها رسومات جيدة وإخراج جيد، لكن المحتوى ضعيف جداً؛ وكأننا نخاطب مجموعة من المتخلفين عقلياً.

ما زلنا إلى الآن نركز على موضوع الثقافة الورقية، ونتجاهل الجيل الجديد دعنا نضرب مثالاً لما هي عليه الحال: الآن الجامعة الأمريكية عملت بحثاً للشباب (هل المستقبل للقراءة الورقية أم القراءة الإلكترونية؟) واحضروا عشرين طالباً من الجامعة الأمريكية ووضعوهم أمام جهاز الحاسب الآلي وقالوا لهم: اقرؤوا حتى تتعبوا أوحتى تملوا ثم توقفوا.

لقد وجدوا أن أكثر طالب فيهم لم يستطع أن يجلس أمام الجهاز أكثر من ساعتين، وخلصوا إلى نتيجة: أن المستقبل للقراءة الورقية، وأن القراءة الإلكترونية غير مجدية على المدى الطويل، طبعاً المسألة كلها خطأ، والخطأ مبني أن الطلاب الذين أحضروهم للقراءة ليسوا من هذا الجيل المستهدف.

الإنسان يقرأ ما يحب وليس أن أعطيه شيئاً وأقول له: اقرأ حتى تتعب، يمكن أنا عندما تعطيني من أول دقيقة أملّ. المسألة الثالثة أن الظرف أساساً غير طبيعي، فالطفل لديه أو دعنا نقل: إن الشباب ليس عندهم مانع في أن يجلسوا أكثر من عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة أمام الحاسوب أو الحاسوب المحمول، ويتصفحوا ويقرؤوا، هنا نعود إلى النقطة الأولى وهي تعريف القراءة، أتكلم عن القراءة الحرة:

هل هي كل ما نقرأه في كتاب أو ورق فقط؟ الآن أصبحت القراءة متعددة، الذين يتصفحون في الإنترنت هو نوع من القراءة، والذين يقرؤون في ترجمات الأفلام هو نوع من القراءة، طبعاً هذه مصادر مختلفة كل واحدة لها توصيف، ولكنها تدخل في التعريف العام إذاً نحن إذا أردنا أن ندفع أطفالنا إلى القراءة يجب أن نستخدم الوسائل المشوقة التي يحبونها ليست الألوان والصور والبهرجة كما نجدها الآن في قصص الأطفال، وإنما الوسيلة، وهذا ما تتكلم عنه الملتميديا عندما يمتزج النص المكتوب مع الصورة والصوت ومع الصوت والصورة بالأبعاد الثلاثة.

والسؤال الذي يطرح هو: لماذا لم تستطع برامج اللغة العربية أن تحبب الأطفال باستخدام اللغة العربية مثلما حببتهم بها أفلام الكرتون المدبلجة باللغة العربية الفصحى؟! ومن ثمَّ يجب أن نختار الوسيلة الحقيقية والمشوقة فعلاً للقراءة، وليس مجرد الأشياء التقليدية التي استقرت في أذهاننا.

بالنسبة إلى الكتاب الإلكتروني مهم جداً، ومشكلتنا نحن في المنطقة العربية عموماً أن المبتكرات الإلكترونية تأتي بشكل سريع ومكثف لكننا مقصرون كثيراً في موضوع المحتوى، ليس هناك محتوى الآن، مثلاً من الأشياء التي بدأت تنتشر في العالم كله الكتاب الإلكتروني (كندل وأي باد) وهو عبارة عن رقائق إلكترونية يمكن تخزين، آلاف الكتب عليها.

موقعي جوجل وأمازون الإلكترونيين تتيح هذه الكتب بمجرد أن أشتري كتاباً من عندهم، أحمله وأقرأه، ومن ثمَّ رقاقة كل هذه الكتب هي مجرد رقاقة. ليس هناك محاولات لنشر الكتاب العربي في هذا الجانب، الهاتف الجوّال الآن أصبح مصدر معرفة لكل شيء، والاتصالات الآن بدأت تبث قنوات فضائية فيها، وصار عندها أيضاً قناة خاصة، كل هذا، لكن المحتوى ليس هناك، مؤسستنا العلمية والثقافية في غفلة عن هذا الشيء.

عندما بدأت الطفرة الأولى كنا نتحدث عن الطفرة، وآثار الطفرة، والخوف من الطفرة، لكن وجدنا بعد ذلك آثاراً كبيرة أثرت على الناس، أصبح الناس أكثر اهتمامًا بالترف وبالشكليات، أذكر في مرة من المرات في معرض الكتاب، طلب إليَّ أحد الأصدقاء أن أختار له مجموعة من الكتب يريدها كي يضعها في مكتبته المنزلية، فكان السؤال البديهي والطبيعي الذي أوجهه إلى أي سائل: أي نوعية من الكتب تريدها؟ قال: كتب تكون كبيرة وشكلها حلو.. !!

طبعًا هذه المسألة الطفل يأتي ويجد أن هذا الكتاب جزء من الديكور وليس هو الشيء المرغوب فيه، لذلك كان هناك انصراف عن تقديم كتاب جيد للأطفال، أو المشوّق. بدأ الانصراف عن إتاحة الكتاب للأطفال الذين تحدثت عنهم؛ لأن المكتبات العامة مثلاً في السعودية نحن عندنا نحو (٨٢ مكتبة عامة)، أنا أنصح كل الناس ألا يأخذوا أطفالهم إلى بعضها حتى لا يصابوا بالاكتئاب!!

وجاءت فترة كانت المكتبات تابعة لوزارة المعارف، وكانوا إذا أرادوا أن يكرموا موظفاً فإنهم يقولون له: (اذهب ونم حتى ترتاح)، أما إذا كان هناك موظف مزعج وأرادوا أن يتخلصوا منه أرسلوه إلى المكتبة! ومن ثمَّ أصبحت المكتبة نوعًا من سد الفراغ! مكتبات الجامعات والمكتبات العامة كان التزويد فيها ضعيفًا جداً وليس هناك اهتمام بها بدليل معارض الكتاب الدولية.

كان هناك معرض جدة أقامته الخطوط السعودية، وليس أية جهة ثقافية أو تعليمية في الرياض جامعة الملك سعود وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كانتا تقيمان معارض غير ثابتة إلى أن بدأت في الفترة الأخيرة تأخذ الطابع المؤسس وتنتظم في الفترة الماضية كلها لم يكن هناك أي اهتمام بالكتاب ومع الطفرة أيضًا صار هناك اهتمام بالكتاب الجامعي؛ ولذلك الجيل الذي لا يقرأ جيل كبير، ونحن المسؤولون؛ لأننا نحن لم نستطع أن نوصل إليهم في ذلك الوقت، الجيل الجديد الآن يقرأ وبنهم ويقرأ كثيراً من المصادر المتاحة له، البوابة المهمة لجعل الطلاب يقرؤون تكمن في الحاسوب المحمول والهاتف الجوال ومن خلاله نستطيع أن نقدم لهم مايريدون.

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة قامت بشيء لم تقم به أية جهة أخرى ألا وهو نادي كتاب الطفل؛ عندما يشترك طالب أو طلاب نادي الكتاب للطفل الذي يمكن أن يشترك فيه الطفل أو أي أب أو أي أم بمبلغ ثلاثمائة ريال، وفي نهاية كل شهر يصل كتابان من خلال هذا النادي باسم الطفل عبر البريد. هذا يعني أنه في نهاية العام سوف يمتلك هذا الطفل أربعة وعشرين كتابًا، وأيضًا من ضمن فعاليات المشروع الثقافي الوطني لتجديد الصلة بالكتاب نادي الكتاب للكبار، أيضًا بالاشتراك في الآلية نفسها، ويصل إلى الشخص كتاب عبر البريد نهاية كل شهر.

أذكر قديماً عندما كنا نشتري مجلة سوبرمان والوطواط، كانت المجلة تصدر عن دار المطبوعات المصورة في لبنان، فأرسلوا لنا قالوا أن نختار أشياء من نماذج موجودة وما أرسلوه لنا كان عبارة عن غلاف صغير عليه صورة سوبرمان والوطواط مثل النايلون الذي يضعون فيه الكروت، الآن يمكن أن يجده أي شخص من محل (أبو ريالين) مجانًا.

كنا نحافظ عليه لسنوات طويلة؛ لأنه شيء خاص لنا ولا أحد فرضه علينا، والشيء نفسه عندما كنا طلاباً بالجامعة، كنت أقرأ الكتاب، وأشتريه من السوق وأقرؤه، إذا جئت في اليوم التالي وقال لنا الأستاذ: الكتاب مقرر عليكم، لم نعد نقرؤه؛ لأنه أصبح مفروضًا..!

بالنسبة إلى التكوين باللغة الإنجليزية ترى جيلاً الآن خصوصًا الذين يدرسون في المدارس الخاصة والمدارس العالمية يقرؤون كثيراً من القصص؛ لأن الغرب أصبح يقدِّم لهم نوعيات من التأليف للقصص بمختلف الأشكال المشوقة للأطفال، وصار الأطفال يقرؤون منها مثلاً هناك قصة من قصص الأطفال كانت مكتوبة على قماش مبطن، هذه ممكن أن تغسل، ويمكن أن يلعب الطفل بها ويأخذها إلى أي مكان دون أن تتلف وفي الأخير قصص يأخذها معه لكي يلعب بها ويتفرج عليها وكل فترة يقرأ فيها أو صوراً لأساليب التعليم سواء الإلكترونية أو غيرها من الأشكال المختلفة بالنسبة إلينا.

نحن مـا زلنا حتى في الصناعـة ضعـفـاء جداً، وإذا أراد احـدنا أن يؤلف قصـة للأطفال قال هاتوا القصة أحضروا رسامًا، يرسم الرسوم، ثم خذها إلى المطبعة، ويجب أن يكون الورق مصقولاً وملونًا والباقي على الله!

كانت النقلة الكبيرة قرائيًا، عندما انتقلت من الجامعة و أجواء البحث العلمي، والقراءة المتخصصة في اهتماماتي إلى الصحافة، صرنا نقرأ كل شيء. ولكنها أصبحت القراءة بما يسمى بالقراءة النفعية، ليست القراءة التي اختارها، وإنما أقرؤها لأنها هي التي ترد إليّ !

الشيء الآخر أني أنا لا اقرؤها لفائدة معرفية، وإنما لفائدة رقابية! ومن ثم يمكن أنا صرت أكثر قراءةً، ولكنها أقل فائدة لي، لأن هناك كثيراً من الأشياء اقرأها بحكم طبيعة العمل، ولذلك دائماً في تعريف القراءة الحرة أخرجوا منها القراءة المطلوبة للدراسة أو العمل؛ لأنها لا تكون في القراءة الحرة، وما يستقطع بعد ذلك للقراءة في تلك الفترة كان ضئيلاً؛ ولذلك أشعر أن تلك الفترة أخذت شيئًا كبيرًا من وقتي فيما يتعلق بالقراءة، بعد ترك الصحيفة فرغت مرة أخرى للقراءة، وبدأت أرمم كثيراً من المعلومات التي أحسست أنها بدأت تتآكل.

قراءاتي الآن في الدرجة الأولى ما يستجد في الساحة وهو الحراك الفكري، والإبداع الجديد والحراك الفكري سواء في السعودية أم في العالم العربي وتحليله، هذا أقصى شيء يشغلني الآن. دائماً عندما نقدم للأطفال ما يقرؤون يجب أن يتوافر فيها جانبان، البرنامج الذي يسمونه (Needs and Wants) (الاحتياج والرغبة) الذي يرغبون فيه هو جزء لابد من أن نراعيه، وما يحتاجون إليه هو جزء أيضًا لابد من أن نراعيه. الاثنان معاً هما اللذان يشكلان هذه القراءة.

بالنسبة إلى المصادر المختلفة للثقافة هي أشبه ما تأخذ الحركة الدائرية، أنا تحدثت أنه في العصر الجاهلي والعصور الأخرى إلى عصر التدوين كانت الثقافة الشفوية هي المصدر الحقيقي للثقافة، ثم بعد ذلك ومع التدوين ومع انتشار العلم والكتاب

أصبحت الثقافة القراءة هي القراءة الورقية، هي المصدر الأساسي للثقافة إلى جانب الثقافة الشفوية مما يسمعه الناس، فهذه عادة أخذها الجانب الشعبي العامي.

الآن أصبحت الثقافة الشفوية تعود مرة أخرى عن طريق التلفاز، وعن طريق المذياع إلى آخره.

بالنسبة إليَّ الإذاعة أول ما انتشرت كان الناس يقولون: إنها بدأت تأخذ مساحة من الكتاب ومن ثمَّ بقي الكتاب والإذاعة استمرت عندما جاء التلفاز قالو: إن التلفاز حل محل الإذاعة، وبدأت الإذاعة لا تُسمع، وهذا حصل فعلاً كلنا كنا نسمع، وبعد ذلك تضاءلت الآن أصبح هناك عودة أخرى إلى الإذاعة، ربما بسبب اتساع المدن أو بسبب بقاء الناس فترة طويلة في السيارات صاروا يسمعون الإذاعة، هذا ليس لدينا فقط، بل في كل الدول، أي إنهم ركّزوا عليها في أمريكا، وأصبح الرئيس الأمريكي له حديث سنوي في الإذاعة يوجهه إلى الأمريكيين. الإذاعة الآن بدأت تأخذ دورها. من تجربة شخصية أنا من الناس المقصرين جداً فيما أسمع من الإذاعة، فلا أستمع إليها، وأحيانًا إذا قال لي أحد: هناك برنامج جيد في الإذاعة، أستمع إليه، لكن أجد عندما يكون لي حديث في الإذاعة في موضوع معين يحدثني كثير من الناس أننا سمعنا كذا وسمعنا كذا.. فأصبح اليوم هناك عودة أخرى إلى الإذاعة، ومن ثمَّ كل هذا الآن الناس بدؤوا يتحدثون عن الملتميديا التي هي الوسائط الإعلامية المتعددة، كيف أن كلها ممتزجة، و نستطيع أن نأخذها مصادر للثقافة؟

العزوف عن القراءة، أنا لا أتصور أن هناك عزوفاً عن القراءة، دعني أجب عن نقطة..

كنا نتكلم في السنوات الماضية أو كثير مما نشر من أن الأمة لا تقرأ، وأن الناس لا يقرؤون إلى آخره.. هذه جاءت بعد تقرير انتشر عندنا نشر في أمريكا أظن عام ٢٠٠٣م (اسمه القراءة في خطر)، عن انحسار القراءة في الغرب، بعد ذلك

في أمريكا، بدؤوا في مشروع وطني للتحفيز على القراءة، التقرير الأخير الذي كان ٢٠٠٨م أظهر ارتفاعًا كبيرًا في معدلات القراءة في المجتمع الأمريكي، وارتفاعًا كبيرًا في معدلات القراءة الأدبية نفسها، بالنسبة إلينا في جانبين، الجانب الأول: هو جانب التقصير، حيث إن اهتمامنا بالكتب والمقررات الجامعية بالدرجة الأولى، حتى أصحاب دور النشر ما عادوا يهتمون إلا بهذا الجانب؛ لأنه الأكثر ربحاً ويدر مبيعات أكثر!

الجانب الآخر أننا لم نقدم أي شيء يحفز على القراءة. في الفترة الأخيرة في فورة تأليفية كبيرة من الأسباب التي يعاني منها العالم العربي كله، هي أزمة التوزيع نحن ليس عندنا مشكلة في النشر بشكل كبير، المؤلف عندنا يؤلف كتابه لا يستطيع توزيعه لأنه مؤلف وعملية التوزيع ليس له فيها صناعة ومن ثمَّ فهم أي المؤلفين لا يعرفون ولا يستطيعون أن يذهبوا إلى المكتبات ليوزعوا ويبيعوا! ليست هناك شركات توزيع تقوم بهذا الجهد، وهذا الجهد يجب أن تقوم به بالدرجة الأولى المؤسسات الحكومية، وتدعمها في سبيل أن توصل الكتب إلى أيدي الناس، بالإضافة إلى أنه يجب أن تكون الكتب مشوقة حتى يقبل الناس على قراءتها.

في فترة الثمانينيات الميلادية، تصدّر موضوع الحداثة، المشهد الثقافي السعودي؛ فقد بدأت تتشكل مدرسة في جامعة أم القرى، حيث كانت الجامعة تموج بتيارات كثيرة كان هناك تيار إخواني جاء مع الأساتذة السوريين الذين احتضنهم الملك فيصل بعد أن طردهم حزب البعث السوري، فقرأنا عليهم، ثم بعد ذلك كان هناك تيار إخواني مصري، على يد محمد قطب والمجموعة هذه، أيضاً قرأنا عليهم، وجاءنا أساتذة ممن درسوا في فرنسا وبريطانيا وهؤلاء كانوا من جامعة عين شمس تحديداً ودار العلوم: دكتور لطفي عبدالبديع، والدكتور عبدالواحد علام، والدكتور محمود الطناحي، وكان هناك أساتذة من الأزهر، هؤلاء شكلوا ثقافتنا الجامعية، كان الذي قدم البنيوية إلى جيلنا نحن هو الدكتور لطفي عبدالبديع، وهو رجل كان يقرأ ويكتب بأربع لغات

ومن ثمَّ كان هو أول من نشر البنيوية في العالم العربي، يقول الدكتور سعد مصلوح عن لطفي عبدالبديع: إنه هو أول من فتح هذا الباب، ثم دخلناه جميعًا بعده.

ومن ثمَّ صار هناك جيل سعيد السريحي، وعالي القرشي، وعثمان الصيني ودخيل الله أبو طويلة، وجريدي المنصوري، ومحمد مشعل الطويرقي، وهو جيل تتلمذ على يدي لطفي عبدالبديع، الذي كان في مرحلة الدراسات العليا ويلقي علينا المحاضرات، حيث التقينا وقتها بمجموعة من الشباب الذي يقدم الإبداع الحديث، أمثال: محمد الثبيتي، وعبدالله الصيخان، ومحمد جبر الحربي، فكان هؤلاء مجموعة شباب مبدعين نحن بدأنا ندرس المناهج النقدية، والتقينا مع بعض ونشأت منها ما سمي بحركة الحداثة، وكنا نناقش ونكتب في الصحف وطبعاً بعد ذلك انتبهوا أنه ينبغي أن نبدأ بلم المسألة في جامعة أم القرى، لطفي عبدالبديع ألغي عقده، كما ألغيت عقود مجموعة من الأساتذة غيره.

سعيد السريحي رسالته نوقشت وعندما وصلت إلى مجلس الجامعة، رفض مجلس الجامعة اعتمادها، وأعادها إليه، وطلب إليه أن يسجل رسالة جديدة، عالي القرشي أيضًا وعلى الرغم من أن رسالته في الماجستير كانت تدور حول المبالغة في البلاغة العربية والدكتوراة عن بشر بن أبي خازم الأسدي، وأيضًا الشيء نفسه كانت رسالتي في النحو ظلت حبيسة أدراج كلية الدعوة مدة تسعة أشهر، إلى أن أفرج عنها، وبعد ذلك ناقشتها وأخذت الدكتوراة هذه الفترة الثانية، طبعاً كلامها طويل.

بالنسبة إلى تجربة صحيفة الوطن كانت تجربة جديدة بالنسبة إلينا، طبعًا هنا أتكلم بناء الفاعلين؛ لأننا كنا مجموعة ولم أكن وحدي، صحيح كنت مسؤولاً منذ البداية عن صفحات الرأي والثقافة، إلا أننا حرصنا على أن نستكتب في مقالات الرأي غير الأسماء البارزة المعروفة بالصحف، ليس تقليلاً من شأنها، لكن هذه لها منابرها، وأخذت وضعها؛ لذلك كنا حريصين على أن نبرز أسماء جديدة، بعض الأسماء الآن التي تعد من أهم الأسماء لم تكتب حرفاً في صحيفة قبل الوطن بعضهم كان من

دون بداية أصلاً مجرد ما أن يرسل لنا مقالة بالبريد الإلكتروني يقول : إنني أرغب في الكتابة ، حتى تكون الخطوة الثانية بأن نرد عليه بالطريقة نفسها أرسل إلينا نماذج من كتاباتك ، فيرسل لنا مقالة أو مقالتين ، إذا رأينا أن المقالة جيدة نشرناها ، وبعد ذلك نرسل إليه رسالة فحواها : انظر إلى الجريدة اليوم لتجد مقالتك منشورة ، بهذه الآلية كنا نتعامل ، الوقت ضيق ولو كان هناك وقت لأوردت قصصًا كثيرة لكننا أطلنا .

بالنسبة إلى هذه القراءات اعني لماذا الحداثة والأشياء هذه؟ لأن هذا المعترك الذي رأيناه نحن ، الإخوانية السورية والمصرية ، والرؤية الحديثة ، والناس الذين درسوا في أمريكا ، التراث والمخطوطات كل هذه شكلت لدينا قبولاً لكل الآراء والتيارات بالنسبة إلى الأندية الرياضية وقتها لم تكن هناك أندية أدبية ، كان المجال الوحيد هوالنادي الرياضي ، وكانت الأنشطة فيه ، وكان النشاط المسرحي في الأندية الرياضية ، من ألمع الأنشطة إلى جانب الفنون التشكيلية ، كان أفضل مكان للمعارض التشكيلية من خلال الرئاسة العامة لرعاية الشباب في الأندية ، إلى أن جاءت الجمعية السعودية للثقافة والفنون ، ثم بعد ذلك حُد من نشاطها ، دعمت في الأول ، وبعد ذلك حُد من نشاطها إلى أن أصبحت مجرد أماكن صورية . الآن الأندية الرياضية بدأت تهتم كما أتصور تجربة الدكتور فهد العليان في نادي الشباب ، والتقاء الرياضيين بالأدباء والمثقفين خطوة متقدمة و فريدة ومتميزة ، أتمنى أن تحذو الأندية الأخرى حذوها و تسيرعلى ضوئها .

موضوع منطقية الرقابة يعني الرقابة أو لا رقابة ، في البداية لم تكن هناك معايير معينة تضبطها ، نعم هناك فوضى ، لكن نحن بالنسبة إلينا كانت الرقابة مسألة مضحكة تماماً ، فمثلاً عندما كنا نحضر الكتب كانوا يفتشونها ويأخذون بعضها . أنا نفسي عندما كنت أسافر أخذ معي كتاباً بقصد أن أقرأه في الطائرة وعلى الرغم من أنني أشتريته من السعودية إلا أنني عندما أعود حاملاً معي الكتاب يمنعني الرقيب من إدخاله ، و أقول له : إنني اشتريته من السعودية ، فيقول لي : لا ؛ ممنوع! هل هذا منطق؟ كان بعض الرقباء يقول لك بكل صلف : هذا ممنوع! إنسان قادم للتو من السفر حاملاً معه كتاب الشيخ محمد الغزالي (السنة النبوية) ، تصور أن مثل هذا الكتاب

وغيره يدخل إلى المنافذ ويمنع على الرغم من أننا كنا نشاهد هذه الكتب مكدسة هناك في مكتباتنا، وتباع فيها؛ أليس هذا تناقض؟!

قديماً كان كل شيء ممنوع، وكانت هذه الفكرة عند رقابة المطبوعات، حتى الإخوان في معرض الرياض للكتاب الذي نظمته جامعة الملك سعود سألوا الرقيب: لماذا تمنعها؟ فيقول: أنا طول عمري ما حاسبني أحد على كتاب منعته، إنما كانوا يحاسبونني على الكتاب الذي سمحت بمروره في حين المفروض أن يحصل العكس على الأقل من باب نشر العلم: «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار»⁽¹⁾ المفروض أن يحاسب على هذا الكتاب، لماذا منعه؟ طبعًا هناك خطوط حمراء أي كتاب عن الجنس أو كتب في الإلحاديات التي هي واضحة، هذه التي تُمنع أما غير ذلك من الأمور الخلافية في بعض الأمور ما لم تناقش، هذا صار مثلاً في المحاضرات عندما كنا في السابق نشارك في بعض اللجان المشهورة في المناسبات الكبيرة، كلما طرحنا دعوة أحد من الأسماء المشهورة في العالم العربي، أو خارجه، قالوا: لا، هذا عليه ملحوظات! حسناً أحضروهم ودعونا نناقشهم، يسمعون منا ونسمع منهم، وهذا ما حصل فعلاً مثلاً في المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادرية في هذه السنة جاءنا كثير من الناس الذين نختلف معهم وناقشناهم وناقشونا. وهذا الذي يأتي الآن عبر الإنترنت كل شيء موجود وكل شيء متوافر، ومن ثمَّ يجب أن تتغير فلسفة الرقابة، ويجب أن يتغير أسلوب الرقابة، يجب أن يتغير..!

هذه جولة سريعة أو طويلة للفترة كما رأيتم التي قضيناها في القراءة وفي علاقتنا بالكتاب. وشكراً.

---

(١) رواه ابن حبان (١/ ٢٩٨) والحاكم (١/ ١٨٢) من طريق عبد الله بن عياش بن عباس عن أبيه عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو: "أن رسول ﷺ قال: من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" قال الحاكم: "هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة". قال مقيده: في إسناده عبد الله بن عياش بن عباس القتباني أبو حفص المصري قال فيه أبو حاتم: ليس بالمتين صدوق يكتب حديثه وهو قريب من ابن لهيعة وقال أبو داود والنسائي: ضعيف وقال ابن يونس: منكر الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، روى له ابن ماجه وروى له مسلم حديثاً واحداً في الشواهد لا في الأصول، والله تعالى أعلم، انظر تهذيب التهذيب (٥/ ٣٠٧).

القراءة وسيطرة اللغة..!(١)

د. حسن بن فهد الهويمل

رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية

المحاضر غير المتفرغ بجامعة القصيم

الحمد لله وأصلي وأسلم على رسول الله. أساتذتي وإخواني وزملائي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: - أنا مدين للإخوان في المكتبة، الذين توسموا فيَّ خيراً ووجهوا لي الدعوة للحديث عن تجربتي القرائية، وقد كتبت المدخل أو المقدمة في مقالي هذا اليوم في جريدة الجزيرة عن تدارك السير الذاتية قبل فوات الأوان؛ لأن الحديث عن التجربة القرائية جزء من السيرة الذاتية؛ فالإنسان عندما يتحدث عن ممارسته القرائية: بداياتها وتحولاتها، واهتماماتها، وعما ترتب عليها من صراعات وخلاف وتنازع حول كثير من القيم فإنها جزء من السيرة الذاتية، وتحدثت عن أهمية السيرة الذاتية، وخطورة الدخول فيها لمثلي كإنسان لا يمتلك ما يستحق أن يدوِّن أو يكتب أويترك للقراءة ولهذا فضلت الارتجال على القراءة.

ومكتبة الملك عبد العزيز العامة أحسنت صنعًا عندما طرحت مثل هذا المشروع؛ لأن فيه إغراء الشباب بالقراءة..، ونوعًا من توظيف بعض التجارب، وكنت أتمنى ألا يكون الحضور من الأساتذة الذين يحوزون التجربة الأفضل؛ فهم وحدهم يستطيعون أن يرشدونا إلى منهج القراءة وطريقة القراءة.

كنت أتوقع أن يكون الجمهور من الشباب المبتدئين فإذا بي أفاجأ بأنهم من العمالقة الذين تجاوزوا القنطرة كما يقال عن رواة البخاري، أو أنهم أصبحوا ليسوا بحاجة إلى

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة ارتجالاً، مساء الاثنين ٨ محرم ١٤٣٢هـ، الموافق ١٤ ديسمبر ٢٠١٠م، بقاعة المحاضرات الرئيسة بفرع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمربع.

أن يستمعوا إلى تجربتي، فهي تجربة منهم وإليهم، وربما سيقولون في نهايتها: هذه بضاعتنا ردت إلينا!

على أية حال المشروع مهم وإيجابي وحضاري أن تستقطب المكتبة مَنْ تتوسم فيهم التجربة العميقة والعريقة والمتعددة لكي يطرحوا هذه التجربة للشباب كي يستفيدوا من هذه التجارب كما يقال: العاقل من وعظ بغيره!

فإذا أنت استفدت من تجارب الآخرين، فأنت اختصرت الوقت والجهد والمال أيضًا.

في المقال اليوم وهومقدمة الكلمة في هذا اللقاء تحدثت عن أهمية السيرة الذاتية، وأنها بقدر ما هي مهمة؛ فهي أيضًا حسّاسة؛ لأنه ليس كل إنسان يجترح الكتابة في السيرة الذاتية، يستطيع أن يقدِّم سيرة ذاتية مكتملة ومستوفية لشروطها اللغوية والدلالية.

لكن مع هذا ومع خطورة السيرة الذاتية وأهميتها فنحن أحوج، ما نكون إلى توفر هذه السير من الكفاءات العلمية والاقتصادية والسياسية، ومن رجال الأعمال وغيرهم؛ لأن كل إنسان مقتدر يقدم تجربته للأجيال القادمة.

وقد أشرت إلى علاقة التجربة القرائية في السيرة الذاتية وأتصور أنه من الأمور الصعبة جداً أن يموضع الإنسان ذاته بحيث يحوِّل نفسه وتجربته وخصوصيته إلى موضوع؛ فهو بين أمور وقضايا محرجة. ما الذي يقول؟ وما الذي ينتقي؟ وهل تتوافر المصداقية والشفافية؟ هل يكون الانتقاء حياديًا أو غير حيادي؟

وأتصور أن موضعة الذات من الذات نفسها من الصعوبة بمكان وموضعة الذات من الآخرين أن تموضع عالماً، وتحوله إلى موضوع وإلى قضية. هذه فيها ما فيها من الحساسية، والأشد من هذا أن يأتي... إنسان ويموضع نفسه، ويتحدث عنها كقضية، وكموضوع وهذا فيه شيء من المحاذير..!

وقلَّ أن تتوفر المصداقية والحيادية والانحياز الإيجابي كما يقول السياسيون. ثم أيضًا يحتاج الحديث عن الذات، وموضعتها إلى القدرة على شد الانتباه، وعلى إثارة

الفضول عند الآخرين لكي يستمروا في قراءة هذا الإنسان؛ فدائمًا لا يتوفر الكاتب على المغريات، وعلى الأسلوب الذي يمتلك ناصية الحديث، وناصية التناول بحيث؛ يؤثِّر على القارئ، والقدرة على انتقاء ما يفيد وما هومهم في حياة الإنسان، ومهم للحيوات الأخرى!

لن أتحدث عن أهمية القراءة ولا أحد يستطيع أن يضيف شيئًا إلى هذه الأهمية؛ فالقراءة يكفي أنها اكتشاف . . . ، تكتشف عوالم، وتكتشف معالم، وتكتشف أفكارًا، وتكتشف قضايا . القراءة هي تاريخ الحياة، وأنت منذ أن تولد إلى أن تموت وأنت تسهم في صناعة هذا التاريخ إما أن تكون هامشيًا أوتكون في متن الحياة !

قد لا أستطيع أن أفصل القول في بدايتي القرائية، لكن سآتي بلمحات فما قبل المكتبات ليس هناك شك أن القراءة لا بد أن تتوافر على كتاب ومكتبة خاصة، أي لا بد أن يكون هناك كتاب ومكتبة، ولا بد أن تتوافر أجواء ثقافية وأجواء معرفية يستطيع من خلالها الإنسان أن ينطلق، وأن يشكِّل وعيه وأن يشكِّل ثقافته وأن يشكِّل اتجاهاته، لكن ما قبل المكتبات، وهذا قبل ٦٠ سنةً، أنا ولدت عام ١٣٦١ هـ. .

معنى هذا أني تجاوزت السبعين سنة، وأنا في العقد الثامن. وقد بدأت أعي وأقرأ والتحقت بالكتَّاب قبل ٦٠ سنة، طبعًا هذا زمن بالنسبة للشباب ضخم وكبير، ستون سنة يكون الإنسان مرتبطًا بالكتاب ومرتبطًا بالقراءة، وهذه من نعم الله تعالى علي .

فتحت عيني في منزل والدي . . الذي لم يكن قارئًا ولم يكن عالمًا كان رجل أعمال لكني وجدت في البيت ثلاثة كتب وجدت (رياض الصالحين)؛ ووجدت (المستطرف في كل فن مستظرف)(١)، ووجدت (جواهر

---

(١) للإبشيهي. من مشاهير كتب الرقائق والأدب، استظرفته العامة والخاصة، وحذا حذوه كبار الأدباء من بعده. وهو يشتمل على كل فن ظريف، وفيه الاستدلال بآيات من القرآن وأحاديث شريفة وحكايات حسنة عن الأخيار، وفيه لطائف عديدة من منتخبات الكتب المفيدة، وأودعه من الأمثال والنوادر الهزلية والغرائب والدقائق والأشعار والرقائق، وجعله مشتملاً على أبواب عدتها أربعة وثمانون بابًا.

الأدب)(١) للهاشمي وهذه الكتب لم أستوعبها، ولكني بدأت إلف الكتاب منها، وعندما عشقت الكتاب والمكتبة بدأت أنقلها من رف إلى رف وسميتها في إحدى مقالاتي، كانت (سحارة) صغيرة أضع عليها هذه الكتب الثلاثة هذه هي بداية ارتباطي بالقراءة كان هذا في عام٧٢هـ أو٧٣هـ أي قبل ٦٠ أو٥٨سنة.

من الأشياء التي استفدتها مجيء الجرائد والمجلات كالبلاد والمنهل إلى بعض الأسر الثرية وهي من الأسر المجاورة لنا.

كنت أستعير بعض هذه المجلات وهذه الجرائد وهذه المطبوعات، ولا أعرف ما إذا كانت هذه كتبًا أومجلات أو جرائد هي شيء مقروء، وبدأت أقرأ في هذه الجرائد البسيطة والكتب، وأول ما فتحت عيني على جريدة (أم القرى)، وجريدة (البلاد)، ومجلة (المنهل)، وكان المرحوم الدكتور صالح الوشمي(٢) وحيد أبويه، وكان أبوه من العلماء البارزين وكان يدعمه أو يشترك له في هذه المطبوعات التي لا نعرفها ولا نستطيع أن تشترك بها، وكان يعيرني بعض هذه الصحف أو بعض هذه المجلات هذه هي الخطوة الأولى لتجربتي القرائية.

---

(١) (جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)، لأحمد الهاشمي، يبحث في علمين مهمين من علوم اللغة وهما: علم الأدب وعلم الإنشاء والكتاب على قسمين، قسم في الإنشاء وفيه خمس أبواب " أصول الإنشاء والمراسلات والمناظرات والأوصاف والروايات " والقسم الثاني في الأدب كتب فيه عن تاريخ الأدب العربي، وأبواب الشعر العربي.

(٢) الدكتور صالح بن سليمان الناصر الوشمي ولد عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م في مدينة بريدة. تلقى تعليمه الأولي في كتَّاب أهلي ثم واصل مسيرته التعليمية حتى حصل على الثانوية العامة والتحق بعدها بالمعهد العلمي ببريدة، فالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، فكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، حيث حصل منها على ليسانس في الآداب ثم واصل دراسته العليا في جامعة الأزهر، ثم انتقل إلى جامعة الملك سعود فحصل منها على درجة الماجستير عام ١٩٨١ ثم إلى جامعة الإمام محمد بن سعود فحصل منها على درجة الدكتوراة في التاريخ والحضارة عام ,١٩٨٨ تشكلت شاعريته خلال دراسته ببريدة حيث كانت المهرجانات والندوات الأدبية ميدانا للتنافس بين الزملاء. والى نشر شعره منذ الخمسينيات في الصحف والمجلات السعودية ولكنه لم يجمع شعره في ديوان. كما كان له أبواب ثابتة في صحف (القصيم) و(الرائد) و(المنهل). مؤلفاته: لمحات عن منطقة القصيم (بالاشتراك) - أبو مسلم الخراساني - الجواء ماضياً وحاضراً - القيمة الاجتماعية والتاريخية في كتاب البخلاء - ولاية اليمامة الإسلامية حتى القرن الثالث الهجري.

الخطوة الثانية خطوة المكتبات كان في بريدة مكتبة اسمها مكتبة الجامع، (جامع بريدة) وكان الذي يشرف عليها ويرعاها سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد(١)، رحمه الله، وكان شخصية مهيبة وعالماً جليلاً، وكنت حدثاً أحضر حلقات الدرس عنده لكنني لا أعي ما يقال، ولا يقام لي وزن بين طلابه الذين تتجاوز أعمارهم الثلاثين والأربعين سنة لكنني كنت حريصًا على أن أحضر هذه الجلسات، وكنت أمنِّي نفسي أن أكون واحدًا من الطلبة ومن الذين يقرؤون على الشيخ عبد الله، كانت المكتبة في غرفة طينية في الجامع الكبير في بريدة، ولما زار الملك (سعود) رحمه الله القصيم، واجتمع بفضيلة الشيخ عبد الله بن حميد، وكان فيها مخطوطات، وفيها أمهات الكتب وكان يخشى عليها من الضياع؛ لأن الغرف الطينية قد لا تكون حرزًا أمينا للمكتبة عرض على الملك سعود رحمه الله أن يقام لها مبنى، فوجَّه الملك سعود رحمه الله بأن يقام لهذه المكتبة مبنى.

وكانت هذه المكتبة، أول بناء مسلح أقيم في بريدة بل في القصيم كله، وكنا نعجب لعدم وجود أخشاب تحمل السقف، وكنا نتهيّب الدخول تحت السقف نخشى أن يسقط علينا فانتقلت المكتبة، وكان فيها صالة كبيرة يجلس فيها الشيخ عبد الله بن حميد، وكان هناك أيضًا قاعات للكتب فبدأت أزور هذه المكتبة في بعض فترات الفراغ، وكنت أحرص على أن أكون قريباً من الشيخ عبد الله، أعرف أنه يأتي إلى المكتبة بعد صلاة العصر. ويأتي به أحد أبنائه ومنهم فضيلة الشيخ الدكتور صالح(٢)

---

(١) سبق التعريف به في ص٢٤٤ .

(٢) صالح بن عبدالله بن حميد: من مواليد بريدة سنة ١٣٦٩هـ. رئيس مجلس الشورى السابق منذ تاريخ ٢٤ ذو القعدة ١٤٢٢هـ. ورئيس المجلس الأعلى للقضاء منذ ٢٠٠٩م . عمل معيداً في كلية الشريعة في جامعة أم القرى ثم محاضراً في الجامعة نفسها ثم أستاذًا مساعدًا إلى أن أصبح رئيسًا لقسم الاقتصاد الإسلامي في الجامعة نفسها بعد ذلك تولى منصب مدير مركز الدراسات العليا الإسلامية بجامعة أم القرى وكيل كلية الشريعة للدراسات العليا بجامعة أم القرى ثم عميداً لكلية الشريعة. عين نائبًا للرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي ثم عضواً في مجلس الشورى ١٤١٤هـ - ١٤٢١هـ وفي عام ١٤٢١هـ صدر أمر بتعيينه رئيساً عامًا لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، وفي ٢٤ ذو القعدة ١٤٢٢هـ صدر أمر ملكي بتعيينه رئيساً لمجلس الشورى، وهو الآن رئيس المجلس الأعلى للقضاء منذ ١٩ صفر ١٤٣٠هـ ، خلفاً للشيخ صالح اللحيدان.

رئيس مجلس الشورى سابقاً ورئيس المجلس الأعلى للقضاء حالياً كان في ذلك الوقت طفلاً صغيرًا يأتي به يمسك بعصاه حاسر الرأس، ثم إذا أجلسه في القاعة ذهب إلى لداته من الأطفال يلعب، كنت أحاول أن أقترب من الشيخ وأسلم عليه، وبعض الأحيان يطلب إليَّ أن أقرأ عليه بعض الصحف الموجودة فهو يحب قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، فكنت أقرأ لكنَّها قراءة تهج وتلعثم ولغة مكسرة ولحن، فكان لا يتيح لي فرصة أن أقرأ سطراً واحداً بل لا أقرأ جملة واحدة حتى يرد علي ومن ثم لم أستطع أن أقترب منه الاقتراب الذي أستفيد منه فاكتفيت بحضور حلقات الدرس التي تقرأ عليه، وفضيلته رحمه الله كان ينوع القراءات فشخص يقرأ في التاريخ، وآخر يقرأ في التفسير وثالث يقرأ في الحديث، ورابع يقرأ في التوحيد وخامس يقرأ في كتب موسوعات الأدب، جلسة مفتوحة، وكنت أستمع وألتقط بعض الشيء أعي ولا أعي، وأفهم ولا أفهم، لكنني. أحسست بإلف القراءة وأحسست بإلف الكتاب، ثم بدأت أدخل المكتبة وأقرأ ما تيسر وجدت فيها موسوعة (الأغاني)، وجدت فيها (صبح الأعشى) وجدت فيها (حياة الحيوان) للجاحظ، والحيوان للدميري، وجدت فيها أيضا كتباً في الفقه والفقه المقارن كالمغني وغيره لكنها أكبر من حجمي لكنني بدأت أعرف هذه الكتب وآلف هذه الكتب.

الذي غير مجرى حياتي، بالصدفة والصدف هي التي تغير مجرى الحياة، كان هناك رجل حضرمي مسن كان في ذلك الوقت قد فتح فرع للبنك الأهلي، وكان الذين يشتغلون فيه حضارمة، وكان هذا لشيخ المسن حضرميًا جاء مع ولده الموظف في البنك، وكان يقضي جُلَّ وقته في المكتبة كان عمره بالسبعين أوأكثر، وأنا في العقد الثاني ربما أنه استلطفني وبدأ يقرّبني منه، ويناقشني بأمور عندما أستمع إليها أحس بشيء من الصعق الكهربائي بدأ يحدثني عن العقلانية، ويحدثني عن الاعتزال، ويحدثني عن علم الكلام، ويحدثني عن السلفية(١) ويحدثني عن الحرية أشياء لا

---

(١) السلفية: مدرسة فكرية سُنية، ظهرت في منطقة نجد تدعو إلى العودة إلى "نهج السلف الصالح" كما يرونه والتمسك به باعتباره يمثل نهج الإسلام الأصيل والتمسك بأخذ الأحكام من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ويبتعد عن كل المدخلات الغريبة عن روح الإسلام وتعاليمه، والتمسك بما نقل عن السلف وأبرز ممثلي هذا الالتزام بآراء السلف في العصر الحديث حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله . .

أعرفها ولا آلفها وكان يقول لي: هذه المكتبة تثريك علمًا، لكنها لا تمنحك منهجية، ولا توفر لك آلية أنا أستمع هذه الأشياء دون استيعاب وتظل عالقة بذهني لكنها غير مفهومة ولأنها أشبه بزخات البرد على ذاكرتي بقي أثرها أو بقيت أحتفظ بكثير من كلامه وتوجيهاته، كان يقول الإنسان يجب أن يستقل في رأيه والإنسان يجب ألا يحتقر الآراء الأخرى، وعلماؤنا الأوائل موضعوا الذات الإلهية، وتحدثوا عنها بحرية، واختلفت آراؤهم وما صنعوا هذه الحضارة إلا أنهم خاضوا معترك الفكر، وعملوا، وبدأت أحس بنوع من الارتباك، نوع من التساؤل إنها مكتبة زاخرة، لا تفيدك إلا بالتراكم المعرفي، ولكنها لا تعطيك المنهج، ولا تعطيك الآلة ولا تفتح لك الآفاق.

أنت بحاجة – يقول لي هذا الكلام– إلى أن تقرأ الاعتزال، تقرأ الفكر الاعتزالي؛ لأنه احترم العقلية ولأنه موضع الأشياء، ولم يتهيب وأنه.. وأنه.. وأنه..، وأنا لا أعرف الاعتزال، وليس لدي تصور إلا أني شخص أصلي، وأصوم وأسأل عن الأحكام أقرب عالم، بقي في اللاوعي هذا الكلام وبدأت أتساءل.. حتى عندما أجلس مع علماء أسأل وأقول مثلا: مَنْ هم المعتزلة؟(١) يأتيك من يقول لك: هؤلاء هم الذين عذّبوا الإمام أحمد والذين شقوا في الإسلام شقًا، هم الذين حطّموا السلفية والذين أولوا، والذين افتروا الكذب وهذا يقول لي: لن تستطيع أن تكون قارئًا، ولن تستطيع أن تكون مثقفاً حتى تستوعب منهج الاعتزال، وحتى تقرأ كتب الاعتزال..

كل هذه الأشياء تمر كـ (بانوراما) صوراً متداخلة، لكنها غير مفهومة، وغير واعية ظلت في اللاوعي، وبدأت أتساءل متى يأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أعرف

---

(١) المعتزلة: فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري(٨٠ – ١٣١هـ) في البصرة (في أواخر العصر الأموي) وقد ازدهرت في العصر العباسي. اعتمدت المعتزلة على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي. كما كان تأكيد المعتزلة على التوحيد وعلى العدل الاجتماعي أعطاهم أهمية كبرى لدى الناس في عصر كثرت فيه المظالم الاجتماعية وكثر فيه القول بتشبيه وتجسيم الذات الإلهية. ُيعتقد أن أول ظهور للمعتزلة كان في البصرة في العراق ثم انتشرت أفكارهم في مختلف مناطق الدولة الإسلامية كخراسان وترمذ واليمن والجزيرة العربية والكوفة وأرمينيا إضافة إلى بغداد. انطوى تراث المعتزلة لقرون ولم يعرف عنه سوى من كتابات آخرين سواء من أشاروا إليهم عبورا أو من عارضوهم، إلى أن اكتشف مصادفة في اليمن قبل بضعة عقود أهم كتاب في مذهب الاعتزال وهو "المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار بن أحمد.

التصوف وأعرف المذاهب كلها وأعرف الاعتزال، أعرف التشيع ووحدة الوجود قال لي بعد أن قويت علاقتي به :

اقرأ هذا الكتاب " الملل والنحل " للشهرستاني، وأيضا كتاب آخر " الفصل في الملل والنحل والأهواء " لابن حزم كنت أقرأ ولا أفهم لا أعرف ماذا أقرأ، لكن ظلت هذه الكتب وظلت هذه الإشارات عالقة، ولما نضجت وعرفت، بدأت أستعيد هذا الكلام الذي كان يقوله، وأنا أعده من الطلاسم.

من هذه المكتبة مكتبة الجامع الكبير في بريدة التي أمر ببنائها الملك سعود، وظلت أكثر من ٤٠ سنة في موقعها حتى زحمتها الأسواق وأصبحت صغيرة، ثم أحيلت المكتبات إلى وزارة المعارف وأنشئت الآن مكتبة سميت مكتبة الملك سعود، لا زالت قائمة لكنني الآن أمتلك من الكتب أكثر مما فيها.

في تلك الأثناء درست في الابتدائي حتى السنة الرابعة الابتدائية، وانتقلت إلى المعهد العلمي، والمعهد العلمي في ذلك الوقت يعتبر جامعة بل أكبر من جامعة، وأنا أراهن أن المعهد العلمي في بريدة، وفي غيرها من المعاهد العلمية في إمكانياتها وفي جدها وفي حرصها وفي تحصيلها تتحدى الجامعات النظرية الآن، وفعلا تتحداها فدخلت المعهد العلمي . مَنْ في المعهد العلمي؟

عبد الرزاق عفيفي، وعبد القادر شيبة الحمد ، والشيخ صالح السكيتي، والشيخ صالح البليهي، ومدير المعهد محمد العبودي، وذلك يعني لي نقلة ضوئية، أوسمها صاروخية، أن أنتقل إلى المعهد كان الشيخ محمد العبودي من جيراننا بيته لصيق لبيتنا، وكان حريصاً على أن أترك الدراسة في المدارس والكتاب وتحولنا نحن من الكتاب إلى المدارس الابتدائية، حيث ألغت الدولة الكتاتيب وعينت أصحاب الكتاتيب مُدرِّسين في الابتدائي ونقلتهم هم وطلابهم وصنّفت الطلاب، أنا وضعت في السنة الرابعة الابتدائية، بعدما نقلت من الكتاب وبقيت سنة، بعدها انتقلت إلى المعهد العلمي؛ فالشيخ محمد العبودي، حفظه الله ووفقه، لأنه قريب لنا وجار لنا بيته لصيق لبيتنا- أجرى لي امتحاناً بسيطاً، وألحقني بالتمهيدي، ولما دخلت المعهد

العلمي أحسست أن هناك صراعًا بين المشايخ السلفيين: الشيخ صالح البليهي والشيخ صالح السكيتي والشيخ عبدالله الخضيري والشيخ محمد بن مرشد، وبين الأساتذة الأزهريين: عبد الرزاق عفيفي، ومناع القطان، وعبدالقادر شيبة الحمد، وعلي شباط، وغازي ومجموعة من أساطين الأزهر، ولما بدأنا ندرس يدخل علينا أساتذة سلفيون جادون عندهم حدية وحدة في الآراء، وهناك انضباط وهناك تقيد بالنص لا يمكن أن تتجاوز ظاهر النص أو منطوقة، ثم يخرج هؤلاء ويدخل الأزهريون بانفتاحهم وبثقافتهم وبتعدد انتماءاتهم وبأشعريتهم لأن أكثرهم من الأشاعرة⁽¹⁾ فاستذكرت الحضرمي لما بدأ الصراع بين الفئتين.

وهوصراع غير مقصود وغير مفتعل وغير محسوس به، فالمدرِّس يدخل ويعيش معك في سلفية منغلقة على ذاتها ثم يدخل آخر بثقافة متعددة المشارب ومتعددة المصادر، والطالب مثلي يعيش بين جزر ومد.

وبدأت من المكتبة أيضًا، وكان الشيخ العبودي، حفظه الله، حريصًا على أن أتولى بعض الأنشطة؛ فأسند إليّ تحرير صحيفة حائطية، وأسند إليّ تقديم برنامج في النادي، وطلب إليَّ أن أقرأ (العقد الفريد) لابن عبد ربه وألتقط منه بعض الحكم، وبعض النكت وبعض الأشياء كمختارات في هذا المنتدى.

في ذلك الوقت أيضًا، كانت مادة المطالعة "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء"⁽²⁾ فلما جاء الأزهريون وجدوا أنها لا تربي الذوق ولا تنمي الأسلوب، هي تربي الأخلاق وتنمي الأخلاق؛ لأنها أحاديث وأمثال وحكم وغيرها.

---

(١) الأشاعرة: فرقة كلامية إسلامية تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري، الذي رجع في آخر حياته إلى منهج السلف، ومصدر التلقي عندهم الكتاب والسنة على مقتضى قواعد علم الكلام، ومن عقائدهم: إثبات جميع الأسماء للذات الإلهية وبعض الصفات (الصفات السبع).

(٢) لابن حبان البسيتي، كتاب في الوعظ والتذكير، فقد حوى الكتاب ما يحتاجه العقلاء، ويفوق العالم به أقرانه، ويكون النديم في الخلوات والمؤنس في الفلوات، بين فيه ما يحسن للعاقل استعماله من الخصال المحمودة ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة، حاويًا لفنون الأخبار وأنواع الأشعار مذكرا بالحثٍّ على لزوم العقل وإصلاح الرائد وما أبيح من المزاح للمرء وما لم يبح، وذكر ائتلاف الناس واختلافهم والحث على صنوف الخير. وقد تم تحقيق وشرح المسائل الغامضة زيادة في الفائدة.

فاقترحوا أن تغير هذه المادة وبحثوا وقالوا: لعلنا نقرر كتاب (النظرات) للمنفلوطي فقرروا كتاب النظرات كمطالعة لما بدأت أسمع اللغط والكلام حول (روضة العقلاء) تصلح أولا تصلح سمعت عن كتاب (النظرات) اشتريته، وكان الكتاب في ثلاثة أجزاء وقرأتها في يومين فوجدت إلفا بيني وبينها أحسست أنني أفهم وأنني أتذوق وأنني أطرب أحسست أن هناك شيئاً كخيط رفيع يربطني بهذا الكتاب، فدخل في ذلك الوقت الشيخ صالح البليهي رحمه الله وقال: من عنده كتاب النظرات؟ قلت له: أنا، فقال: هاته فأتيته بالكتاب وهو في ثلاثة أجزاء وأعطيته إياه، وبعد ثلاثة، أيام ثارت ثائرة الإخوان؛ وقالوا هذا لا يصلح! وهذا غير مفيد!

فبدأ الجدل بين الأزهرين والمشايخ حول كتاب (النظرات)، هل يقرر مطالعة يسمونها قراءة أولا يقرر؟! فانتصر المشايخ على ذلك، ووجدوا حلا وسطًا أن يقرروا (مع الرعيل الأول) للدكتور (محب الدين الخطيب)، وقرر هذا الكتاب وظل مقرراً حتى تخرَّجت أنا من المعهد، كانت الخطوة الثانية هي مكتبة المعهد العلمي وكانت مكتبة مليئة بالأمهات وعرفنا من خلالها عدداً كبيراً، من الأمهات والموسوعات وكان الأزهريون قد طلبوا من الرئاسة العامة للمعاهد والكليات أن تشترك في (مجلة الأزهر)، واشتركوا، وكان يأتي للمعهد ثلاث نسخ: نسخة يأخذها الشيخ العبودي ونسخة لغرفة المدرسين، ونسخة توضع في المكتبة، وكان رئيس التحرير في ذلك الوقت (أحمد حسن الزيات)، وكان يكتب افتتاحية أكاد في ذلك الوقت أن أحفظها عن ظهر قلب، حتى أنني من المقترفات التي استسمحت الشيخ العبودي فيها. أنني أقرأ الافتتاحية فإذا تغافلت أمين المكتبة نزعت المقدمة – مقدمة الزيات– من المجلة.

وكانوا يتساءلون من هوالشخص الذي ينزع الافتتاحية، وكانوا يتصورون أن من يقوم بنزعها متدين لأنها الوحيدة التي تتسم بالأدب الحديث والخيال، فالصحيح هو أنني أنا من ينزعها من المجلة.

بعد حوالي ستة أوسبعة شهور، كتب أحمد حسن الزيات رحمه الله في الافتتاحية: كيف يكتب الزيات مقاله؟ الزيات كتب مقالاً عن كيف أكتب مقالي؟ فقال - على ما أذكر لا أدري إن كنت قد أخطأت- أنه بعد عصر يوم الجمعة أخرج إلى ما نسميه نحن (البرندة) (الردهة) في شقته، وأجلس ثم أبدأ بالكتابة، وتعرَّض إلى المغنية المشهورة (أم كلثوم)، وقال: أنني أستمع إليها وأتلذذ بصوتها! وأنني أكتب المقال تحت تأثير الطرب، فلما جاء المقال إلى المعهد العلمي، ثارت ثائرة المشايخ!

وتلاحقت البرقيات كيف يمكن أن تدخل مكتبة المعاهد العلمية مجلة تكتب عن المغنين والمغنيات؟! فمنعت هذه المجلة، وكنت قد خسرت هذه المدرسة الأسلوبية، مدرسة أحمد حسن الزيات، ولكنني ذهبت واشتريت كتب الزيات (وحي الرسالة)، وبقية كتبه. هذه كانت الخطوة الثانية من خطوات ما يسمى بتجربتي القرائية.

المشهد السعودي خلال هذه الفترة يبدو كأنه في طفولة فكرية، غير أن الثقافة اتسعت والفكر اتسع، والانفجار المعرفي وثورة الاتصالات والمعلومات وغيرها أخذت بالاتساع ومن ثم ما عاد الإنسان يبهره شيء؛ لأن الأرض كلها أصبحت كرة صغيرة، أوقرية صغيرة، بين يديك، كنا سابقاً أمام الأساتذة المصريين عندما جاؤوا من مصر إلى المعهد العلمي الواحد منا يذهل أمام أحدهم وهويتحدث، الآن هناك قناة فضائية اسمها : (الوطن الكبير) تقدم خطابات للرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله، فعندما كنا نسمعها في شبابنا كنا نذهل، ونصاب بخدر من هذه الخطابات، وكنا نتصور أن ما يقوله كما يقول سعد زغلول عن الرافعي (تنزيل من التنزيل)، الآن نسمع كلامًا عاديًا لا يثيرنا ولا يشد انتباهنا؛ لأن قاعدة المعلومات والاتصالات قد اتسعت، وحتى الذين يتمسكون بالخطاب الثوري القديم، ويظنون أنه سيغير وأنه

سيبدل. لن يؤثر ولن يلتفت إليهم أحد، ولن ينظر إليهم أحد، لأن لكل زمان خطابه، ولكل زمان رجاله، لا نستطيع نحن أن نقول: إن العظماء الذين جاؤوا قبل مئة سنة يستطيعون أن يكونوا عظماء لوجاؤوا الآن. بعضهم يقول عن (صلاح الدين) وينادون بعودة (صلاح الدين) لكي يعمل وينقذ الأمة، لوجاء الآن صلاح الدين بإمكانياته لأدخلناه المتحف، القضية تحتاج إلى أن ننظر في الواقع، ومتطلباته ولن ننخدع بأن ما هوصالح في الزمان الأول صالح الآن، العالم بسلطته في الأول يختلف. أنا أذكر الأستاذ إذا أقبل يلصق الطالب نفسه بالجدار أما الآن فالوضع تغير كثيراً. تغيرت الأمور ويجب أن نقبل هذا التغيير ونتكيف معه..!

كان في بريدة مجموعة من الشباب الموظفين الذين كان عندهم نوع من الاستنارة، قالوا لعلنا نفتح مكتبة، ونستقطب الكتب والمجلات المصرية كانت في ذلك الوقت (مصر) هي مصدر الإشعاع، وهي عشق القارئ السعودي؛ ففتحوا مكتبة سموها (مكتبة النهضة التجارية)، وبدؤوا يأتون بكتاب الهلال، والمصور وآخر ساعة، ويأتون بمجلات وبصحف، طبعاً أنا لا أستطيع أن أشتريها؛ لأنني لا أمتلك قيمتها لكنني آتي وأدخل في المكتبة وأبدأ قراءة هذه المجلات وأتصفح هذه الكتب.

ومنها تعرفت على رموز الأدب في مصر تعرفت على (طه حسين)، وعلى (العقاد)، وتعرفت على (الرافعي) و(الزيات)، وتعرفت على (زكي مبارك)، وتعرفت على (محمد مندور)، وتعرفت أيضًا على الروائيين كالسباعي ونجيب محفوظ وغيرهم، وتعرفت أيضا على (جورجي زيدان) في رواياته الإسلامية، وبدأت ارتبط بهذا التيار لكنه ارتباط من غير وعي كامل، فلا أفرق بين العقاد ونجيب محفوظ، ولا أفرق بين الزيات وطه حسين. المهم أنهم أدباء ومشاهير، وأقرأ في الصحف عنهم وعن معاركهم الأدبية، وكنت أتمنى أن أكتب، وأن ينشر لي وأرى اسمي وصورتي.

وبدأت أفكر متى يأتي اليوم، الذي أجد صورتي وأجد اسمي في الجريدة، وبدأت أكتب وأحاول، وأول جريدة أرسلت إليها جريدة (الخليج العربي) التي كان (عبد الله الشباط)، رئيسًا لتحريرها، واخترت عنوانًا: (ماذا في الحقيبة؟)

وكتبت مقالين وإذ بي أفاجأ بنشر المقال الأول، فما تمالكت نفسي من الزهووالفخر، وأخذت هذه الجريدة ورحت أعرضها على من يقرأ ومن لا يقرأ وعلى من يعرف ومن لا يعرف، وكتبت خمسة مقالات وأرسلتها إلى الأستاذ الشباط، وانتظرت نشرها وإذا بالرد يقول الكاتب حسن الهويمل يبدوأن الحقيبة خالية، وأدركت من بعد أني بكّرت على نفسي، وما كان يجب فعل ذلك وأحسست أنني يجب أن أنمّي وأن أقرأ وأن أتواصل!

فكما قلت: أعجبت بطه حسين؛ لأسلوبه السلس، وأعجبت بالزيات وأعجبت بالمنفلوطي، كأصحاب أساليب ثم أعجبت بالعقاد كمفكر وإن كنت لا أفهم العقاد وأنا أذكر أول كتاب اشتريته للعقاد هوكتاب "الله" وهذا من أعقد كتبه لأنه يتحدث عن الذات الإلهية في الفلسفات الغربية القديمة والحديثة، هذا من الكتب الموجودة تعليقاتي عليه، كأني أشمت به عندما أقرأ بعض العبارات التي لا يقبلها إنسان سلفي مثلي! والعقاد من الأدباء الذين أثروا علي، حتى في عنفي في مطلع شبابي أثر علي وكانت أساليبي في النقد أساليب عنيفة، ثم بعد ذلك تطورت اتصالاتي، وتعرفت على أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، ونشأت بيني وبينه علاقة متينة، وهو الذي دلني على الفلسفة الحديثة عند ديكارت، وكان معجباً به، وأيضاً أغراني بالمذهب الظاهري، وتعددت قراءاتي إلى أن واصلت دراستي الجامعية، ودخلت في المنهجية وفي الدراسات المبرمجة والدراسات الموضوعية المحددة. وربما أكثركم يعرف ما أنا عليه، ولست بحاجة إلى أن أقول عن فكري وقناعاتي، لكن ما الذي استفدته حقيقة من القراءة، وهذا هوالمهم ليس الاستفادة المعرفية وليس الكسب المعرفي، ولكن الاستفادة المنهجية وهذا هوالمهم والذي أتمنى أن يستفيده الإنسان من قراءته.

أولاً: استفدت أن السيطرة الحقيقية على اللغة هي سيطرة تفكيك وفهم وليست سيطرة إنتاج؛ لأن الإنسان المهتم قد يسيطر على اللغة، إما أن يسيطر عليها سيطرة إنتاج وأنا أعرف من متابعتي أن الذين سيطروا على اللغة من المبدعين والشعراء، أي

الذين سيطروا على اللغة سيطرة إنتاج :

(المتنبي) و(شوقي) و(نزار قباني) .

هؤلاء الثلاثة امتلكوا ناصية اللغة كإنتاج لكن الذي أعنيه هو سيطرة التفكيك وسيطرة الفهم ، لأن اللغة العربية حمّالة أوجه ، وكذلك النص ، ولهذا قال الأصوليون : النص ذو مستويات أربعة تراوح بين الإحتمالية والقطعية الدلالية والثبوتية .

فأنا لا أفاضل بين السيطرة على اللغة كإنتاج ، والسيطرة على اللغة كتفكيك ، لكن أنا عندما أريد أن أخوض معترك الصراع لا بد أن أكون مسيطراً على اللغة في تفكيك مفهومها والوصول إلى أدق تفاصيلها ؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ؛ ومن ثمَّ أنا أعتبر أساتذتي الحقيقيين الذين علموني فعلاً مناهج النقد اللغوي هم الحداثويون ، وأنا أتعلم من خصومي أكثر مما أتعلمه من الذين يسيرون معي ، ولوجئت إلى مكتبتي لوجدت أن أساطين الحداثة والفلسفة والنقد الألسني . . هم الذين يحتلون مكتبتي بكتبهم ، وبأعمالهم فخصمك هو الذي يصنعك ولقد قلت من قبل : إن الذي يكرس المذاهب هم الخصوم !

ومن ثمَّ أقول : إن السيطرة على اللغة هي سيطرة تفكيك أي أنني لا أستطيع أن أتصدى لأي خصم ما لم أهضمه . لأني أعرف ما هو السلاح الذي سيواجهني به ، وأعرف ما هي الثغرات التي من خلالها أستطيع أن ألتف عليه ، أي لا أواجهه ، ولا يمكن أن أنتصر بالمواجهة بل انتصر بالالتفاف أكثر مما أنتصر بالمواجهة ، ولا يمكن أن يكون لك التفاف إلا بالتفكيك بمفهومه الأوسع ولن أنتصر حتى أستطيع أن أفكك اللغة باقتدار وأستطيع أن أنتج اللغة باقتدار .

لقد استفدت من مصدرين : من علماء أصول الفقه ومن الألسنية الحديثة من البنيوية والتفكيكية والتحويلية والتداولية وغيرها استفدت السيطرة على اللغة سيطرة

تفكيك، وسيطرة فهم وسيطرة توجيه دلالة، فكثير من المفكرين يتلاعبون بالدلالة، وينتجون دلالة ليست مقصودة للمرسل، هذه الإشارات عناصر محاضرة ألقيتها - ولكن لا أدري أين- : لقد تناولت تحولات مركز الكون النقدي فلما كان مركز الكون النقدي (المنتج) نشأ تاريخ الأدب العربي وترجمة المنتج وغيره . ثم تحول مركز الكون النقدي إلى (النص) فظهرت الألسنية وتبعاتها كالبنيوية، والتفكيكية والتحويلية، والتداولية وغيرها . ثم انتقل مركز الكون النقدي إلى(المتلقي) فجاءت نظرية الدلالة واستخدمت التأويلية والتفكيكية، وجاء موت المؤلف بل جاء موت اللفظ لينشئ المتلقي الدلالة التي تهمه، ولكي يسيطر على النص، ويحمله ما لا يحتمل، لقد استفدت من تجربتي القرائية : أنه لا يمكن أن تتوفر على القدرة في مواجهة الخطاب الآخر إلا إذا سيطرت على اللغة سيطرت فهم وتفكيك، وليست سيطرة إنتاج، واستفدت أيضاً أن الاختلاف أزلي وحتمي، ويجب أن نرتب وضعنا على وجوده وعلى قيامه، ولا يجب أن نحتكر الحقيقة، ولا أن نقصي المختلف معنا، ولا أن نتسلط على الآخرين أونكمم أفواههم . يجب أن نحاول بقدر ما نستطيع الاحتواء أوالتحييد، مادام الاختلاف أزلياً فإنك لا تستطيع أبدًا أن تسيطر بمذهبك أو بعقيدتك أو بخطابك لن تسيطر على المشهد، وإذا أيقنت وآمنت بأن الاختلاف أزلي فيجب أن تبحث عن موقع لك لا أن تصادر حق الآخرين، وأن يكون التنازع ليس تنازع البقاء، بحيث تفني الآخر أو يفنيك، وليس هناك ما يمنع من تنازع الصدارة بمعنى يكون خطابك هوالأول، وليس التنازع تنازع البقاء بأن تنفي الآخر لا، وإنما يكون الحيز الذي تسيطر عليه هوالحيز الأكبر، وعندما تؤمن بالاختلاف تتفادى الرفض وتتفادى التهميش والمصادرة، ويصبح الإنسان عنده قدرة على التعايش مع الآخرين، ويمتلك الخطاب الحواري الذي يستطيع من خلاله أن يوجد له ولومفحص قطاة في مشهد الفكر المحلي والعربي والعالمي أيضًا، والرسول ﷺ عندما قال: "بلِّغوا عني ولو آية" فعندما تريد أن تطرح مشروعك الديني، لا تطرحه من خلال سلفيتك ولا من خلال

مذهبك، ولا من خلال انتمائك، قد يكون لك انتماء؛ نعم، أنا سلفي حنبلي، ولكن لا يمكن أن أطرح خطابي من خلال هذه الأشياء لم؟ لأن الرسول ما قال بلغوا عني ما تفهمون من قولي أومن قول الله تعالى، لا، قال بلغوا عني ولو آية انزع الآية واطرحها كمشروع خطاب، ولا تخلف الآية وتطرح مفهومك أنت، هناك يكون الاقتراب من الآخر يعني أنك تأتي بالنص مجرداً من كل إضافات، لأننا نعرف أن النص التشريعي يؤخر ويطرح ناتج النص وإنتاجنا نحن كحنابلة أو مالكية أو شافعية أو أشاعرة أو معتزلة أو شيعة نطرح الدين من خلال معتقدنا نحن لا، اطرح الدين مجرداً وجادل الآخر في معطيات هذا النص. هل معطيات هذا النص يحتمل قولي بطريقة مباشرة، ويحتمل قولك بطريقة تأويلية أوبطريقة تفكيكية كما يقولون. هذه أيضاً من الأشياء التي استفدتها من قراءتي. يبدولي أن الوقت انتهى، وأنا لم أبدأ بعد.

وبخصوص استهداف الأطفال في القراءة، هذا مجال تربوي يعني هذه وظيفة التربويين كيف يهيئون الكتاب المناسب للطفل، يهيئون القضايا المناسبة للطفل، كيف يهيئون الوسائل والإيضاحات التي يحتاجها الطفل. . لكن نحن ككتاب مثلا نصارع فكراً، ونصارع سياسة، ونصارع أخلاقيات، ونصارع قضايا متعددة، ولا يمكن أن ننظر إلى الطفل في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، وننتج له أدبًا.

أمّا عن آلية القراءة، فأنا، صراحةً، جئت بأهمية القراءة، وأنواع القراءة: القراءة الوظيفية، والقراءة الاستطلاعية، والقراءة النقدية، والقراءة البحثية والتصفح والتفحص وقراءة السطور، وما بين السطور، وما وراء السطور ويقال الحرفي والتفسيري والتطبيقي، وما يقال عن القراءة وماذا قال وماذا قصد؟ وكيف كتب؟ وهيمنة القارئ، وهيمنة المقروءة. كل هذا كنت أريد أن أستعرضه لكن وجدت دائمًا الوقت قاتل، وأنا دائما ضحية الوقت، لا يمكن لواحد أن يأتي بما يريد، وأنا حريص على ذلك فمثلاً لدي أكثر من ثلاثين عنواناً أريد أن أطرحها ثم أسترسل بواحد منها ثم أفاجأ بأنه تبقى من الوقت دقيقة أو بعض دقيقة فما يستطيع الإنسان أن يأتي على ما يريد.

على أية حال أرجو أن يكون فيما قلت بعض الفائدة ، وأن يثير هذا التأويل وهذه التهويمات والتحويمات ما أنتم بأمس الحاجة إليه .

أشكركم ، وباسمكم أشكر الأخوة القائمين على المكتبة وعلى هذا المشروع بالذات ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .